غير مرخصة للطباعة

المحور الأول

التعريف العام بالإسلام

٨

الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

من الدستور الإلهي للبشرية

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٣ ـ ١٠٥].

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤].

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن جرير البجلي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**مَن سنَّ في الإسلام سنَّة حسنة فله أجرها، وأجر مَن عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**». رواه مسلم.

عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**شهدتُ حلْف المُطَيَّبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحبُّ أن لي حُمْرَ النَّعَم وأني أنكُثُه**». رواه أحمد.

عن خباب ﷺ، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**». رواه البخاري.

غير مرخص للطباعة

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى.

(أما بعد)

فمما لا ريب فيه أن كل المشفقين على مسار الأمة، وكل القوى والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية، متفقون على أن أمتنا تعيش في أزمة حقيقية، تعددت أعراضها، وتنوعت آثارها، وإن اختلفوا في تعيين جوهر الأزمة: ما هو؟

أهي أزمة إيمان وأخلاق، كما يصورها دعاة الدين والفضيلة؟

أم هي أزمة فكر ومعرفة، كما يصورها رجال الفكر والثقافة؟

أم هي أزمة حرية سياسية وديمقراطية، كما تصورها القوى المعارضة للنظم الحاكمة؟

أم هي أزمة علم وتكنولوجيا، كما يصورها كثير من دعاة الإصلاح، ومن رجال الفكر أنفسهم؟

لقد ردد كثيرون مع شوقي قوله:

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ فإن همو ذهبت أخلاقُهُم ذهبوا!

QaradawiBooks.com

ولكـــن الدكتور زكي نجيب محمـــود علق على ذلـــك بقوله: «لولا خشيتي سوء التأويل لعارضت شـــاعرنا، لأقول له: وإنما الأمم في يومنا التقنيات ما اطـــردت وتغلغلت، فـــإن هم انعدمت علومهـــم وصناعهم وتقنياتهم، تخلفـــوا إلى حيث لا أمـــل ولا رجاء، اللهـــم إلا إذا فهمنا الأخلاق بمعنى يجعل منها أن أعرف كيف يُضغط على الأزرار ومتى»[١]. وآخرون قالوا: إنما الأمم الأفكار والثقافة.

وغيرهم قالوا: إنما الأمم الحرية لوطنها، والحقوق لشعبها.

والأولى من ذلك أن ندع وحدانية التعليل والتفسير، إلى الشمول والتعدد.

إن «التفســـير الواحدي» للتاريخ وللواقع لم يعد مقبولًا، لأنه يبصر الحقيقة من زاويـــة واحدة، ويغفل زواياها الأخرى، وهو يبسِّـــط الأمور المعقدة والمتشابكة.

إن نهضة الأمم تؤثر فيها الثقافة، كما تؤثر فيها السياســـة والاقتصاد والتشريع والتربية وغيرها.

ومهما يكـــن الاختلاف فـــي تحديد جوهـــر الأزمة، فأحســـب أنه لا يخالف أحد في أهمية دور الثقافة فيهـــا، وخصوصًا الجانب الفكري والأدبي والفني منهـــا. وذلك لما لها من تأثير في الأخلاق والســـلوك، ومن تأثير في السياسة والحكم، وتأثير في توجهات الشعوب إلى التقدم أو التخلف، إلى العلم والعمل، أو إلى الكلام والجدل.

فلو صحت ثقافة أمة واستقامت، وتكلمت وتوازنت وسلمت من عوامل التشـــويه والتحريف ـ كما هو الأصل في ثقافتنا ـ لكان لها أثرها البالغ في

(١) تجديد الفكر العربي صـ ٢٣٨ ـ ٢٣٩، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٩، ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

صحة توجه الأمة واستقامتها وتكاملها وتوازنها. وإذا حدث العكس كانت النتيجة عكسية، لأن الثمرة من جنس الشجرة، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

أما قضية «الأصالة والمعاصرة» في ثقافتنا فهي قضية قديمة جديدة.

فمنذ كنا طلابًا صغارًا، ونحن نقرأ ونسمع ونتابع أنباء صراع فكري أدبي محتدم بين تيارين متعارضين يعبَّر عن أحدهما بـ «القديم»، ويعبَّر عن الآخر بـ «الجديد».

ومما قرأناه من آثار هذه الحرب التي تسلُّ فيها الألسنة لا الأسنَّة، وتشحذ فيها الأقلام لا السيوف: كتاب «تحت راية القرآن» أو «المعركة بين القديم والجديد» لأديب العربي والإسلام مصطفى صادق الرافعي، الذي شنَّ فيه الغارة على الدكتور طه حسين وكتابه عن «الشعر الجاهلي».

وفيه سخر الرافعي من هؤلاء «المجددين» الذين يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر[١]!

ومما قرأناه شعرًا من آثار هذه المعركة قول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته الشهيرة عن «الأزهر»[٢] مشيرًا إلى الغلاة من دعاة التجديد، وأعداء القديم:

دع عنك قولَ عصابةٍ مفتونةٍ ... يجدون كلَّ قديم أمرٍ منكرا!
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مات من آبائهم أو عُمِّرا!
من كلِّ ساعٍ في القديم وهدمه ... وإذا تقدم للبناية قصَّرا!
وأتى الحضارة بالصناعة رثَّةَ ... والعلم نزرا، والبيان مثرثرا!

(١) من عبارة الرافعي على غلاف كتابه: تحت راية القرآن.
(٢) الشوقيات صـ٣١٨، تعليق د. يحيى شامي، نشر دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

كما قرأنا قول «إقبال» عن هؤلاء المجددين: إن جديدهم هو قديم أوروبا. كما ذكَّر هؤلاء بأن الكعبة لا تُجَدَّد، ولا تُستجلب لها حجارة من الغرب!

واستمرت هذه المعركة بين التيارين المتضادين، ظاهرة حينًا، وخفية في معظم الأحيان، يشتعل أوراها كلما ظهر كتاب بالغ الجرأة، أو نشرت مقالة كذلك، وتخبو جذوتها كلما مضت الحياة على وتيرتها المعتادة.

كان التيار الأول يمثل القديم الموروث في ثباته وشموخه، وكان التيار الآخر يمثل الجديد الوافد في بريقه وإغرائه.

وكان يمثل الدفاع عن التيار الأول: رجال الأزهر ودار العلوم والقضاء الشرعي، ومن دار في فلكهم في مصر، وأمثالهم في البلاد العربية والإسلامية.

وكان يمثل التيار الآخر: خريجو المدارس والكليات الأجنبية في الداخل، وخريجو الجامعات الغربية والوافدون من الخارج، ومن تتلمذ عليهم، وحطب في حبلهم.

ولا ريب أنه وجد غلاة في كلا الفريقين. ففي مقابل الذين يريدون تجديد الكعبة والشمس والقمر، وجد الجامدون على كل قديم، الذين يريدون أن يوقفوا حركة الفلك، وسير التاريخ، شعارهم: ليس في الإمكان أبدع مما كان! وضاع الوسط بينهما.

وقد لخص الموقف علامة الشام محمد كرد علي في بحثه «القديم والحديث» بقوله: «ها قد أصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين وعلوم الدنيا،

QaradawiBooks.com

والأمة شطران: شـطر هو إلى البلاهة والغباوة، وشـطر إلى الحمق والنفرة. وبعبارة أخرى: نسينا القديم، ولم نتعلم الجديد»[١]!

كانت عناويـن النزاع بين التيارين تختلف مـن فترة لأخرى، ولكن المضمون في النهاية واحد. إلا أن التيار الأول يحمل في الغالب عنوانًا منفِّرًا مستنكرًا، على حين يحمل التيار الآخر عنوانًا جذابًا مغريًا.

تجد ذلك بيِّنًا واضحًا في العناوين التي اسـتخدمت في التعبير عن هذا الصراع: القديم والجديـد، التقليد والتجديد، المحافظة والتحديث، الجمود والتحرر، الرجعية والتقدمية.

حتى انتهى أخيـرًا إلى العنوان السـائد اليوم، الـذي يحمل ثنائية مقبولـة إذا أُعطيت الكلمـة حقها من الفهـم والتحليل، وهـي ثنائية التكامـل، لا ثنائية التضاد والتقابل، وهو «الأصالـة والمعاصرة»، وفي وقت ما عبر عنـه بـ «الأصالـة والتجديد». وقد قدمت فيه دراسـات، ونظمت ندوات وحلقات[٢].

وبحثنا هذا يتحـدث عن «ثقافتنـا العربية الإسـلامية بين الأصالة والمعاصرة». هكذا حـدده لي الإخـوة الزملاء في كلية «الإنسـانيات والعلوم الاجتماعيـة» بجامعة قطر، الذين خططوا لهـذه الندوة الفكرية العلمية، التي تدور بحوثها حـول هذا الموضوع المهم: «الثقافة العربية: الواقع وآفاق المستقبل».

---

(١) القديم والحديث لمحمد كرد علي صـ ٣، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م.

(٢) من ذلك: الندوة التي نظمها «مركز دراسات الوحدة العربية» عن «التراث وتحديات العصر في الوطن العربي»، أو «الأصالة والمعاصرة» بالقاهرة، سـبتمبر ١٩٨٤م، ونشـرت بحوثها ومناقشاتها في مجلد ضخم.

QaradawiBooks.com

ولا ريب أن قضية «الثقافة العربية» قضية بالغة الأهمية، ولا غرو أن عقدت حولها عدة ندوات، ومؤتمرات في أكثر من بلد، تبحث في جانب أو أكثر من جوانبها المتعددة.

ويبدو أن الإخوة الزملاء أرادوا إرضائي أو إغرائي، فجعلوا عنوان بحثي على وجه الخصوص: «الثقافة العربية الإسلامية»، إلخ. ولم يكتفوا بوصف العربية وحده، فهل يمكن أن تكون ثقافتها عربية غير إسلامية؟

هذا ما ينبغي أن نبحثه هنا: ماهية ثقافتنا: أهي عربية أم إسلامية؟ أم هما معًا؟ وما مكونات هذه الثقافة وخصائصها؟ وما معنى هاتين الكلمتين اللتين اشتهرتا على الألسنة والأقلام، ورددهما الناس هنا وهناك، دون تحديد بيِّن لمفهومهما: الأصالة والمعاصرة؟

وما المقصود بهما في نظرنا نحن المؤمنين برسالة الإسلام، وخلود دعوته، وبقاء أمته، واستمرار كتابه ـ بلسانه العربي المبين ـ محفوظًا، كما وعد الله: ﴿وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

هذا ما نرجو الله ـ تباركت أسماؤه ـ أن يوفقنا بفضله إلى إلقاء شعاع من ضوء، محاولة لإزاحة الضباب والغبش عنه، بقدر جهدنا الكليل، وزادنا القليل. وسنقسِّم دراستنا هذه إلى أربعة فصول وخاتمة.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الدوحة: رمضان سنة ١٤١٣هـ

مارس ١٩٩٣م

يوسف القرضاوي

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الأول

ثقافتنا العربية الإسلامية
مكوناتها وخصائصها

- عربية أم إسلامية؟
- مكونات الثقافة العربية: الإسلام، اللغة العربية.
- خصائص ثقافتنا: الربانية، الأخلاقية، الإنسانية، العالمية، التسامح، التنوع، الوسطية، التكامل.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

عربية أم إسلامية؟

في «المؤتمر التاريخي» الذي عُقد في رحاب جامعة بيروت سنة ١٩٧٤م تحت عنوان: «الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد»، وكان لي شرف المشاركة فيه، دار جدل طويل الذيول حول ماهية الحضارة المذكورة: أهي عربية أم إسلامية؟ وما الصلة بين العروبة والإسلام؟ أهي صلة تكامل أم صلة تناقض؟

وهذا الجدل يتجدد ويتكرر كلما تجدد الحديث عن ثقافتنا وحضارتنا، وعن هويتها وانتمائها ونسبها: إلى أي أب تنتسب، وإلى أي قبيل تنتمي؟ إلى الإسلام أم إلى العروبة؟ إلى العرب أم إلى المسلمين؟

وزاد من حدة هذا الجدل وجود تيارين غلوًّا وتطرفًا في النظرة إلى القضية: تيار الإسلاميين الذين يضيقون بالعروبة، وتيار العروبيين «القوميين» الذين يتنكرون للإسلام.

ولو أنصف كل منهما، ونظر في الأمر من جوانبه كلها، لوجدوا أن لا غنى للعروبة عن الإسلام، ولا معنى للإسلام بدون العروبة.

فالعروبة هي لسان الإسلام، ووعاء ثقافته، ولغة كتابه وسنته، والعرب هم عصبة الإسلام، وحملة رسالته الأولون، وهم الذين بعث

QaradawiBooks.com

فيهم الرسول ﷺ، من أنفسهم، ليتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ثم ينطلقوا في الأمم دعاة ومعلمين.

وأرض العرب هي أرض المقدسات الإسلامية، فيها الكعبة البيت الحرام الذي جعله الله قيامًا للناس، ومثابة لهم وأمنًا، وقبلة لأهل الإسلام، فحيثما كانوا ولَّوا وجوههم شطره، وإليه يحجُّون، وبه يطوفون، ومن حوله يسعون ويقفون وينسكون.

وفي أرض العرب مسجد النبي ﷺ، ومثوى رفاته الشريف. وفيها كذلك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. فكل المساجد التي لا تشد الرجال إلا إليها في أرض العرب.

لهذا كانت العروبة وثيقة الصلة بالإسلام، كما أن الإسلام موصول الرحم بالعروبة.

الإسلام هو الذي خلَّد العربية حينما نزل بها كتابه العظيم، وحدَّث بها رسوله الكريم، ﷺ، وهو الذي أخرجها من الجزيرة ونشرها في الآفاق.

وهو الذي علَّم العرب من جهالة، وهداهم من ضلالة، وأخرجهم من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والإسلام. فقد كانوا كما وصفهم الله تعالى في كتابه: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤، الجمعة: ٢]. وأي ضلال أبين من ضلال قوم فسدت عقائدهم وتصوراتهم، وفسدت أخلاقهم وأعمالهم؟

والإسلام هو الذي جعل للعرب رسالة يعيشون بها، ويموتون عليها، ويبذلون الأنفس والنفائس في سبيلها. وبهذا كانوا بالإسلام: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

QaradawiBooks.com

والإسلام هو الذي وحَّد العرب من فرقة، وجمعهم من شتات القبلية وأكرمهم بنعمة الأخوة بعد نقمة العداوة، وألـف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا، وجعل منهم «أمة» واحدة، تواجه أعتى أمم الأرض، بما لديها من دين تغالي به، وحق تعتزُّ بنصرته، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وما أبلغ ما قالـه الإمام قتادة بن دعامة السدوسـي في بيان ما كان عليه العرب قبل الإسلام، وما صاروا إليه بعد: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًّا، وأشـقاه عيشًـا، وأبينه ضلالة، وأعراه جلودًا، وأجوعه بطونًا، مكعومين[(١)]، على رأس حجر بين الأسدين: فارس والروم. لا والله ما في بلادهم يومئذٍ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًّا، ومن مات ردِّى إلى النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلًا يومئذٍ من حاضـر الأرض كانوا فيها أصغر حظًّا، وأرقَّ فيها شـأنًا منهم، حتى جاء الله ﷻ بالإسـلام، فورثكم به الكتاب، وأحـلَّ لكم به دار الجهاد، ووسـع لكم به من الـرزق، وجعلكم به ملـوكًا على رقـاب الناس، وبالإسـلام أعطى الله ما رأيتم، فاشـكروا نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين، وإن أهل الشكر في مزيد الله، فتعالى ربنا وتبارك[(٢)].

ولا غرو أن قال عمر بن الخطاب بحـق لأبي عبيدة بن الجراح في رحلته إلى الشـام، حيث عرضت له مخاضة في الطريق، فنزل عمر عن بعيره، ونزع خفيه، ثم أخذ بخطام راحلتـه، وخاض المخاضة، فقال له

(١) كعم فم البعير وغيره: شـدَّ فاه لئلا يعض. ومنه قيل: كعمه الخوف فهو مكعوم: أمسك فاه ومنعه من النطق.

(٢) تفسير الطبري (٨٧/٧، ٨٨)، تحقيق أحمد محمد شاكر، نشر مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

أبو عبيدة: لقد فعلت ـ يا أمير المؤمنين ـ فعلًا عظيمًا عند أهل الأرض! فصكَّه في صدره، وقال: لو غيرك يقولها، يا أبا عبيدة؟! أنتم كنتم أقل الناس، وأذلّ الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله[١].

وقال عمر الثاني ـ ابن عبد العزيز ـ وقد قال له قائل بعد موقف من مواقفه المحمودة: جزاك الله عن الإسلام خيرًا يا أمير المؤمنين. فقال له: بل جزى الله الإسلام عني خيرًا[٢]! فردَّ الحق لأهله.

الحق أن الثقافة أو الحضارة التي نعتز بها، وننتمي إليها، ثقافة عربية إسلامية معًا. لا نقول هذا تملقًا للعروبة، ولا مجاملة للإسلام، إنما هي الحقيقة التي تدل عليها كل الأدلة.

هي ثقافة عربية، بحكم اللغة الأساسية التي كتبت بها، وعبَّرت عنها.

بحكم روح القرآن العربي السارية في جنباتها، المؤثرة في أعماقها.

بحكم تأثير البيان العربي والأسوة المحمَّدية في مسيرتها.

بحكم أن العنصر العربي كان هو العنصر الأول في تكوينها.

بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها، ومنطلق دعوتها.

وهي مع ذلك، وقبل ذلك، ثقافة إسلامية بلا ريب.

بحكم الأهداف التي تتوخاها، والحوافز التي تدفعها.

بحكم الفلسفة التصورات التي تحركها وتفجِّر طاقاتها.

---

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٨٢/٣) وسكت عنه هو والذهبي.

(٢) رواه أحمد في الزهد (١٧١٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٢٦/٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بحكم الأجناس والعناصر الإسـلامية المختلفة التي شـاركت فيها عربًا وعجمًا.

بحكم الرقعة الواسـعة التي كانت مجالًا لها من الصين شـرقًا إلى شواطئ الأطلسي غربًا.

فالأصـوب ـ إذن ـ أن نقول: ثقافة عربية إسـلامية، وحضارة عربية إسلامية، وبذلك ننصف الحقيقة، وننصف العروبة والإسلام جميعًا.

ويزداد هذا الأمر وضوحًا عندما نبين مكونات هذه الثقافة وخصائصها.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مكونات الثقافة العربية

أعتقد أن مكونات الثقافة ـ لدى كل أمة ـ واحدة، وأهمها الدين، واللغة، والقيم والمفاهيم السائدة والمتوارثة. وبالنسبة لنا ـ نحن العرب ـ نجد أن مكونات ثقافتنا هي: الإسلام والعربية، والقيم والمفاهيم المتوارثة والمتراكمة على مدار التاريخ.

وسأكتفي بالحديث عن الاثنين الأولين: الإسلام، والعربية:

١ ـ الإسلام:

إن الدين هو المكوِّن الأول لثقافة الأمة، أي أمة. فهو الذي يخط مجراه في تفكيرها وضميرها وأغوار وجدانها. وهو الذي يحدِّد لها فلسفتها الأساسية عن سر الحياة، وغاية الوجود، ويجيبها عن الأسئلة الخالدة التي فرضت نفسها على الإنسان في كل زمان ومكان: من أنا؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين أذهب؟ ولماذا أحيا؟ ولماذا أموت؟

الدين هو الذي يجعل للإنسان هدفًا ورسالة، ويجعل للحياة معنى ومذاقًا، ويصل الوجود الإنساني بالأزل والأبد، حين يربطه بالله تعالى خالقه، وبالخلود في الدار الآخرة، التي هي الحيوان ـ أي الحياة ـ لو كانوا يعلمون.

والإسلام ـ خاصة ـ له تأثيره العميق والشامل في ثقافة أمتنا العربية

QaradawiBooks.com

والإسلامية. عن طريق عقائده الإيمانية، وشعائره التعبدية، وقيمه الخلقية، وأحكامه التشريعية، وآدابه العملية، ومفاهيمه النظرية.

فهو دين يتغلغل في حياة الفرد والأسرة والمجتمع، ويؤثر في الفكر والشعور والإرادة، ويوجه العقل والضمير والسلوك، ويصبغ الحياة كلها بصبغة متميزة، تتجلَّى في توجهها الرباني، ونزوعها الإنساني، وانضباطها الأخلاقي، وتحركها الإيجابي، وتوازنها القيمي.

المسلم يأكل فيسمي الله تعالى، ويشبع فيحمد الله، وينام على ذكر الله، ويستيقظ على ذكر الله، وتجيئه النعمة فيقول: الحمد لله، وتصيبه المصيبة فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وكل حياته معجونة بذكر الله تعالى، والثناء عليه. فـ «الله» تعالى حي في وجدانه، حاضر على لسانه.

ومن قريب حضرت مؤتمرًا للمسلمين في إيطاليا، ولقيت مسلمًا إيطاليًّا فعرفتُ أن سبب إسلامه: أنه وجد مسلمًا مغربيًّا يعمل بائعًا متجولًا في البرد الشديد، فسأله: ما الذي يوفقك في البرد الشديد؟ قال: أطلب رزق الله. قال: وهل تكسب ما يكفيك؟ قال: الحمد لله، ما أكسبه يكفيني بعضه، وأرسل الباقي إلى أبويَّ وإخوتي في المغرب. قال: وهل أنت مسؤول عنهم؟ قال: نعم، رضا الله في رضا الوالدين، وصلة الرحم تطيل العمر؟ قال الإيطالي: يعني أنت راضٍ عن حياتك هذه؟ قال: رضا، ولله الحمد، ربنا يديم نعمته عليَّ. قال الإيطالي: ومن أين تعلمت هذا؟ قال المغربي: ديننا علَّمنا هذا: «**ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**»[1].

(١) رواه أحمد (٨٠٩٥)، وقال مخرِّجوه: حديث جيد. والترمذي في الزهد (٢٣٠٥)، وقال: حديث غريب. عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

قــال الإيطالي: فكيف لي أن أعــرف دينكم؟ قال المغربــي: أدلُّك على المسجد لتقابل إمامه، وهو يشــرح لك، فأنا رجل أميٌّ. وذهب الإيطالي مع المغربي إلى المســجد، ولم يكن ممن يحافظ على الصلاة أو يرتاد المسجد، وما هي إلا أيام حتى دخل الرجل في الإسلام، وحسن إسلامه، وأصبح من الملتزمين الغيورين الداعين إلى الإسلام.

ولا يســتطيع أحد يعيش فــي المجتمع الإســلامي أن ينكر تأثير الإسلام على ثقافته، أيًّا كان قدره من التدين، لأن اللغة نفسها مشحونة بمعاني الدين، والأمثال العامة المنتشــرة بين الناس ممزوجة بالدين، والأفكار والمشاعر الموجهة للســلوك متأثرة بالدين، أعني: بالإسلام الذين هو الدين السائد والغالب. حتى الملاحدة والشكاك الذين ظهروا في تاريخ الأمة ـ على ندرتهم ـ لا تخطئ تأثير الإسلام على ثقافتهم، فالإسلام ـ بتصوراته وقيمه وأفكاره ومشاعره وآدابه ـ قوة غالبة، تؤثر على الفكر والشــعور والإرادة من الداخل ومن الخارج، شــعر بذلك المرء أو لم يشعر.

وقد أكد الكثيرون ممن عايشوا المسلمين قليلًا أو كثيرًا: أن الدين هو المؤثر الأول في حياتهم وســلوكهم، وإن كانوا من العصاة والمنحرفين عن سواء السبيل.

يقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي «غوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب»: «تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال العــروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشــدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشــر قرنًا. أجل قد تجد بين المســلمين عددًا قليلًا من الزنادقة والأخلياء، ولكن لن ترى من يجرؤ

QaradawiBooks.com

منهم على انتهاك حرمة الإسلام في عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية، كالصلاة في المساجد، وصوم رمضان الذي يراعي جميع المسلمين أحكامه بدقة، مع ما في هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها في صوم الأربعين الذي يقوم به النصارى، كما شاهدت ذلك في جميع الأقطار الإسلامية التي زرتها في آسيا وإفريقية. ومن ذلك أتيح لي أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرنين في الأصفاد ومتهمين بأنواع الجرائم، فقضيت العجب حين رأيتهم ـ وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقسى العقوبات ـ لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبي، وحين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدوه.

وعلى من يرغب في فَهم حقيقة أمم الشرق ـ التي لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلًا ـ أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها. وللدين ـ ذي التأثير الضئيل فينا ـ نفوذ عظيم فيهم، وبالدين يؤثر في نفوسهم، ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين، منذ الثورة التي ضرجت مصر بالدماء». يعني ثورة ١٩١٩م.

إلى أن يقول: «إن الرجل الذي يخاطب العرب باسم الله يطاع لا محالة، ما علموا أنه يتكلم باسم الله حقًّا».

فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق. الذي استطاع العرب أن يفتحوا العالم به فيما مضى، وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير»[1].

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون صـ٤١٧، ترجمة عادل زعيتر، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٥٦م.

QaradawiBooks.com

بل أقول: إن الإسلام يعتبر مكونًا مهمًّا لثقافة غير المسلم الذي يعيش في المجتمع المسلم، وهو يتضح على تفكيره ووجدانه وعلاقاته، شعر أو لم يشعر، أحب أو كره. وهذا ما جعلني أقول للدكتور لويس عوض عندما زار الدوحة منذ سنوات: إن وجودك في المجتمع المسلم يقتضي أن تكون مسلمًا بالثقافة والحضارة، وإن لم تكن مسلمًا بحكم العقيدة والديانة[1]!

وقد رأينا من إخواننا النصارى العرب الذين لا يجبنون عن التعبير بصراحة عن أثر الإسلام فيهم وفي ثقافتهم من تركوا شهادات عادلة على هذه الحقيقة التي نتحدث عنها، وذلك مثل الشاعر القروي، ومثل الأستاذ فارس الخوري رئيس وزراء سورية[2]، ومثل الزعيم السياسي مكرم عبيد في مصر الذي قال: أنا نصراني دينًا، مسلم وطنًا.

وبحق للآخرين أن يقول كل منهم: أنا نصراني ديانة، مسلم ثقافة وحضارة.

وصلة الدين بالثقافة ليست خاصة بالثقافة الإسلامية، فكل الثقافات مدينة للأديان في تكوينها وتوجيهها، سواء أكان هذا الدين سماويًّا أم وضعيًّا، حقًّا أم باطلًا، كما هو واضح في ثقافات الشرق والغرب.

والثقافة الغربية على سبيل المثال، هي بنت الديانة المسيحية، بعقائدها وتصوراتها، ومواريثها وتقاليدها المختلفة.

وهذا ما سجله الدارسون المتعمقون من المغربيين.

يقول «ت. س. إليوت» في تأثير العقيدة المسيحية في الثقافة

(١) انظر: قضايا ثقافية (٤٧/٣)، نشر نادي الجسرة، قطر.

(٢) انظر ما نقلناه من رأيه بصلاحية الإسلام وضرورة تحكيم شريعته، في كتابنا: شريعة الإسلام صـ٦٥ ـ ٦٧، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

والحضارة الأوروبية: «في المسيحية نمت فنوننا، وفي المسيحية تأصلت ـ إلى عهد قريب ـ قوانين أوروبا. وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الإطار المسيحي. وقد لا يؤمن فرد أوروبي بأن العقيدة المسيحية صحيحة، ولكن كل ما يقوله ويفعله يأتيه من تراثه في الثقافة المسيحية، ويعتمد في معناه على تلك الثقافة».

ويقول: «ما كان يمكن أن تخرج فولير أو نيتشه إلا ثقافة مسيحية. وما أظن أن ثقافة أوروبا يمكن أن تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحي اختفاءً تامًّا. ولا يرجع اقتناعي بذلك إلى كوني مسيحيًّا فحسب، بل إنني مقتنع به أيضًا بوصفي دارسًا لعلم الأحياء الاجتماعي.

إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا، وعندئذ يكون عليك أن تبدأ البداية المؤلمة من جديد، ولن نستطيع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة. يجب أن تنتظر حتى ينمو العشب، ليغذو الضأن، ليعطي الصوف، الذي سيصنع منه رداؤك الجديد! يجب أن تمر بقرون كثيرة من الهمجية، ولن نعيش إذن لنرى الثقافة الجديدة لا نحن ولا أحفاد أحفادنا، ولو عشنا لما سعد بها واحد منا[1].

ومثل ذلك يقال في تأثير الهندوسية في ثقافة الهند، والبوذية في ثقافة الصين وكوريا وغيرهما.

ويمكننا أن نؤكد أنه لا ثقافة بغير دين، أيًّا كان هذا الدين.

حتى الذين جحدوا الدين وحاربوه نظريًّا وعلميًّا، كالماركسيين، الذين طاردوه ولاحقوه حيث كان، وشردوا رجاله، وأغلقوا معابده،

(١) ملاحظات نحو تعريف الثقافة لإليوت صـ ١٤٥، ترجمة د. شكري عياد، نشر المؤسسة المصرية العامة.

QaradawiBooks.com

وحرَّقوا كتبه، لم يسعهم إلا أن يصنعوا للناس دينًا جديدًا، يقوم مقام الدين القديم، إلهه المادة، ونبيه ماركس، وجنته الشيوعية المودعة، وشيطانه الرأسمالية، إلى آخر ما نعرف من مبادئ وطقوس لهذه الديانة، التي سمى بعضهم أمثالها: أديانًا بغير وحي!

٢ ـ اللغة العربية:

واللغة ـ أي لغة ـ هي المكون الثاني للثقافة، فهي وعاء العلوم والمعارف جميعًا، وأداة الإفهام والتعبير العلمي، والفني والعادي. ووسيلة التأثير في العقل والشعور بأدبها ونثرها وشعرها وحِكَمها وأمثالها وقصصها وأساطيرها، وسائر ألوانها وأدواتها الفنية.

والله تعالى خلق الإنسان، علَّمه البيان، سواء أكان بيانًا نطقيًّا أم بيانًا خطيًّا، ليفصح عما في ضميره بلسان مبين. وجعل من آياته اختلاف الألسنة، كاختلاف الألوان.

وكان لكل لسان ـ أي كل لغة ـ خصائصه، التي تظهر في ثقافته، وتؤثر في تفكيره ووجدانه وسلوكه.

وللعربية ـ خاصة ـ تأثير بالغ في ثقافتنا نحن العرب، لما انفردت به هذه اللغة من مميزات لم تتوافر لغيرها.

وحسبها أن الله أنزل بها كتابه الخالد القرآن: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

وإن لغة اختارها الله تعالى لينزل بها خاتم كتابه، وينطق بها خاتم رسله، ويجعلها لغة العبادة لخاتمة رسالاته، لجديرة أن تكون سيدة لغات العالمين.

QaradawiBooks.com

لقد بلغت العربية الذروة حين نزل بها هذا النص الإلهي الذي أُحكمت آياته، ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير، ولا يوجد في أي لغة من لغات الأرض نص إلهي معصوم، غير محرف ولا مبدل؛ إلا العربية، التي شرَّفها الله بالقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بعد أن حرِّفت الكتب السماوية جميعًا، بالأدلة القاطعة التي بينها العلماء قديمًا وحديثًا.

لقد ضمنت العربية الخلود، حين نزل بها القرآن الذي تكفل الله تعالى بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وهذا ما جعل لهذه اللغة العزيزة لونًا من القداسة عند العرب المسلمين، بل عند المسلمين غير العرب، الذين يجتهدون في تعلمها ما استطاعوا، ويتقربون إلى الله بنشرها وتعليمها.

وقد حدث اتصال بين اللغة والدين ـ وبعبارة أخرى: بين الإسلام والعربية ـ حتى امتزج أحدهما بالآخر، امتزج الروح بالجسد، فمن قرأ متن اللغة وشواهدها، أو نحوها أو صرفها، وبلاغتها، ورأى الشواهد والأمثلة فيها، وجدها ممزوجة بالقرآن مزجًا. وكذلك من درس شعرها ونثرها لمس ذلك لمسًا.

ومن هنا نجد محاولات بعضهم اليوم تفريغ اللغة من هذه الظواهر الأصلية فيها، وعزلها عن القرآن والسنة، كما ترى ذلك واضحًا في المعجم المعروف باسم «المنجد»[1] الذي تعمد حذف كل استشهاد بالقرآن أو الحديث في أي مادة لغوية.

ولهذا نجد كل من يحارب الإسلام يحارب اللغة العربية معه، إذ

(١) تصنيف الأب اليسوعي لويس معلوف.

QaradawiBooks.com

لا عربية بغير قرآن، ولا قرآن بغير بيانه من سنة رسوله الكريم، الذي أُمِرَ أن يبين للناس ما نزل إليهم.

ولا غرو أن كانت الدعوة إلى العامية بذرة بذرها أعداء الأمة من المستشرقين والمبشرين والأجانب، ليعزلوها عن الفصحى ـ لغة القرآن والسنة والتراث الإسلامي كله ـ كما تبين ذلك بالوثائق وأكدته الدراسات الأكاديمية[١].

وكان من أكبر هم المستعمرين الصليبيين وفروخهم في كل بلد عربي إضعاف الفصحى، وإشاعة العامية، وإعلاء اللغة الأجنبية على اللغة القومية، كما فعل ذلك «دنلوب» في نظام التعليم بمصر[٢].

وكان أكبر همهم في البلدان الإسلامية التي تكتب لغتها بالحرف العربي إلغاء الحرف العربي من الكتابة، وإحلال الحرف اللاتيني محله، كما فعلوا ذلك في تركية وماليزية وبعض البلاد الإفريقية.

وكان همّ الحكم العلماني في تركيا محاولة تفريغ التركية من الكلمات العربية التي تشغل منها حيزًا كبيرًا، لتوضع موضعها كلمات لاتينية، بدعوى أنها كلمات عالمية!

وما ذاك إلا لأن الكلمات العربية لها تأثيرها وإيجازها في نفس كل مسلم، كما أنها تذكر أبدًا بالقرآن والإسلام، وتؤكد دائمًا روابط الأخوة الإسلامية.

---

(١) انظر: تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر د. نفوسة زكريا صـ ٩ وما بعدها، نشر دار الثقافة، الإسكندرية، ط ١، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م، وما كتبه الأستاذ محمود محمد شاكر في أباطيل وأسمار عن هذه القضية، ودعوة سلامة موسى ولويس عوض وأمثالهما إلى العامية صـ ١٠٧ ـ ١٥٨، نشر مكتبة الخانكي، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٥م.

(٢) بيَّن الأستاذ شاكر أن هدف «دنلوب» من نظامه التعليمي هو سيادة اللغة الإنجليزية على اللغة العربية. انظر: أباطيل وأسمار صـ ٤٤٩.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

خصائص ثقافتنا

ولا بد ـ لكي نفهم ثقافتنا بحـق ـ أن نعرف خصائصها العامة، التي ميزتها عن غيرها من الثقافات. وهذا يحتاج إلى بحث مفرد، ولكننا نشير هنا إلى رؤوسها تبصرة وتذكرة.

فمن خصائص هذه الثقافة:

الربانية:

فهي ثقافة معجونة بالجانب الإلهي، قد امتزجت فكرة الإيمان عامة، والتوحيد خاصة، بجوانبها كلها، وجرت فيها مجرى الدم في الشعيرات، في شِعرها ونثرها، في أدبها وعلمها وفلسـفتها، في كتب اللغة وكتب الدين، وكتب العلم، على اختلافها، فيما تزيَّن به المساجد، فيما تجمَّل به المنازل.

قد يوجد فيها بعض الملاحدة أو الشـكاك، ولكنهم يمثلون الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها. ومع هـذا تجد نضح هذه الثقافة الربانية عليهم، أحبوا أو كرهوا.

الأخلاقية:

وللعنصر الأخلاقي فيها مكان رحيب، وأثر عميق، برز ذلك العنصر

QaradawiBooks.com

حتى في الجاهلية ذاتها، كما نلمسه في شعر حاتم الطائي، وعروة بن الورد، وعنترة العبسي، وغيرهم[١].

ثم جاء الإسلام، فعمَّق هذا العنصر أيما تعميق، ووسَّعه أبلغ توسعة، وربط الأخلاق بأهداف أرحب وأرقى، وحوافز أنبل وأزكى، ووصلها بفكرة الإلزام والجزاء، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة، وحرَّرها من غلوِّ الجاهلية وغلوائها، ورفع الأخلاق مكانًا عليًّا حين جعلها غاية الرسالة: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[٢]، وندَّد بالعلم الذي لا يثمر خلقًا ولا سلوكًا حسنًا.

وفصَّل آدابًا للعلم والمتعلم، والقارئ والسامع، والباحث والمناظر، بل آدابًا لكلِّ شيءٍ في الحياة، من أدب المائدة إلى بناء الدولة.

واعتُبرت الأخلاق ثمرة الاعتقاد الصحيح والتعبُّد الخالص، وإلا كان فساد الخُلُق دليل فساد الإيمان، أو فساد العبادة.

ولا تعترف هذه الثقافة بتجزئة الأخلاق: أخلاق لمعاملة المسلمين، وأخرى لغير المسلمين؛ فالخير خير للجميع، والشرُّ شرٌّ على الجميع، والحلال حلال للكلِّ، والحرام حرام على الكلِّ، لا كما جاء في توراة اليهود.

كما لا تعترف هذه الثقافة بذلك المبدأ الخطر الشرير: أن الغاية تبرر الوسيلة. بل هي لا تؤمن إلا بالوسيلة النظيفة للغاية الشريفة، ولا تصل إلى الحقِّ بالخوض في الباطل، فـ «**إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا**»[٣].

---

(١) انظر: بعض أشعار هؤلاء في ديوان الحماسة لأبي تمام.

(٢) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ومن ثم لا انفصال في ثقافة الإسلام بين الأخلاق والعلم، ولا بين الأخلاق والاقتصاد، ولا بين الأخلاق والسياسة، ولا بين الأخلاق والحرب.

الإنسانية:

ومن خصائص هذه الثقافة: الإنسانية. فلُحمتها وسُداها: احترام الإنسان، ورعاية كرامة الإنسان، وحقوق الإنسان، فهي تقوم على اعتبار أن الإنسان «مخلوق مكرم» من ربه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وأن الله جعله في الأرض خليفة، وأنه تعالى سخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه.

وهي تقوم على تكريم الإنسان من حيث هو إنسان، بغضِّ النظر عن جنسه أو لونه، أو لغته أو موطنه، أو طبقته، بل عن دينه نفسه، فهو مكرم بإنسانيته قبل ديانته. ومن المواقف الرائعة ما رواه البخاري، عن النبي ﷺ، أنه قد مرَّت عليه جنازة ميت وهو جالس، فقام لها واقفًا، فقيل له: إنها جنازة يهودي؟ فقال: «**أليست نفسًا؟**». بلى، ولكلِّ نفس في الإسلام حرمة ومكان[1].

العالمية:

وما دامت ثقافة لكلِّ إنسان، فلا غرو أن تكون ثقافة عالمية المنزع والوجهة، وقد عمِلت على تقريب الفوارق بين بني الإنسان، تلك التي فرَّقت البشر قديمًا وحديثًا، ولهذا اشترك فيها عرب وعجم، بيض وسود، أغنياء وفقراء، ملوك وسوقة، مسلمون ونصارى ويهود ومجوس، ولا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣١٢)، ومسلم (٩٦١)، كلاهما في الجنائز، عن قيس بن سعد وسهل بن حُنيف. وانظر كتابنا: الخصائص العامة للإسلام صـ٥٧ ـ ١٠٣، خصيصة الإنسانية، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

QaradawiBooks.com

تنافي بين انتماء هذه الثقافة إلى العروبة والإسلام من ناحية، ووصفها بالعالمية من ناحية أخرى. فهي ـ كما قلنا ـ عالمية النزعة والوجهة، مفتوحة لكل الجماعات البشرية، غير مغلقة على نفسها، ولا متعصِّبة ضدَّ غيرها، مثل الثقافة اليهودية المنغلقة، التي تقوم على تمجيد جنس خاص، وشعب معين، حتى وصفت الله سبحانه بأنه «رب إسرائيل»، واعتبرت الشعب الإسرائيلي ـ كجنس ـ شعب الله المختار.

أما ثقافتنا؛ فهي وإن كتبت بالعربية، وانطلقت من الإسلام، فالإسلام نفسه عالمي الرسالة من أول يوم جاء يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]. لا «يا أيها العرب»، ويدعو إلى الله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. لا «رب المسلمين ولا رب العرب وحدهم». ويعلن أن دعوته عامة لا خاصة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

التسامح:

ومن دلائل هذه العالمية وجود خصيصة «التسامح» فيها، برغم ظهور العنصر الديني فيها وغلبته عليها. ولكن الدين الذي قامت عليه، يؤكد الإيمان بحقيقتين أساسيتين على غاية من الأهمية، لتأثيرهما في فكر الإنسان وسلوكه، وعلاقاته مع الآخرين المخالفين، وهما:

الأولى: أن اختلاف البشر في الأديان وغيرها واقع بمشيئة الله تعالى، المرتبطة بحكمته، ولا يملك أحد أن يردَّ مشيئة الله، ويغيَّر سننه في الكون. يقول تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

الثانية: أن حسابهم على ما ضلُّوا فيه أو انحرفوا، إنما هو إلى الله يوم القيامة، وليس إلى الناس اليوم، وفي هذا يقول الله لرسوله في شأن

QaradawiBooks.com

المخالفين: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

ولهذا وسعت هذه الثقافة وهذه الحضارة غير المسلمين، وفسحت لهم مكانًا في مجتمعاتها، وأعطتهم ذمة الله وذمة رسوله، وذمة جماعة المسلمين، على أن يكون لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، إلا ما اقتضاه اختلاف الديانة. وبقي هؤلاء على عقائدهم وعبادتهم وشعائرهم، وبقيت لهم معابدهم ومؤسَّساتهم، ولم يجبروا على شيء يمنعهم دينهم منه. بل لم يجبروا على ترك ما يبيحه دينهم لهم؛ كالخمر والخنزير[1]. بل شاركوا في بناء الحضارة الإسلامية، وكان لهم في أحيان كثيرة مناصب وزارية وإدارية ومالية؛ على خلاف ما تعانيه الأقليات والجاليات المسلمة في كثير من المجتمعات الغربية اليوم، التي أقامت الدنيا وأقعدتها من أجل طالبات مسلمات يلتزمن الحجاب الذي فرضه عليهن الإسلام، وكذلك من أجل فتح كلية أوروبية خاصة للدراسات الإسلامية، لتخريج أئمة ووعاظ للجاليات الإسلامية الكبيرة في داخل أوروبا، شرقها وغربها.

التنوع:

ومن خصائص هذه الثقافة «التنوع»؛ فهي ليست مجرد ثقافة دينية لاهوتية، كما يتصور بعضهم. إنها ثقافة واسعة متنوعة، فيها الدين بفروعه المتعددة، واللغة والأدب والفلسفة، والعلوم الطبيعية والرياضية، والعلوم الإنسانية، والفنون المختلفة.

(١) انظر كتابنا: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي صـ ٤٧ ـ ٥٥، فصل تسامح فريد، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فيها فقه أبي حنيفة، وأصول الشافعي، وكلام الأشعري، وتفسير الطبري، ورواية البخاري، وأدب الجاحظ، ومعجم الخليل، ونحو سيبويه، وبلاغة عبد القاهر، وطب ابن سينا، وشعر المتنبي، ومقامات الحريري، وبصريات ابن الهيثم، ورياضيات البيروني، وتصوف الغزالي، وفلسفة ابن رشد، وتحليل ابن خلدون، وخط ابن مقلة، وألحان الموصلي.

فيها ابن طفيل من الأندلس، وابن أبي زيد من تونس، وابن حجر من مصر، وابن الوزير من اليمن، والشيرازي من إيران، والزمخشري من خوارزم، والدهلوي من الهند، وجلال الدين الرومي من تركيا.

فيها صلاح أهل السلوك، وخلاعة أهل البطالة.

فيها «نهج البلاغة»، و«ألف ليلة وليلة».

فيها زهديات أبي العتاهية، وخمريات أبي نواس.

فيها مرثيات الخنساء، ومجون ابن أبي ربيعة

فيها سلفية ابن تيمية، وصوفية ابن عربي.

فيها ظاهرية ابن حزم، ومقاصدية الشاطبي.

فيها عقلانية الفلاسفة، والتزام الفقهاء.

فيها اجتهاد المجددين، وتزمت المقلدين.

فيها الفرق المختلفة من أهل الملة، والفرق المنشقة عن الملة.

فيها الكتب المقروءة التي امتلأت بها المكبات، والصور المشهودة التي ازدانت بها الجوامع والمدارس والقصور «الأموي في دمشق،

QaradawiBooks.com

والحمراء في الأندلس، والأزهر في مصر، والسلطان أحمد في إستانبول، وتاج محل في الهند».

إنه التنوع الشامل أو الشمول المتنوع.

الوسطية:

يكمل خصيصة «التنوع» خصيصة أخرى هي «الوسطية» أو «التوازن». فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط للأمة الوسط، بين إفراط الأمم المختلفة وتفريطها. ومع أن الطرفين قد يوجدان داخلها، إلا أن الصبغة العامة لها، والطابع الغالب عليها هو الوسطية، التوازنية، المستمدة من وسطية الإسلام، ووسطية أمته: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

تجد هذا واضحًا في الوسطية المتوازنة: بين العقل والوحي، بين العلم والإيمان، بين المادة والروح، بين الحقوق والواجبات، بين الفردية والجماعية، بين الإلهام والالتزام، بين النص والاجتهاد، بين المثال والواقع، بين استلهام الماضي والتطلع إلى المستقبل.

التكامل:

ومن خصائص هذه الثقافة أيضًا: التكامل، التكامل فيما بين بعضها وبعض، فالثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية، وهذه تغذي الثقافة الإنسانية، وكل هذه تستفيد من الثقافة العلمية.

ومثل ذلك: تكاملها مع الثقافات الأخرى، فهي لا تدَّعي أنها تنشئ كلَّ شيء من عدم، وتبدأ رحلة الثقافة من الصفر، بل أعلنت نصوصها المقدسة أنها جاءت متممة لما كان قبلها لا مبتكرة، مكملة للبناء الذي بدأه رسل الله من قبل، مصححة للمسيرة التي داخلها

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

بعض التحريف أو الانحراف. ولهذا قال رسولها ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[١]، فهو متمِّم لا مبتدئ، ومكارم الأخلاق لم تنقطع جذورها من الدنيا، بل هي موجودة، وإن كان فيها قصور وتناقص، ومهمته أن يتمِّمها ويكمِّلها.

وموقف الثقافة الإسلامية مع الثقافات الأخرى كموقف نبوة محمد ﷺ، مع النبوات الأخرى، والذي عبَّر عنه الحديث الصحيح: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟! فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**»[٢].

ومقتضى هذا التكامل الذي اتصفت به الثقافة الإسلامية، أنها لا تجد مانعًا شرعيًّا، يمنعها من اقتباس الحكمة، والتماس العلم النافع، والعمل الصالح عند غيرها، ولو كانوا خصومها.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه: «**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها**»[٣]، والحديث ضعيف من حيث سنده، ولكن معناه صحيح، بإجماع علماء الأمة. وهو ما استقرَّ عليه الفقه والعمل.

---

(١) سبق تخريجه صـ٣٤.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وابن ماجه في الزهد (٤١٦٩)، عن أبي هريرة، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٠٦). ولكن معناه صحيح بالإجماع.

QaradawiBooks.com

وقد طلب الرسول الكريم من أسرى المشركين الذين يحسنون الكتابة، ولم يتيسر لهم دفع الفدية في غزوة «بدر» أن يفدوا أنفسهم بتعليم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة حتى يحذقوها، فتعلم منهم عدد كان منهم زيد بن ثابت كاتب الوحي، وأحد علماء الصحابة رضي الله عنهم[1].

* * *

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٢/٢٢)، عن الشعبي مرسلًا.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الثاني

لكي نكون أصلاء حقًّا

- بين الأصالة والمعاصرة.
- ماذا تعني الأصالة هنا؟
- الإسلام فوق التراث.
- قراءة مستبصرة للتراث.
- قراءات متحيزة ـ أو موجَّهة ـ للتراث.

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بين الأصالة والمعاصرة

السؤال الكبير الذي طرح نفسه علينا منذ أوائل نهضتنا، واستفاقتنا على تفوق الغرب الذي طالما أخذ عنا، وتتلمذ علينا، وكانت جامعتنا موئلا لطلابه، وكانت كتبنا مراجع لدارسيه، ثم ها هو اليوم يتغلب علينا عسكريًّا، ويتحكَّم فينا سياسيًّا، ويتفوق علينا حضاريًّا، هذا السؤال هو: كيف تكون العلاقة بيننا وبين هذا الوافد الجديد؟ وبعبارة أخرى: كيف نوازن بين قديمنا وحديثهم؟ أو بين تراثنا الأصيل ومعاصرهم الدخيل؟

أنستطيع أن نكون أصلاء ومعاصرين في الوقت ذاته؟ أي نحقق ذاتنا، ونعيش عصرنا؟ أم لا بد لنا أن نختار بين أمرين: إما أن نكون أصلاء، ونضحي بالمعاصرة، أو نكون معاصرين ونضحي بالأصالة؟

بتعبير آخر: هل العلاقة بين التراث القديم والوافد الحديث ـ أو بين الأصالة والمعاصرة ـ هي علاقة التضاد والتناقض؟ فلا أمل في الجمع بينهما، أو هي علاقة التنوع والتكامل وهنا يمكن الجمع بينهما؟

السؤال خطير، والجواب مهم؛ وخصوصًا في هذه المرحلة التي تسعى فيها أمتنا لتحقيق ذاتها، بعد أن اكتشفت ذاتها التي غابت أو غُيِّبت عنها زمنًا.

QaradawiBooks.com

وقد أجاب عنه أناس بافتراض التناقض بين الأمرين، فاختار فريق التراث والأصالة، وعاشوا غرباء عن العالم والزمان، واختار آخرون العصر والحداثة، وعاشوا غرباء عن الأهل والمكان. وبقي آخرون مترددين بين أولئك وهؤلاء.

ولكن الموقف الصحيح هو الذي يُتَّخذ بعد الدراسة المتأنية لكلٍّ من الأمرين المعروضين، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره. والتسرع في مثل هذه المواقف الفكرية قد يوقع صاحبه في هُوَّة لا يخرج منها إلا ما شاء الله.

وقد عرض علينا أحد المفكرين المرموقين من العرب كيف سقط في هذا الخطأ الشنيع من قديم، حين تسرَّع في الجواب بغير علم عن هذا السؤال؛ إنه الدكتور زكي نجيب محمود، الذي يحكي لنا ذلك في كتابه «تجديد الفكر العربي»، حين واجه السؤال: عن طريقٍ للفكر العربي المعاصر، يضمن له أن يكون عربيًّا حقًّا (أي أصيلًا) ومعاصرًا حقًّا: «إذ قد يبدو للوهلة الأولى أن ثمَّة تناقضًا أو ما يشبه التناقض بين الحدَّين، لأنه إذا كان عربيًّا صميمًا، اقتضى ذلك منه أن يغوص في تراث العرب الأقدمين حتى لا يدع مجالًا لجديد. وإن من أبناء الأمة العربية اليوم من قد غاصوا هذا الغوص الذي لم يُبقِ لهم من عصرهم ذرة هواء يتنفسونها.

وأما إذا كان معاصرًا صميمًا، كان محتومًا عليه أن يغرق إلى أذنيه في هذا العصر بعلومه وآدابه وفنونه وطرائق عيشه، حتى لا تبقى أمامه بقية ينفقها في استعادة شيء من ثقافة العرب الأقدمين.

نعم، قد يبدو للوهلة الأولى أن بين العربية والمعاصرة تناقضًا أو ما يشبه التناقض، ولذلك يجيء السؤال الذي يلتمس طريقًا يجمع

QaradawiBooks.com

الطرفين في مركب واحد، وكأنما هو سـؤال يطلب أن تجتمع مع الماء جذوة نار؛ فهل بين الطرفين مثل هذا التعـارض حقًّا؟ أو أن ثمة طريقًا يجمع بينهما؟ ذلك هو السؤال».

يقول الدكتور: «ولقد تعرضت للسـؤال منذ أمد بعيد، ولكني كنتُ إزاءه من المتعجِّلين الذين يسارعون بجواب قبل أن يفحصوه ويمحصوه؛ ليزيلوا منه ما يتناقض من عناصره؛ فبدأتُ بتعصُّب شديد لإجابة تقول: إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بترًا، وعشـنا مع مَن يعيشون في عصرنا علمًا وحضارة، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم.

بل إني تمنيتُ عندئذ أن نأكل كما يأكلون، ونجد كما يجدُون، ونلعب كما يلعبون، ونكتب من اليسـار إلى اليمين كما يكتبون! على ظنٍّ مني آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزَّأ، فإما أن نقبلها من أصحابها ـ وأصحابها اليوم هم أبناء أوروبا وأمريكا بلا نزاع ـ وإما أن نرفضها، وليس في الأمر خيار بحيث ننتقـي جانبًا ونترك جانبًا، كما دعا إلـى ذلك الداعون إلى اعتدال. بدأت بتعصب شـديد لهذه الإجابة السـهلة، وربما كان دافعي الخبيء إليها هو إلمامي بشيء من ثقافة أوروبا وأمريكا، وجهلي بالتراث العربي جهلًا كاد أن يكون تامًّا، والناس ـ كما قيل بحق ـ أعداء ما جهلوا.

ثم تغيرت وقفتي مع تطور الحركة القومية، فما دام عدونا الألدُّ هو نفسـه صاحب الحضارة التي توصف بأنها معاصرة، فلا مناص من نبذه ونبذها معًا، وأخذت أنظر نظرة التعاطف مـع الداعين إلى طابع ثقافي عربي خالص، يحفظ لنا سماتنا ويردُ عنا ما عسـاه أن يجرفنا في تياره فإذا نحن خبرٌ من أخبـار التاريخ، مضى زمانه ولم يبـقَ منه إلا ذكراه. لكنني حين أخذت أتعاطف مع هذه النظرة العربية الخالصة، كنت إزاءها

QaradawiBooks.com

بلا حول؛ فهذا مجال لم يكن لي فيه نصيب يُذكر، فلا أنا قد أتيحت لي ـ أيام الدرس ـ فرصة كافية للإلمام بقسط موفور من تلك الثقافة العربية الخالصة ـ اللهم إلا النزر اليسير الذي كان يتلقاه التلميذ في المدارس المدنية ـ ولا أنا أستطيع أن أجد الفراغ لأتوفر على الدرس من جديد.

وأحمد الله أن أتاح لي آخر الأمر هذا الفراغ، كما أتاح لي مكتبة عربية أقضي فيها بعض ساعات النهار»[1] يقصد مكتبة جامعة الكويت التي كان يعمل بها أستاذًا للفلسفة.

هكذا عبَّر الرجل عن موقفه بصراحة وشجاعة: أنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بترًا، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علمًا وحضارة، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم، نأكل كما يأكلون، ونجد كما يجدون، ونلعب كما يلعبون، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون!

وإذا كان الدكتور زكي نجيب محمود قد اكتشف خطأه في التسرع بالجواب عن السؤال الكبير، قبل أن يعرف شيئًا عن تراث أمته وثقافتها، وطفق يعالج هذا الخطأ بالقراءة والدراسة للتراث، بعد أن فات ما فات من العمر، وأصدر عدة كتب ودراسات حول الموضوع[2]، فإن كثيرين من تلاميذ الغرب لم يكتشفوا ما اكتشف من خطأ، وربما اكتشفوه ولم تسعفهم الشجاعة ليعلنوه، ولم يواتهم العزم ليعالجوه، وربما كانت لهم مصالح وارتباطات وولاءات تحتم عليهم أن يظلوا مُصرين على ما هم عليه، مدافعين عنه بكل ما يستطيعون.

---

(١) انظر: تجديد الفكر العربي صـ١٢ ـ ١٤.

(٢) منها: تجديد الفكر العربي، وفي تحديث الثقافة العربية، وثقافتنا في مواجهة العصر، وغيرها.

QaradawiBooks.com

وثمَّة آخرون راضون كل الرضا بموقفهم التبعي المقلد للغرب، اقتناعًا منهم لا خوفًا ولا طمعًا، كمن وصف الله تعالى بقوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨].

إن الموقف العلمي السليم أن نتبيَّن: ماذا تعني الأصالة؟ أو ماذا يُطلب منا لكي نكون أصلاء حقًّا؟ وماذا تعني المعاصرة؟ أو ماذا يُطلب منا لكي نكون معاصرين حقًّا؟ ثم ننظر: هل يوجد تناقض بين الأمرين؟ بحيث إذا قُبل أحدهما رُفض الآخر؟ أو أن كلا منهما يكمِّل الآخر، ولا بد أن نعيش بهما معًا؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه فيما يلي من صحائف.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

ماذا تعني الأصالة هنا؟

إن «الأصالة» التي نؤمن بهـا، وندعو إليها وصفًا أساسـيًّا لثقافتنا، ليسـت محض كلمة تقال، ولا دعوى تُدَّعى، إنها حقيقة ثابتة، لها معانٍ تقوم عليها، ودلائل تُنبئ عنها.

وتركيزنا على وصف ثقافتنا العربية الإسلامية بالأصالة ليس لمجرَّد التباهي والفخر، بل هو مؤشـر أو مفتاح لمجموعة من المعاني الكبير، يجب التنبيه عليها:

١ ـ ضرورة المعرفة والفهم لثقافتنا:

وأول هذه المعاني التي تتطلبها الأصالة هـي المعرفة والفهم: فهم هذه الثقافة بخصائصها الذاتية، ومكوناتها الأساسية. فهمها من مصادرها الأصيلة، وليس من المصادر الهامشـية أو المدخولـة، أو المنحولة، أو الواهية.

فهمها مـن أهلها الثقـات لا المجروحين، ناهيك بغيـر أهلها، من الدخلاء عليها، الغرباء عنها.

فهمها بأدواتها ومناهجها الخاصة، لا بـأدوات ومناهج غريبة عنها، مفروضة عليها.

لقد رأينا مَن يرفض رواية «صحيحَي البخاري ومسلم»، ويأخذ برواية كتاب «الإمامة والسياسة» المعزو لابن قتيبة، وهو كتاب لقيط، منحول لابن قتيبة. رأينا مَن يطعن في أسانيد المُحدثين، ويعتمد أسانيد كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني. رأينا مَن يستند إلى روايات عن عصر الفتنة الكبرى ذكرها الطبري مثلًا، بأسانيد واهية مردودة، فاعتبر هؤلاء ذكرها من عالم كبير توثيقًا لها، وهو قد بريء من العهدة بذكر سندها. وعلى الباحث أن يرجع إلى علم الرجال، ليعرف إن كان الراوي معدلًا أو مجروحًا. وقد بيَّن في مقدمته[1] لماذا اتبع هذا المنهج، ولم يدقِّق كما دقَّق في كتب الآثار أو كتب الفقه، التي يُعرف بها الحلال والحرام؟

إن كتب الحديث، المروية بالأسانيد نفسها، فيها الضعيف والموضوع، فكيف بغيرها؟

رأينا مَن يحكم على تاريخ الأمة ـ وخصوصًا في أفضل عصورها ـ معتمدين على ما تذكره كتب الأدب والنوادر والأقاصيص، التي تروي الغثَّ والسمين، والصدق والكذب، وكأن بحسبهم أنهم وجدوه في كتاب، ولو كان «ألف ليلة وليلة»!

رأينا مَن يعتبر المستشرقين حُجة في كلِّ ما يكتبون، ولا يحاول أن يمتحن آراءهم، ويناقش استدلالاتهم، ويقارن دعاويهم بعضها ببعض. ولو فعل لوجد الكثير الكثير من التهافت والتناقض والخطل المبين، والدعاوى العريضة بغير برهان. ولتبيَّن له أن ثمة نقاط ضعف أساسية فيما يكتبه المستشرقون عن ثقافتنا، نبَّهنا عليها في بعض ما كتبناه من قبل، هي:

(١) انظر: تاريخ الطبري (٧/١، ٨)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

QaradawiBooks.com

أولًا: عدم تمكنهم من اللغة العربية، وتذوقهم لها، وتفهمهم لدلالتها المتنوعة، وهذا لا بد أن يكون له انعكاسه على مدى فهمهم للمصادر الإسلامية الأصيلة، وخصوصًا القرآن العزيز، والسُنة المشرفة، ولهذا كان فهمهم للإسلام ورسالته مشوشًا ومنقوصًا.

ثانيًا: عقدة تفوُّق الإنسان الغربي، والعقل الغربي، والحضارة الغربية، والنظر إلى الغرب أنه سيد العالم، وأن أوروبا أم الدنيا، وأن التاريخ من الغرب بدأ، وإليه يعود.

ثالثًا: الانطلاق من مسلمات غير قابلة للامتحان عند الإنسان الغربي، وهي أن القرآن ليس كلام الله، وأن محمدًا ليس رسول الله، فهو قد كوَّن فكرته مقدَّمًا قبل أن يبحث، ثم هو يسعى في بحثه للاستدلال عليها بكلِّ ما يمكنه، وفي سبيل هذا يقبل الواهيات من الروايات، ويُصدق الأكاذيب، ويُضخِّم الوقائع الصغيرة، ويجعل من «الحبَّة قُبَّة»، ومن الشبهة حُجة، ويستدل بما ليس بدليل، ويرفض ما يخالف وجهته وإن كان في وضوح الشمس.

رابعًا: أن دراسات المستشرقين كثيرًا ما تكون موجَّهة لخدمة أهداف عملية، مطلوبة منها لهذه الدولة أو تلك. وكثيرًا ما تُرصد الملايين لتحقيق هذه البحوث، وهذا ما يجعل هذه الدراسات غير مبرَّأة من الغرض[1].

وقد بيَّن العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر في رسالته القيمة النافعة «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» أن المستشرق الذي يدخل ثقافتنا دارسًا مناقشًا، لا يمكنه أن يتحرَّر من ذاتيته، وسلطان لغته، وثقافته ودينه، وأن

(١) انظر كتابنا: أولويات الحركة الإسلامية صـ١٦١ ـ ١٦٣، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

QaradawiBooks.com

يكون محايدًا موضوعيًّا فيما يدرسه ويكتبه، وذلك من عدَّة طرق، تجعل مهمَّته صعبة كلَّ الصعوبة، بل تكاد تكون مستحيلة على مثله: «فمن طريق «اللغة» التي نشأ فيها صغيرًا، فإنه يسدِّده أو يتهدَّده، الإحاطة بأسرار «اللغة» وأساليبها الظاهرة والباطنة، وعجائب تصاريفها التي تجمَّعت وتشابكت على مرِّ القرون البعيدة، فصارت ألفاظها وتراكيبها الموروثة والمستحدثة تحمل ـ من كل زمان مضى وكل جيل سبق ـ نفحة من نفحات البيان الإنساني بخصائصه المعقدة والمكتملة، أو خصائصه السمحة والمستعلنة.

وبين تمام الإحاطة باللغة وقصور الإحاطة بها، مزالق تزل عليها الأقدام، ومخاطر يُخشى معها أن تنقلب وجوه المعاني مشوهة الخِلقة مستنكرة المرآة، بقدر بعدها عن الأسرار الخفية المستكنَّة في هذه الألفاظ والتراكيب.

ومن طريق «الثقافة»، فإن «الثقافة» ـ فاعلم ـ تكاد تكون سرًّا من الأسرار الملثمة في كل أمة من الأمم، وفي كل جيل من البشر. وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور، معارف كثيرةٌ لا تحصى، متنوعة أبلغ التنوع لا يكاد يُحاط بها، مطلوبة في كلِّ مجتمع إنساني للإيمان بها أولًا عن طريق العقل والقلب، ثم للعمل بها حتى تذوب في بُنيان الإنسان وتجري منه مجرى الدم، لا يكاد يُحس به، ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه وخياله انتماء يحفظه ويحفظها من التفكُّك والانهيار، وتحوطه ويحوطها حتى لا يفضي إلى مفاوز الضياع والهلاك. وبين تمام الإدراك الواضح لأسرار «الثقافة» وقصور هذا الإدراك، منازل تلتبس فيها الأمور وتختلط، ومسالك تضلُّ فيها العقول والأوهام حتى ترتكس في حمأة الحيرة، بقدر بعدها عن لباب هذه «الثقافة» وحقائقها العميقة البعيدة المتشعبة.

ومن طريق «الأهواء» وهي التي تسري في خفاء وتدب، إلا أنها لا تدب ولا تأتيك إلا متبرجة في تمام زينتها من «اللغة» ومن «الثقافة»،

QaradawiBooks.com

متردية بــرداء بــراءة القصد وخلــوص النيــة، متحلية بجواهــر الدقة والاســتيعاب والتمحيص والمهــارة والحذق، حتى يتــاح لصاحبها أن يقتنص غفلتك، ويتلعَّب عندئذ بك وبعقلك ما شاء له التلعُّب، من حيث يوهمك أنه قد استوعب لك جمع «المادة»، ويهول عليك تهويل السحرة بما يحشد تحت عينيك ويستكثر، مخفيًا عنك بتمويهه من «المادة» ما قد يبطل ما أراد به سحر عينيك، واهتبال غفلتك، ثم استلحاق عقلك بعقله، إذ أنت عندئذ مفتون بالزينة المتبرجة، وبتحاسين رداء البراءة وخلوص النية، وبالحلي النفسية المتلألئة التي يتطلبها «ما قبل المنهج» بشطريه: «المادة»، و«التطبيق» إذ أنت هائــمٌ معه، مريد أو غير مريد، «في إثر كل قبيح وجهه حسن». كما يقول أبو الطيب[(١)]»[(٢)] اهـ.

المثقف «الأصيل» حقًّــا من وفِّق لمعرفة هــذه الثقافة من مصادرها الحقَّة، واستقاها من ينابيعها الصافية، وعلَّ منها ونهل، وأخذ منها بقدر ما اتسع واديه: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

أما من جهل هذه الثقافة، وحرم من الســياحة في رحابها، أو التنزه في رياضها، فموقفه منها موقف الجاهل لمــا يجهله. وقد قال العرب: مَن جهل شــيئًا عاداه. وفي القرآن تصديق ذلك حيث يقول الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

---

(١) هو من قوله يذكر أهل العشق:

مـمــا أضر بأهــل العشــق أنهم ... هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنى عيونهمو دمعًا، وأنفســهم ... في إثــر كل قبيح وجهُهُ حسـنُ

ديوانه صـ ٤٧١، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

(٢) انظر: رســالة في الطريق إلى ثقافتنا للأســتاذ شــاكر، وبخاصة الصفحات (٤١ ـ ٤٤)، نشر دار الهلال، مصر.

QaradawiBooks.com

وكثير من مثقفي عصرنا من حملة الألقاب الكبيرة من هذا الصنف، ومنهم من شبَّ على ذلك وشاب عليه، ومات عليه.

ومنهم من أراد الله به خيرًا، ففتح له بابًا إلى هذه الثقافة، جعله يغير رأيه، ويعدِّل من موقفه كثيرًا أو قليلًا، معترفًا بذلك في شجاعة تذكر له فتشكر.

من هؤلاء الأستاذ إسماعيل مظهر، صاحب مجلة «العصور» ومترجم كتاب «أصل الأنواع» لدارون، وقد كان داروينيًّا خالصًا، ثم كتب في سنة ١٩٦٠م كتابه «الإسلام أبدًا» فانتقل ـ كما يقول الدكتور حسن حنفي[١] من طرف إلى طرف، ومن نقيض إلى نقيض، ومن الحديث إلى القديم، ومن الجديد إلى التراث، ومن الوافد إلى الموروث.

ومن هؤلاء الدكتور مصطفى محمود، الذي بدأ شاكًّا أو ملحدًا، معتنقًا للفكر الماركسي المادي، كما بدأ ذلك في كتابه «الله والإنسان»، ثم انتقل من الجحود إلى اليقين، ومن الشكِّ إلى الإيمان، ومن الماركسية إلى الإسلام، وأصدر في ذلك كتابًا، وحرَّر مقالات، وقدم برنامجه الشهير في التليفزيون «العلم والإيمان». بل حاول الاتجاه نحو فَهم عصري للقرآن، لم يسلم من بعض الشطط، وهو ما أنكره عليه كثيرون من أهل الاختصاص.

ومن هؤلاء ـ كما ذكرنا من قبل ـ الدكتور زكي نجيب محمود، الذي أعلن ذلك في صراحة في مقدمة كتابه «تجديد الفكر العربي» قال: «لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه الماضية فرصة

(١) من بحث له عن الموقف من الغرب: الماضي والحاضر والمستقبل، قدمه لمؤتمر الثقافة العربية بالقاهرة، صيف ١٩٩٢م.

QaradawiBooks.com

طويلة الأمد، تمكِّنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب، الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبي ـ قديم أو جديد ـ حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه، ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعوامًا بعد أعوام: الفكر الأوروبي دراسته وهو طالب، والفكر الأوروبي تدريسه وهو أستاذ، والفكر الأوروبي مَسْلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ؛ وكانت أسماء الأعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلا أصداء مفككة ومتناثرة، كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين.

ثم أخذته في أعوامه الأخيرة صحوة قلقة؛ فلقد فوجئ وهو في أنضج سنيه، بأن مشكلة المشكلات في حياتنا الثقافية الراهنة، ليست هي: كم أخذنا من ثقافات الغرب، وكم ينبغي لنا أن نزيد؛ إذ لو كان الأمر كذلك لهان، فما علينا عندئذٍ إلا أن نضاعف من سرعة المطابع، ونزيد من عدد المترجمين، فإذا الثقافات الغربية قد رصَّت على رفوفنا بالألوف بعد أن كانت ترصُّ بالمئين، لكن لا، ليست هذه هي المشكلة، وإنما المشكلة على الحقيقة هي: كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها؟ إنه لمحال أن يكون الطريق إلى هذه المواءمة هو أن نضع المنقول والأصيل في تجاور، بحيث نشير بأصابعنا إلى رفوفنا فنقول: هذا هو شيكسبير قائم إلى جوار أبي العلاء؛ فكيف إذن يكون الطريق؟

استيقظ صاحبنا ـ كاتب هذه الصفحات ـ بعد أن فات أوانه أو أوشك، فإذا هو يحسُّ الحيرة تؤرِّقه، فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة، التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية، يزدرد تراث آبائه ازدراد

QaradawiBooks.com

العجلان، أخذ صاحبنا ـ وما يزال ـ يعبُّ صحائف التراث عبًّا سريعًا، والسؤال ملء سمعه وبصره: كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متَّسقة يعيشها مثقف حي في عصرنا هذا، بحيث يندمج فيها المنقول والأصيل في نظرة واحدة؟»[١].

ولا يزال تيار الأصالة يكسب يومًا بعد يوم من أنصار «التغريب» الخلصاء أو المهجَّنين، من مختلف مدارسه المادية أو العلمانية، الماركسية أو الليبرالية، ويضيف إلى رصيده جديدًا، مسلحًا بأسلحة الغرب ذاته، قادرًا على الدفاع والهجوم بفكر العصر، ومناهج العصر.

بيد أن الذي نركز عليه هنا: أن الأصالة الحقَّة لا تكون بمجرد الدعوى أو الإعلان. بل لا بد من الاطلاع الكافي على أصول ثقافتنا، مما لا يسع المثقف العربي المسلم جهله.

ليس من الضروري أن يقرأ كل ما قرأه مثلًا الأستاذ محمود شاكر، حين بدأ رحلته مع التراث وثقافته، مما حدثنا عنه في مقدمة كتابه عن «المتنبي» ونشرته «دار الهلال» في «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»[٢].

لكن هناك حدود دنيا لمَن يريد أن يتعرَّف على هذه الثقافة، ويفتح مغاليقها، ويفقه سرها.

وفي مقدمة ذلك: اللغة العربية وعلومها وآدابها.

---

(١) مقدمة كتاب تجديد الفكر العربي د. زكي نجيب محمود.

(٢) انظر: الفقرات: (١، ٣، ١٠) من الرسالة المذكورة صـ ١٠ ـ ١٣، ٣٦، ٣٧، وفيها ذكر أنه قرأ كل ما وقع تحت يده من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع، حتى قرأ الفلسفة القديمة، والحساب القديم، والجغرافية القديمة، وكتب النجوم، وصور الكواكب، والطب القديم، ومفردات الأدوية، وحتى قرأ البيزرة ـ تربية الطيور الجوارح وترويضها ـ والبيطرة والفراسة، إلى آخره، لا ليتمكن من هذه العلوم، بل ليلاحظ ويتبين، ويزيح الثرى عن الخبيء والمدفون كما قال.

QaradawiBooks.com

ثم تأتي علوم الشريعة بشتَّى فروعها: التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعقيدة وما يتَّصل بها، والتصوف والأخلاق.

وفي كلِّ علم من هذه العلوم أصول وفروع، وله مداخل ومفاتيح، وفيه مدارس ومذاهب، وله مصادر ومراجع، تولَّدت منها متون وشروح وحواشٍ، منها المبسوط، ومنها الوسيط، ومنها الوجيز، ومنها الخلاصة.

أضف إلى ذلك السيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي العام، وتاريخ الطبقات والتراجم العامة والخاصة، وتاريخ العلوم ومصادرها.

وليس مطلوبًا ولا ممكنًا أن يتعمق «المثقف الأصيل» في كلِّ هذه المعارف، ويسبر أغوارها، وإنما ينبغي أن يلمَّ بها، ولو إلمامة سريعة، على نحو ما قالوا عن الأديب: هو مَن يعرف شيئًا عن كلِّ شيء، بخلاف العالم فهو من يعرف كلَّ شيء عن شيء. والمثقف في عصرنا هو الأديب في العصور الماضية.

٢ ـ الاعتزاز بالانتماء الإسلامي العربي:

وثاني ما تتطلبه الأصالة منا هو: الاعتزاز بانتمائنا إلى الإسلام، المؤثِّر الأول في صنع هذه الثقافة، والذي وجَّهها وجهته، وصبغها صبغته: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

هو الذي حدَّد الأهداف ورسم المناهج، وأعطى الحوافز وأرسى الدعائم، وربَّى الإنسان الذي يفكِّر ويريد ويتحرَّك في ضوء كتابه الهادي للتي هي أقوم، وسنة رسوله الذي جعله الله أسوة حسنة للمؤمنين، وختم برسالته كلَّ رسالات السماء.

QaradawiBooks.com

هذا الاعتزاز بالانتماء الإسلامي هو واجب كلِّ مسلم رضي بالله تعالى ربًّا، وبالإسلام دينًا وبالقرآن إمامًا، وبمحمد ﷺ، نبيًّا ورسولًا.

فهو يعتز بنعمة الإسلام: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. إنه دين الله الواحد، دين الرسل جميعًا، الذي لا يقبل الله دينًا غيره: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وهو يعتزُّ برسالة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. إنه الرسول الخاتم الذي بعثه الله مصدقًا لما بين يديه، ومصححًا لما حُرِّف وبُدِّل من الرسالات، ومتممًا لما جاء بها مما كان مناسبًا للزمان والمكان وحال الإنسان، فكان عنوان رسالته التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، ورفع الحرج عن الدين، والعنت عن المكلفين، وكان وصف رسالته في كتب أهل الكتاب من التوراة والإنجيل، أنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وهو يعتزُّ بأعظم كتاب أنزله الله، وهو القرآن، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. هو دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. إنه الكتاب الذي تحدَّى العرب فأعجزهم ولا يزال تحدِّيه قائمًا، وإعجازه متجدِّدًا، وهدايته دائمة إلى قيام الساعة.

وهو يعتزُّ بانتسابه إلى «الأمة الوسط» التي بوَّأها الله مكان الشهادة على سائر الأمم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ

QaradawiBooks.com

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣][1]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فهي أمة دعوة ورسالة، وليست أمة عنصرية منغلقة على نفسها، كبني إسرائيل. أمة هداية وليست أمة جباية.

ولكن العربي يضيف إلى هذا الاعتزاز اعتزازًا آخر، بأنه ينتمي إلى أهل رسول الله ﷺ، ويتكلَّم بلغة القرآن، ويفهم عن الله ورسوله دون ترجمان. ويعيش في أرض تعتبر مأرز الإسلام، ومعقله، قريبًا من مقدسات الإسلام، ومساجد الإسلام الكبرى، التي لا تشدُّ الرحال إلا إليها. يقول الله تعالى لرسوله: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤]. ومعنى ﴿ذِكْرٌ لَّكَ﴾: أي فخر ومجد لك ولقومك، تذكركم به الأمم. ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي فيه شرفكم وفخركم تُذكرون به أبدًا.

هذا الاعتزاز بانتمائنا الإسلامي العربي، هو مقتضى الأصالة، فالأصيل هو من كان له أصل يرجع إليه، ونسب يعول عليه، وأهل يحتمي بهم ويلجأ إليهم، إذا عدا عليه عادٍ، أو استخف بحرماته مستخف.

أما الدعيُّ الزنيم، فليس له ما يعتزُّ به، أو ينتمي إليه، ويستوي عنده الشريف والوضيع، والأصيل والدخيل، والنسيب واللقيط، بل لعله يفضل الثاني على الأول، دفاعًا عن خسَّته، وتبريرًا لوضاعته، من حيث يشعر أو لا يشعر.

---

(١) تفسير هذه الآية من ظلال القرآن للشهيد سيد قطب (١/ ١٣٠) وما بعدها، نشر دار الشروق، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، لتتبين فيها مظاهر الوسطية المادية والمعنوية التي تميزت بها هذه الأمة، وراجع كتابنا: الخصائص العامة للإسلام صـ١٢٥ ـ ١٥٤، خصيصة الوسطية.

QaradawiBooks.com

وقد نقلنا عن عمر الأول: ابن الخطاب، وعن عمر الثاني: ابن عبد العزيز ما ينبئ عن هذا الاعتزاز.

وننقل هنا ما يؤكِّد هذا من كلمات ربعي بن عامر أمام رستم قائد جيوش الفرس، وهي كلمات كأنها نور من الكلام أو كلام من النور، كما يقول الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ. فقد سأله رستم: مَن أنتم؟ فقال ربعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[1]!

بهذه الكلمات القليلة لخَّص هذا الصحابي فلسفة الإسلام وأهدافه الكبرى في حياة البشرية؛ إنها رسالة تحرير وتطهير، وإنقاذ وإصلاح.

هذا هو الاعتزاز الذي نريده من المثقف العربي المسلم، الذي ينتمي إلى ثقافة العرب والمسلمين، ويشعر أنه عضو حي في جسم هذه الأمة العظيمة.

نريد من العربي المسلم أن يتحرَّر من عقدة النقص التي يعاني منها بعض الناس تجاه الثقافة الغربية، والحضارة الغربية، واللغات الغربية، والتقاليد الغربية، والأزياء الغربية، حتى الرذائل الغربية والمنكرات الغربية!

أجل، من الناس من يحمرُّ وجهُه خجلًا إذا لم يشارك القوم في شرب الخمر، إذا كان ضيفًا، وفي تقديمها إذا كان مضيفًا، وفي مراقصة امرأة صديقه، ومراقصة صديقه لامرأته، على أنغام الموسيقى الصاخبة!

نريد من العربي المسلم أن يكون محور اعتزازه الإسلام قبل أي

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣/٥١٧ ـ ٥٢٠)، وتأمل مواقف زهرة بن الحوية، وربعي بن عامر، وحذيفة بن محصن، والمغيرة بن شعبة، وفود سعد بن أبي وقاص، وكلماتهم المضيئة أمام رستم ورجاله، لتجد فيها اليقين والثقة والاعتزاز البالغ.

QaradawiBooks.com

شـــيء آخر، أي قبل العِرق والقبيلـــة، والإقليم والطبقة، وأن ينشـــد مع العربي القديم:

أبي الإســـلامُ لا أبَ لي ســـواه إذا افتخـــروا بقيـــس أو تميم[1]!

وصدق الله إذ يقـــول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وإنما كان لهذا القول: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، قيمة، لأنه يقوله معتزًّا مغاليًا بمبدئه، مباهيًا بدعوته، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣].

ونريـــد من العربي شـــيئًا آخـــر، وهو الاعتـــزاز بلغته، لغـــة القرآن والحديث والثقافة الإسلامية، وأن يعمل على أن تكون لغة الحياة، ولغة العلم، ولغة الثقافة، وقـــد كانت لغة العلم الأولى فـــي العالم كله لعدة قرون، فلا يجوز أن تعجز اليوم عما قامت به الأمس.

٣ ـ العودة إلى الأصول:

وثالـــث ما تتطلبه منا الأصالـــة ـ إذا كنا أصلاء حقًّـــا ـ أن نعود إلى أصولنا وجذورنـــا العقدية والفكريـــة، والأخلاقية، نستمســـك بعُراها، ونتشبَّث بأهدابها، ونحوِّل اعتزازنا النظري والعاطفي إلى سلوك عملي.

إن الاعتزاز مطلوب ولا شـــك، ولكنـــه يصبح فاقـــد القيمة، عديم الجدوى، إذا لم يتحوَّل إلى عمل.

---

(١) من شعر نهار بن توســـعة اليشـــكُري، كما في الكامل في الأدب (٣/ ١٣٣)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر العربي، القاهرة ط٣، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

بل إن الاعتزاز هذا يصبح ظاهرة مرضية إذا ظلَّ مجرَّد كلام يردَّد، وشعارات تُرفع، وصيحات تتعالى لسرد الأمجاد، وتعظيم الأجداد، ثم لا نفعل نحن شيئًا، ولا نخطو خطوة إلى الأمام. وكثيرًا ما تمثَّلنا بقول الشاعر:

كن ابن مَن شئت واكتسب أدبًا ... يغنيك محمودُه عن النسب
إن الفتى مَن يقول: هأنذا ... ليس الفتى مَن يقول: كان أبي![1]

وإنا نخشى أن يقول لنا قائل، ونحن نفخر بمناقب آبائنا ومآثر أسلافنا، ما قاله شاعر آخر:

لئن فخرتَ بآباءٍ ذوي حسب ... لقد صدقتَ، ولكن بئسما وَلَدوا![2]

ماذا يغنينا أن نتحدث عن أبي بكر الصديق، وليس لنا قوَّته ويقينه؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عمر الفاروق، وليس لنا زهده وعدله؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عثمان ذي النورين، وليس لنا حياؤه وبذله؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن علي المرتضى، وليس لنا شجاعته وعلمه؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن الصحابة الكرام، ونحن لا نتخلَّق بأخلاقهم ولا نقتفي آثارهم؟

أو نتحدث عن الأئمة المجتهدين، ولا نجتهد كما اجتهدوا، ولا نقول الحق كما قالوا، ولا نتقي الله في علمنا كما اتقوه، ولا نتعلم منهم فقه الخلاف إذا اختلفوا، وأدب الحوار والمناظرة إذا تحاوروا وتناظروا؟!

---

(١) ينسبان لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) ذكره ولم ينسبه بهاء الدين البغدادي في التذكرة الحمدونية (١٢١/٥)، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ، وقد روى عن شريح القاضي قريبًا منه العجلي في الثقات (٤٤٤/١، ٤٥٥)، تحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي، نشر مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

QaradawiBooks.com

ونتحدث عن إنجازات الحضارة الإسلامية، ومنهجها العلمي الاستقرائي التجريبي، وأن الأوروبيين أخذوه عنها، واقتبسوه منها، ولكننا لا ننجز مثل ما أنجزوا، ولا بعض ما أنجزوا، كأن مجرَّد الاختيال والفخر بحضارتنا السالفة يجعلنا نحن متحضرين بالوراثة!

إنا ـ للأسف ـ نكثر الكلام، ونُقل العمل، ونكثر الحزَّ ولا نقطع، وحسبنا أن يسمع الناس منا جعجعة ولا يرون منا طِحنًا.

أخشى أن ينطبق علينا ما قال بعض السَّلف: أنتم في زمن كثير فقهاؤه، قليل خطباؤه، كثير معطوه، قليل سؤاله، العمل فيه خير من العلم. وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه، قليل معطوه، كثير سؤاله، العلم فيه خير من العمل[1].

ويبدو أننا نحن في هذا الزمان الذي كثرت فيه «الخطابة»، وقلَّ فيه «الفقه»، وكثر «السؤال»، وقلَّ «العطاء»، وقدم فيه «العلم» على «العمل». مع أن العلم في الإسلام إنما يُراد للعمل، فلا معنى لعلم لا يثمر عملًا وعلم بلا عمل، كشجر بلا ثمر.

والحق أن الرسوخ في العلم لا يُتصوَّر أن يكون بغير ثمرة. إنما الخطر في «صورة» العلم، أو قشور العلم، الذي يتمثل في الثرثرة والتفيهق دون أن يكون وراءه فقه أو بصيرة.

ما قيمة أن يحفظ المرء القرآن الكريم عن ظهر قلب، وربما يقرؤه بالقراءات السبع أو العشر، ولكن تفكيره ليس قرآنيًّا، وخلُقه ليس قرآنيًّا، وحياته أبعد ما تكون عن القرآن؟

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٩)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣١٨٩)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

ما قيمة أن يحفظ الإنسان صحيحي البخاري ومسلم، أو الكتب الستة أو التسعة أو الأربعة عشر[١]، ولكنه لا يتأدَّب بأدبها، ولا يهتدي بهداها، ولا ترى أثرًا لها في صلته بالله ولا علاقته بالناس؟

هل هو إلا نسخة زادت من هذه الكتب؟

وما يقال عن الإنسان الفرد يقال عن الجماعة والأمة.

ما قيمة أن يكون لدى الأمة تراث حافل، وكنوز من الثقافة والمعرفة لا تُقدَّر بملء الأرض ذهبًا، ولا تملك أمة من الأمم عُشر معشار ما تملك من تراث ثقافي، ومع هذا لم تُحوِّل هذا التراث إلى حاضر معيش، يسري في كيانها، ويتغلغل في وجودها الظاهر والباطن، ويتفاعل مع كلِّ ذرة فيها، فتمتصه وتهضمه وتتمثَّله، ويغدو جزءًا من حياة يومها، بعد أن كان جزءًا من أمسها.

لقد ذمَّ الله بني إسرائيل حين لم يعملوا بما عملوا، وقال لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وضرب لهم مثل الحمار تبشيعًا لموقفهم مما حملوه ولم يقوموا بحقِّه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

ومن الناس مَن يخاف من كلِّ كلمة فيها «عودة» أو «رجوع» ـ ولو كان هو «الرجوع» إلى الله ﷻ ـ لأن العودة في رأيهم تعني السير إلى الخلف، وهم يتطلَّعون أبدا إلى الأمام.

---

(١) المقصود بالتسعة: الستة مع إضافة: موطأ مالك، ومسند أحمد، وسنن الدارمي. أما الأربعة عشر فيضاف إلى التسعة: مسند البزار، وأبي يعلى، ومعاجم الطبراني الثلاثة.

QaradawiBooks.com

ولكن العودة، ولو كانت سيرًا إلى الخلف، تكون مطلوبة، بل لازمة، إذا كان السير إلى الأمام لا يؤدي إلى الهدف المنشود. ما معنى أن تسير إلى الأمام مغرِّبًا، وهدفك مشـرِّق؟ إن كل خطوة إلى الأمام تبعدك عن هدفك، وتضيع جهدك في غير طائل، بل في عكس ما تريد. والحزم كلُّ الحزم، والعقل كلُّ العقل هنا: أن تقرِّر العودة، وتسير إلى الخلف، لأنك ابتداء مشيتَ في الطريق الغلط، وإلا كان الأمر كما قال الشاعر:

سـارتْ مشـرِّقة وسـرتُ مُغرّبًا شـتان بين مُشـرق ومُغرِّب![1]

وإذا سار الإنسـان في طريق فوجده مسـدودًا، ألا يعود متجهًا إلى الوراء، ليبحث عـن طريق آخـر؟! وإذا وجد أمامه حفرة لا يسـتطيع تخطيها، أو وجـد علامة «ممنوع المرور» من هـذا الاتجاه، ألا يتراجع ويغير طريقه؟ لماذا نكره «العودة» أو «الرجوع» إذا كان من ورائه تصحيح اتجاه، أو تقويم خطأ، أو تقريب من هدف؟

ومثل كلمة «العودة» تأتي كلمة «الأصول»، وأصل الأصول هو القرآن وما يبيِّنه من السـنة، وقـد أصبحت كلمة «الأصول» اليـوم كلمة مخوفة، والنسبة إليها ـ الأصولي أو الأصولية ـ نسبة ترتعد منها الفرائص، وتصطك لها الأسنان، وتقشعر منها الأبدان. وغدت كلمة «الأصولية» مقترنة بكلمات أخرى تكوِّن اليوم «قاموس» التخويف من الإسـلام وصحوته ويقظة أُمته. من هذه الكلمات الشقيقة: التطرف، والتعصب، والسلفية، والإرهاب.

وينبغـي ـ علينا نحن دعـاة الوسـطية الإسـلامية ـ ألا ترهبنا هذه الكلمات التي يتَّخذون منها سـيوفًا يسـلُّونها أمام أعيننا، ملوحين بها،

(١) ذكره الصفدي في ترجمة أبي إسحاق الشـيرازي الشافعي، انظر: الوافي بالوفيات (٤٣/٦)، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، نشر دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

حتى نفرَّ مذعوريـــن، أو نهرب مختفيـــن، ونَدَع المجـــال لهم وحدهم ليعربدوا ويفسدوا، كما قال الشاعر:

خلا لك الجو فبيضي واصفري[١] ونقِّـــري مـــا شـــئتِ أن تنقِّري!

ينبغي أن يكون موقفنا ما عبَّر عنه الإمام الشافعي رضي الله عنه، قديمًا، حين دافع عن آل البيت، فاتُّهم بالرفض ـ أي: التشيع ـ فقال:

إن كان رفضًـــا حـــبُّ آل محمد فليشـــهد الثقـــلان أني رافضـــي![٢]

ونحن نقـــول: إن كانت العـــودة إلى أصول الإســـلام، والدعوة إلى تطبيق شـــريعته، والاحتكام إلى كتابه وســـنته، والمنـــاداة بوحدة أمته، أصولية عندكـــم، نحن أول الأصوليـــين. وأنا أقول هنـــا: اللهم أحييني أصوليًّا، وأمتني أصوليًّا، واحشرني في زمرة الأصوليين!

إن أول ما ندعو إليه تجاه هذه الكلمات الشائعة وأمثالها هو: تحديد المفاهيم، حتى لا تُترك هذه الكلمات والمصطلحات هلامية قابلة لأكثر من تفسير، وأكثر من مدلول، وكل مَن شاء يفسِّرها بما شاء، وَفقًا لهواه، أو تبعًا لمذهبه، وبهذا تضطرب المعايير، ويخبط الناس خبط عشواء.

٤ ـ إحياء السلفية المجددة:

ومما يكمِّـــل معنى العودة إلـــى الأصول والجـــذور: الحرص على التشبُّع بروح الســـلف الصالح لهذه الأمة. وعلى رأس السلف الصحابة

(١) لطرفة بن العبد، كما في ديوانه صـ ٤٩، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، نشـــر دار الكتب العلمية، بيروت، طـ ٣، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م.

(٢) رواه البيهقي في مناقب الشافعي، تحقيق السيد أحمد صقر، نشر مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

QaradawiBooks.com

رضوان الله عليهم أجمعين، وإحياء منهجهم في فقه أحكام الله في شرعه، وسننه في خلقه.

وأؤكد هنا أن الذي نريده: منهج السلف الكلي، وليس أقوال السلف الجزئية، وفرق كبير بين الأمرين.

منهج السلف يعني: طريقتهم الكلية في فَهم الدين والعمل به، والعمل له.

ومنهجهم ـ كما يبدو من استقراء أحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ـ هو النظر إلى جوهر الدين لا إلى شكله، وإلى مقاصد الشريعة لا إلى حرفيتها، وإلى روح العمل لا إلى مادته، وتغليب اليسر على العسر، والتخفيف على الإعنات، كما يبدو ذلك في مسلك الخلفاء الراشدين المهديين، الذين أُمرنا أن نتبع سنتهم.

أما الأقوال الجزئية، فهذه تتأثر بظروف الزمان والمكان والعوائد والأحوال. وهي تتغيَّر بتغير موجباتها.

ولهذا قد ندع بعض أقوال السلف، لأنها كانت ملائمة لهم، ولم تكن ملائمة لنا، مثل الجهاد بالخيل، وإن ورد ذكرها في القرآن العزيز والأحاديث الصحاح؛ فقد غدت خيل العصر المصفحات والدبابات والمجنزرات. ومثل ذلك، إذا أفتوا أو قضوا وَفق معارف عصرهم، مثل أقوالهم في مدة الحمل، التي وصلها بعضهم إلى أربع سنوات أو خمس أو سبع!

إن السلفية الحقَّة لا تعني أن نسير سير السلف في الشكليات والجزئيات، المتطورة بتطور العادات. لا يعني اتباع منهج السلف أن نجلس على الأرض كما كانوا يجلسون، وأن نأكل باليد كما كانوا يأكلون، وأن نركب الجمل في الأسفار كما كانوا يركبون، وأن نبني دورنا باللبِن كما كانوا يبنون.

QaradawiBooks.com

وما أظن أحـدًا عاقلًا يقول بمثل هذا إلا من باب التشـبُّه بالرجال، وتوطين النفس على الزهد فـي الدنيا. ولا بأس بهـذا، لتربية النفس، والسمو بالروح، ابتغاء رضوان الله تعالى.

وربما وجد في محيط الصحوة الإسلامية اليوم مَن يتشدد في تقصير الثوب، أو إطالة اللحيـة، أو لبس النقاب، وذلك مهم في هذه المرحلة؛ لأنه من مظاهر التميز، ودلائل التحدي، وعلامات التحرر من رواسـب عهد الاستعمار، وما خلَّف من أفكار ومشاعر وأنماط من السلوك.

بيد أن الخطـأ أو الخطر يتمثل في التشـديد والإلحـاح على هذه المظاهـر، واعتبارها هي لُبـاب الدين، وتأثيم مَن يـري رأيًا آخر فيها، وتصنيف الناس بين الولاء والبراء على أساسها.

إن السـلفية الحقَّة ـ كما بيَّنت في بعض ما كتبـتُ[1] ـ لا تكون إلا مجددة، كما أن التجديد الحق لا يكون إلا سلفيًّا. وهذا ما أثبته التاريخ.

فابن تيمية ومدرسته كانوا سلفيين، وكانوا مجددين حقًّا، وأفكارهم التجديدية لا يجحد بها إلا مكابر.

والسيد رشيد رضا ومدرسته في عصرنا سلفيون مجددون، بلا جدال.

اتباع منهج السـلف يوجب علينا أن نجتهد لعصرنا كما اجتهدوا لعصرهم، وأن نفكر بعقولنا لتنظيم حياتنـا كما فكروا هم بعقولهم، وأن نراعي زماننا وبيئتنا وأعرافنا وأحوال عيشنا، إذا أفتينا أو قضينا أو بحثنا، أو تعاملنا مع أنفسنا أو مع الآخرين، كما راعوا هم كل ذلك،

(١) في كتابنا: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، تحت عنوان: الجمع بين السلفية والتجديد.

QaradawiBooks.com

وأن نقتبس من غيرنا ما ينفعنا كما اقتبسوا، وأن نبتكر في أمر دنيانا كما ابتكروا.

إن عمر بن الخطاب غيَّر رأيه في بعض المسائل، وقضى فيها في عام برأي، وفي العام التالي برأي آخر، ولم يرَ في ذلك حرجًا، وقال: ذلك على ما علمنا، وهذا على ما نعلم[١].

ولما روجع في مسألة من مسائل الميراث تتعلَّق بالإخوة الأشقاء والإخوة لأم، وقال له الأشقاء الذين حرموا حسب القواعد: هب أن أبانا كان حمارًا ـ أو حجرًا في اليمِّ ـ ألسنا من أم واحدة؟! لم يملك إلا النزول على رأيهم، وسنَّ بذلك سنة الاستحسان، وهو الخروج من صرامة القواعد إلى مرونة اعتبار المصالح ورعاية المقاصد.

وعمر بن عبد العزيز قال: تحدث للناس أقضية ـ أحكام وعقوبات ـ بقدر ما أحدثوا من فجور[٢]!

إن السلفية ظُلمت من خصومها وكثير من أنصارها، على السواء.

فخصومها صوروها جمودًا وتزمتًا وإعناتًا، ووقوفًا عند ظواهر النصوص، وأقوال الأقدمين، وخصوصًا ابن تيمية ومدرسته الحنبلية. فالسلفية عندهم لحية طويلة، وثوب قصير، ونقاب على وجه المرأة، وحرب على أهل التأويل والمخالفين بصورة عامة.

وقد ساعدهم على تثبيت هذه الصورة بعض دعاة السلفية الذين اهتموا بالشكل أكثر من الجوهر، وبالجزئيات أكثر من الكليات،

(١) رواه الدارمي في المقدمة (٦٧١) بلفظ: تلك على ما قضيناه، وهذه على ما قضينا.

(٢) الاعتصام للشاطبي (٢٣٢/١)، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، نشر دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

QaradawiBooks.com

وبالمختلف فيه أكثر من المتَّفق عليه، واعتبروا رأيهم هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ، ورأي مَن خالفهم هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب.

إنـــي معجب بالمدرســـة الســـلفية التجديدية التي تتمثَّل في شـــيخ الإســـلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، ولكن أخالفهما في بعض القضايا. وأنـــا بهذا أطبق ـ في واقـــع الأمر ـ منهجهمـــا، فقد دعوا إلى الاجتهاد لا التقليد، ولو قلَّدتُهما لخالفتُ منهجهما.

٥ ـ الانتفاع الواعي بتراثنا:

ومن دلائل الأصالة: أن نجتهد فـــي الانتفاع بتراثنا الغني، والغوص في خضمه الزاخر، لاستخراج لآلئه وجواهره، في الدين واللغة والأدب والعلم والفن، وسائر المواريث الثقافية البنَّاءة، التي خلَّفها الآباء للأبناء، والأجداد للأحفاد.

ولا يُتصوَّر مـــن أمة عريقة في الحضـــارة والثقافـــة أن تهمل تراثها وتاريخها الأدبي والثقافي، وتبدأ من الصفر، أو تتســـول ما لدى الغير؛ فهذا لا يقبله لنفســـه فرد ولا جماعة؛ لأن تســـوُّل الأغنياء رذيلة تنكرها الأخلاق، وجريمة يعاقب عليها القانون.

لكن كلمة «التراث» مثل كلمات أخرى كثيرة في هذا المجال، كثيرًا ما أُسيء فهمها، ووضعت في غير موضعها. حيث لم يتحدَّد المراد منها تحديدًا يزيل اللبس والغشاوة عنها.

ذلك أن التراث يحتوي الحق والباطل، والصواب والخطأ، والسمين والغث، كما لا يخفى على كل مَن درس شيئًا من هذا التراث. فما المراد بالانتفاع به هنا؟

QaradawiBooks.com

لقد حفل التـــراث بالطيب من القول، والجيد مـــن العلم، كما امتلأ بالخبيث والرديء.

حتـــى الكتاب الواحـــد، تجد فيه حقائق ســـبقت الزمـــن، وأباطيل كأباطيل العجائز، وتجد العالم الواحد يحلِّق كثيرًا فيبدع، ويهبط أحيانًا فيخرف، أو على الأقل يقبل الخرافة ويصدِّقها.

كنتُ أقـــرأ في «تاريـــخ الطبري»، وهـــو إمام جليل في التفســـير والحديث والفقه والقـــراءات وغيرها، فأجده يقبـــل روايات يرفضها العقل والمنطق، ولكنه يعتذر إلينـــا بأنه أدَّى إلى من بعده ما أدَّاه إليه من قبله، فهو ناقل وليس بمستنبط، وحســـبه أنه أسند كلَّ رواية إلى قائلها، وإن لم يتعرَّض للسند بتعديل ولا تجريح، كما فعل في كتب الفقه والحديث.

وقد رأيته يرجح أن زمان الدنيا منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة ســـبعة آلاف ســـنة، وروى أثرًا في ذلك عن ابن عباس، وأيَّد ذلك بآثار وأحاديث أخرى.

وهذا وأمثاله إنما هو من الإســـرائيليات التي أشـــاعها أمثال: كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وربما نقله عنهم ابن عباس إن صحَّ ذلك عنه، وما أظنه صحيحًا.

ولا يكاد يسلم مفســـر أو محدث أو فقيه أو متكلم أو فيلسوف، من أقوال وآراء يراها بعقله أو ينقلها عن غيـــره، أثبت العلم ومقرراته اليوم أنها من جملة الأساطير.

ومن ذلك كلام الفلاسفة الكبار عن العناصر الأربعة، أو عن الأفلاك، أو عن شكل الكون، ومركز الأرض منه، أو غير ذلك، مما أبطلته علوم

QaradawiBooks.com

العصر ووثباتها الهائلة، حتى غدا تلميذ المدرسة يعرف عن الأرض والأفلاك أكثر وأصح مما كان يعرفه الفلاسفة العظام المشاهير.

وفي التراث أشياء لم يثبت خطؤها، ولكن لم تثبت جدواها، أو لم تعد الحاجة إليها باقية، كما كانت من قبل؛ وذلك مثل بعض مباحث علم الكلام المتفلسف، كـ «المواقف» للإيجي، وشرحه للجرجاني، و«شرح المقاصد» للتفتازاني، و«الطوالع» للبيضاوي وأمثالها. فهذه المباحث العميقة المجهدة، لم تعد الحاجة إليها قائمة، ولم تعد تخاطب الناس بلسان العصر، وبعض مباحثها أمسى غير ذي موضوع، وبعضها تجاوزه العلم أو أبطله. وينبغي وضع علم كلام آخر يُعبر عن عصرنا، ويواجه تياراته، ويحلُّ مشكلاته، يكون عمدته القرآن والعلم الحديث.

وفي علم الفقه مباحث مستفيضة عن العتق وما يتصل به من أبواب المدبر وأم الولد والمُكاتَب وغيرها، مما لم تعد الحاجة إليها قائمة أيضًا. وفيه أقوال تحمل طابع زمانها ومكانها، نجمت في عصور التقليد، لا تلزمنا اليوم في شيء، إلا من باب الدراسة التاريخية.

وفي علم التصوف شطحات ونتوءات في الفكر والتصور ـ كالحلول والاتحاد ـ تناقض صفاء التوحيد الإسلامي، وأخرى في السلوك والعمل ـ كالمبالغة في الزهد والتوكل ـ تنافي وسطية الخلق الإسلامي.

وفي كتب الأدب والشعر أشياء تجاوزت الدين والخُلُق والعُرف والذوق، كالغزل في الذكور، والحكايات الهابطة.

وكل هذا تراث، فهل هذا هو المقصود من التراث الذي أقيمت مراكز ومؤسسات وإدارات لإحيائه ونشره وتقريبه للناس؟

QaradawiBooks.com

وإذا قلنا: الانتفاع بالتراث، فهل يعني هذا أن نقبله كلَّه بحقِّه وباطله، وعلمه وجهله؟!

إننا لسنا مع الذين يضفون القدسـية أو العصمة على كلِّ ما مضى، ولا مع خصومهم الذين ينأون بجانبهم عن كل موروث، لا لشـيء إلا لأنه قديم، ولكن لا بـد لنا من التخيُّر والانتقـاء. وخصوصًا في مجال التربية والتثقيف، أو مجال الدعوة والتوجيه، أو مجال الحكم والتشريع. ولهذا أشـرنا من أول الأمر: أن المطلوب هو الانتفاع الواعي بالتراث، لأن الوعي هو الذي يميز بين ما يصلح وما لا يصلح.

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الإسلام فوق التراث

وأودُّ أن أنبِّــه هنا على حقيقــة هامة يغفلها بعــض المعاصرين من الكتاب العلمانييــن، أو يفهمونها على غير وجههــا، وهي: الخلط بين الإسلام والتراث، خلطًا ـ أحسبه مقصودًا ـ بحيث يوهم أن أحدهما يعني الآخر. وهذا ليس بصحيح؛ فالإسلام ليس مجرَّد تراث يؤخذ منه ويترك، شأنه شأن شــعر امرئ القيس، أو أبي نواس، أو كتاب الأغاني أو ألف ليلة وليلة.

إن اعتبار الإســلام العظيم من جملة التراث تهوين من شأنه، وحطٌّ من قدره، وتضليل للقارئ أو السامع عن حقيقته. والواجب أن يُعبَّر عن الإسلام باســمه الصريح، كما ارتضاه الله لنا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

إن التراث ـ كما بيَّنا ـ كلمة واسعة، تشمل الجد والهزل، والصواب والخطأ، الحقيقة والخرافة، والصدق والكذب، والعلم والجهل، والروائع والهوابط، من أصول الشافعي وتصوف الغزالي، إلى مجون امرئ القيس وخمريات أبي نواس، وشــعر الغزل في الذكور، والحكايات المرذولة، والإسرائيليات المردودة، والأحاديث الموضوعة، والآراء الفاسدة. فأين هذا من وحي الله تعالى الذي يتمثَّل في الإسلام؟!

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وإذا كان بعضنا يصرُّ على أن يدخل الإسلام في التراث، فإن أول واجب هنا هو التفريق بين المستوى الإلهي والمستوى البشري في التراث، والأول هو المعصوم الذي دلَّ عليه مُحكم القرآن والسنة. وهو الذي نطلق عليه: الإسلام؛ وهو الذي يُتلقى بالسمع والطاعة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أما الثاني، فهو صنعة العقل البشري في مجالات العلم والفلسفة والأدب والفن، بفروعها المختلفة، وألوانها المتنوعة، وفيها ما في كلِّ عمل إنساني من قصور البشر، وأهواء البشر، وأوهام البشر، وتأثُّرهم بالزمان والمكان، وشتَّى الظروف والمؤثِّرات المادية والمعنوية.

ويدخل في هذا عمل العقل الإسلامي في فَهم الجانب المعصوم مما قد يسمَّى التراث؛ وهو ما يشمل علوم التفسير، وعلوم الحديث، والفقه وأصوله، والكلام، والتصوف، وهي علوم تتسع مسائلها ـ أو أكثرها ـ للأخذ والرد، والترجيح والتضعيف.

ولا غرو أن تعدَّدت المدارس والمذاهب: في التفسير ما بين الرواية والدراية، وفي الفقه ما بين أهل الرأي وأهل الأثر، ومدرسة الظواهر ومدرسة المقاصد. وما بين طريقة المتكلمين، وطريقة الحنفية في أصول الفقه، وطريقة مَن يجمع بينهما. وفي الكلام ما بين المقدمين للنقل على العقل، وخصومهم، وفي التصوف ما بين مدرسة التصوف التربوي الأخلاقي، ومدرسة النظريات الحلولية والاتحادية.

إن الإسلام ـ المتمثل في محكمات القرآن والسنة ـ فوق التراث، بل هو الحكم على التراث بالقبول أو الرد، فهو المعيار الذي لا يخطئ، والهدى الذي لا يضل.

QaradawiBooks.com

ومع هذا المعيار النقلي معيار آخر عقلي، تـرد إليه الأمور بجوار الوحي، وهو «الميزان» المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وبهاتين الآيتين استدلَّ الفقهاء الذين يحتكمون إلى القياس، مبينين أن النصَّ الصريح لا يناقض القياس الصحيح، وبعبارة أخرى؟ لا تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

يقول الإمام ابن القيم: «إن الله أنـزل الكتاب والميزان، فكلاهما في الإنزال أَخَوَان، وفي معرفة الأحكام شقيقان؛ وكما لا يتناقض الكتاب في نفسه، فالميزان الصحيح لا يتناقض في نفسه، ولا يتناقض الكتاب والميزان، فلا تتناقض دلالة النصوص الصحيحة، ولا دلالة الأقيسة الصحيحة، ولا دلالة النص الصريح والقياس الصحيح، بل كلُّها متصادقة متعاضدة متناصرة يصدِّق بعضها بعضا، ويشهد بعضها لبعض»[١].

* * *

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٤٩، ٢٥٠)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

قراءة مستبصرة للتراث

قراءة مستبصرة للتراث:

وبهذا نستطيع أن نقرأ التراث قراءة مستبصرة، نقرؤه ونحن نقف على أرض صُلبة، نقرؤه ومعنا هاديان من عند الله: هادٍ من خارجنا، وهو الوحي. وهادٍ من داخلنا، وهو العقل.

نقرأ شعر الجاهليين إن شئنا، فنرفض منه نضح الوثنية، ومجون الجاهلية، وحميَّتها، ونأخذ بعد ذلك ما وسعنا الأخذ، من روائع التصوير، وبدائع التعبير، عن النفس والطبيعة والحياة، ونقتبس غوالي الحِكَم، التي سارت مسير الأمثال، كقول طرفة في معلقته:

إذا القوم قالوا: مَن فتى؟ خلتُ أنني عُنيتُ، فلم أكسل، ولم أتبلد

وقوله:

ستبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلًا ويأتيك بالأخبار مَن لم تزود

ونقرأ شعر الإسلاميين، فنجد الكثير الطيب مما ينفع الناس ويمكث في الأرض، ونجد القليل الضار، من المديح المسرف، والهجاء المقذع، والعصبية القبلية، والمجون المكشوف، والشك المتحير، وما أشبه ذلك، فنعرض عنه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

نقرأ أبا العلاءُ، ونستمتع بروائع شعره، وهو يغوص في أعماق النفوس، وأغوار الحياة والمجتمع، وينقدها ويسخر منها، كقوله:

ولما رأيتُ الجهل في الناس فاشيًا تجاهلت حتى ظُنَّ أنيَ جاهل
فواعجبا كم يدعي الفضل ناقصٌ وواأسفا كم يدعي النقص فاضل![1]

ولكنا لا نأخذ نظرته التشاؤمية في مثل قوله:

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد![2]

وقوله:

وإذا أردتم للبنين سعادةً فالخير أجمع تركهم في الأظهر![3]

يعني: قطع النسل وعدم الإنجاب!

نقرأ ابن سينا ونقتبس منه، فيلسوفًا وعالمًا وطبيبًا، ولكنا ننقد ما حاد فيه عن منهج القرآن والسنة حيادًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان، في «إشاراته وتنبيهاته» أو في «شفائه» أو في «رسائله».

بل نقرأ حجة الإسلام الغزالي وننهل من تراثه الرحب، ونحذر من بعض ما تضمنت كتبه من غلو الصوفية، أو من معارف أثبت علم العصر بطلانها، أو ما استند إليه من الأحاديث الواهية والموضوعة والتي لا سند لها.

ونقرأ شيخ الإسلام ابن تيمية، وما خلَّف من كتب كبيرة، ورسائل متوسطة وصغيرة، وفتاوى متنوعة، ومباحث مستفيضة في الأصول والفروع، والمعقول والمنقول، فنغترف منها، وننتفع بها، ولكنا نخالفه فيما لا نقتنع

(١) سقط الزند صـ١٩٤، نشر دار بيروت ودار صادر، ١٩٥٧م.
(٢) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١١٥/١)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت.
(٣) اللزوميات (١/ ٤٠٦)، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة.

QaradawiBooks.com

به في العقليات والنقليات، وفي بعض ما بالغ فيه، كإنكار المجاز في القرآن واللغة، وننقــده كما نقد هو من قبله، ونقول ما قــال ابن القيم في الهروي: شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه. وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله[1].

ونفعل ذلك مع النــووي وابن القيم وابن حجر وابــن الهُمام وابن الوزير والقرافي والشاطبي وابن خلدون والدهلوي والشوكاني وغيرهم. نستفيد منهم، ولكن نفكِّر كما فكروا، ونجتهد كما اجتهدوا.

نقرأ التفسير، ونحذر من الإسرائيليات، والأقوال الفاسدات.

ونقرأ الحديث، ونحذر من الموضوعات الواهيات.

ونقرأ التصوف، ونحذر من الشطحات والتطرفات.

ونقرأ علم الكلام، ونحذر من الجدليات والسفسطات.

ونقرأ علم الفقه، ونحذر من الشكليات والتعصبات.

نقرأ هــذه العلوم كلها مــن مصادرهــا الأصيلة، ثم مــن مراجعها الشارحة، لنستلهمها ونستهدي بها، ونستضيء من مشكاتها، ونأخذ منها ما هو أرجح دليلًا، وأهدى سبيلًا، أي لتكون منارًا هاديًا يسدِّد مسيرتنا، لا قيدًا ثقيلًا يغلُّ حركتنا.

وإذا كان هذا موقفنا من التراث ذي الصبغة الدينية وعلومه المأثورة، وهو موقف التخيُّر والانتقاء، بعد التحصيل والارتواء، فمن باب أولى أن يكون هذا موقفنا من سائر معارف التراث العلمي والأدبي والفني.

(١) مدارج السالكين (٣٨/٢)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

وينبغي لنا أن ننهل من هذا التراث بـــكل معارفه، وكل ألوانه، وكل مدارسه، وكل مذاهبه؛ لا أعني الناشـــئة الصغار، الذين ينبغي أن يُحموا من السباحة في الأعماق خشية أن يغرقوا، وإنما أعني أهل العلم وطُلاب التبحر والتعمق فيه. كما حكى الإمام الغزالي عن نفسه في كتابه «المنقذ من الضلال»، وكما حكى الإمام أبو إسحاق الشاطبي عن نفسه في كتابه «الاعتصام»[(١)].

لقد كان حَبْر الأمة عبد الله بن عبـــاس ﷺ، يحفظ الكثير الكثير من شعر الجاهلية، ويحتجُّ به في تفسير القرآن، كما رووا أنه كان يحفظ رائية ابن أبي ربيعة، على ما فيها من مجانة مرذولة[(٢)].

وكانت عائشة ﷺ، تحفظ الكثير من الشعر الجاهلي، وتستشهد به، وتروي من قصص الجاهليـــة، وقد روى البخاري وغيـــره عنها حديث الزوجات الاثنتي عشـــرة، ومـــا وصفت بـــه كلَّ واحـــدة زوجها، وهو المعروف بحديث «أم زرع»، وقد استمع الرسول ﷺ، إليها، هي تحكي هذه القصص، ولم ينكر عليها، أو يضق بذلك صدرًا.

إننـــا إذا تحصنَّا بالكتاب والميـــزان، خضنا لُجج التـــراث، دون أن نخشـــى الغرق أو الضيـــاع: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

* * *

(١) انظر كلام الغزالي في كتابنا: الغزالي بين مادحيه وناقديه صـ ٣٢، ٣٣، نشـــر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤. وكلام الشاطبي في بحثنا: التربية عند الشاطبي، المنشور في حولية كلية الشريعة، جامعة قطر، العدد التاسع.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٥/٩٣ ـ ٩٤).

QaradawiBooks.com

قراءات متحيزة أو موجهة للتراث

ومن المتحدثين عن التراث: مَن يقرؤه، أو يدعو إلى قراءته قراءة لا توصف إلا بأنها متحيزة: تنحاز لبعض المدارس دون بعض، ولبعض الاتجاهات دون بعض، ولبعض الشخصيات دون بعض؛ فهم يأخذون من التراث ويدعون، ويحذفون منه ويُبقون، وَفق أهوائهم وميولهم الخاصة. وهم يفسِّرون ما يأخذونه، كما يحلو لهم، اتباعًا للهوى، لا احتكامًا إلى كتاب أو ميزان مما أنزل الله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧].

من هؤلاء مَن ينحاز إلى «المدرسة الفلسفية» وخصوصًا «المدرسة المشائية» الإسلامية، التي جعلت أكبر همِّها التوفيق بين الفلسفة والدين، ولكنها اعتبرت الفلسفة أصلًا، والدين تبعًا؛ فإذا تعارضا أُوِّل الدين ليتفق مع الفلسفة. ويمثِّل هؤلاء: الكندي، والفارابي، وابن سينا، ومَن سار على دربهم.

ومنهم مَن ينحاز إلى «المدرسة الاعتزالية»، ويعتبر المعتزلة هم «المفكرين الأحرار» في الإسلام. ويذرف الدموع السخينة على هزيمتهم الفكرية أمام أهل السنة[1]، بعد أن كانت لهم الدولة خلال عدة عقود.

(١) انظر تعليقنا على ذلك في كتابنا: المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة صـ٣٣١ ـ ٣٥٤، فصل: تقديم العقل على الشرع، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

وحديث هؤلاء عن المعتزلة يوهم أنهم جماعة «عقلانية» محضة، لا تذعن لنصوص الدين، ولا تخضع لأحكام الشرع. وهو تصوير غير صحيح لموقف القوم، وخصوصًا في مجال الفقه والأحكام العملية، التي كثيرًا ما تبعوا فيها المذهب الحنفي.

ومنهم مَن ينحاز إلى شخصيات معروفة دون غيرها، مثل ابن رشد، وابن حزم، وابن عربي، وابن خلدون. وكلامهم عن هؤلاء وأمثالهم يصورهم بصورة «العقلانيين» الخلصاء، الذين يرفضون النصوص إذا خالفت مقرَّراتهم العقلية.

وهذه قراءة متحيِّزة لهؤلاء الأعلام، فكتبهم تدلُّ بوضوح على أنهم ـ ككل المسلمين ـ لا يملكون أمام محكمات النصوص، إلا أن يقولوا: سمعنا وأطعنا.

فابن رشد وابن خلدون كلاهما قاضٍ شرعي وفقيه مالكي، وابن رشد هو صاحب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن، الذي يتجسَّد فيه احترام المصادر والأدلة الشرعية كلها، من الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

وابن حزم وابن عربي كلاهما فقيه ظاهري، يأخذ بظواهر النصوص وحرفيتها في مجال الفقه واستنباط الأحكام، وإن كان على ابن عربي اعتراضات جمَّة في تصوفه الفلسفي.

ولكن هؤلاء العصريين يستنطقون تلك العقول الكبيرة ـ على اختلاف اهتماماتها وتخصصها ـ بما يحبُّون هم أن تنطق به، لا بما نطقت به بالفعل، فهم يريدونها مترجمة عنهم، معبِّرة عن فكرهم، لا عن ذاتها وفكرها الخاص.

QaradawiBooks.com

هؤلاء يستلهمون التراث الخاص ما يبررون به الواقع الحاضر. وهو ما لاحظه باحث جاد ـ د. فهمي جدعان ـ يرى أن عملية «الاستلهام» هذه ليست إلا عملية تسـويغ لقيم الحاضر، بإسقاط غطاء تراثي عليها، وأن الذي يحدث عمليًّا أن الحاضر هو الذي يفرض قيمه، ويلزم بها[١].

ومثل هؤلاء مَن يدعو إلى «إعادة قراءة التراث» وَفق مناهج معاصرة، ارتضاها أصحابها، تبعًا للمدارس التي ينتمون إليها.

وهذا التوجه شـائع عند المثقفين الذين مارسـوا خبـرة ما بمناهج العلوم الإنسانية الحديثة، وبالفلسفات المعاصرة الغربية، فكلٌّ واحد من هؤلاء يقرأ التـراث وَفقًا لمنهجه المحدد، ويفسِّـره ويوجهه تبعًا لإطاره المرجعي، فهذا يقرؤه قـراءة عقلانية، وثانٍ قراءة لسـانية، وثالث قراءة مادية، ورابع قراءة براجماتية، وقراءات أخرى معرفية ووظيفية وبنيوية، على آخر التصنيفات التي يتعالم بها أسـارى الفكـر الغربي بمختلف تياراته. والتي تحـاول «أدلجة» التراث، وتوظيفه لخدمة أفكار مدرسـة معينة، وتوجيهه توجيهًا قَبْليًّا واضحًا، فهي ليسـت قـراءة للفهم، وإنما للفعل والتأثير؛ بل «للتثوير» عند بعضهم.

والحقيقة ـ كما يقول الدكتور جدعان ـ أن هذه «الأدلجة» لم تكن تعني في نهاية التحليل إلا شيئًا واحدًا، هو: أن الحاضر عاجز ـ بإمكاناته وقدراته الكامنة والصريحة ـ عن إحداث التغيير المنشـود. وأن التراث الذي يشد الناس إليه، هو الذي يملك القوة السـحرية على التغيير، وذلك ـ بطبيعة الحال ـ بعد توجيه قراءته الوجهة التي تخدم الأهداف المنصوبة[٢].

(١) انظر: نظرية التراث د. فهمي جدعان صـ ٢٦، نشر دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٨٥م.

(٢) المصدر نفسه صـ ٢٨ وما بعدها.

QaradawiBooks.com

لقد رأينا باحثًا مثل الدكتور محمد أركون ينصِّب من نفسه حكمًا على التراث، يحكم فيه كحكم نمروذ «يحيي ويميت»، فهو يُبقي منه ما يريد، ويحذف منه ما يريد، تحت ستار ادعاء عريض، هو النقد أو التجديد. وهو يقول: «لا بد من وضع التراث ـ كله ـ موضع البحث والنقد والتقويم في ضوء الاكتشافات الحديثة». ولهذا نراه لا يكتفي بأن ينقد صحيحي البخاري ومسلم، بل يريد أن ينقد مصحف عثمان! أي المصحف الذي لا يعرف المسلمون غيره!

هكذا قال الدكتور أركون في ورقته التي قدمها إلى ندوة «التراث وتحديات العصر» عن «التراث: محتواه وهويته ـ إيجابياته وسلبياته»[(١)]، والتي كال فيها الإطراء للمستشرقين، وغمز جمهور العلماء والباحثين المسلمين، من المستقدمين والمستأخرين، حتى الأفغاني ومحمد عبده، اللذين يتهمهما بعض الناس بالإسراف في التجديد.

وبحق ما عقب به الدكتور جلال أحمد أمين حين قال: إنني أتعجَّب أشدَّ العجب من أن بعض المعلقين وصف ورقة الدكتور أركون بأنها تمثل مساهمة في اتجاه تجديد التراث، فإذا كان هذا تجديدًا للتراث، فكيف يا تُرى يكون قتله أو تحقيره[(٢)]؟!

* * *

(١) انظر: الكتاب الصادر عن ندوة: التراث وتحديات العصر صـ ١١٥ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق صـ ٢٠٣، وانظر تعليقات المناقشين صـ ٢٠٠ ـ ٢٠٥.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الثالث

لكي نكون معاصرين حقًّا

- ماذا تعني المعاصرة؟

١ ـ ضرورة معرفة العصر.

٢ ـ العلم والتكنولوجيا.

٣ ـ النظرة المستقبلية.

٤ ـ العناية بحقوق الإنسان.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

ماذا تعني المعاصرة؟

يراد بالمعاصرة: أن يعيش الإنسان في عصره وزمانه، في أفكاره وقيمه وسلوكياته، في انتصاراته وهزائمه، في معمعة أحداثه، ومع أهله الأحياء المتحرِّكين، يفكر كما يفكرون، ويعمل كما يعملون. لا يعيش في عصر مضى بما يحمل من تصورات وعقائد، ومن قيم ومفاهيم، ومن أخلاق وتقاليد، ومن شعائر وشرائع، قد تكون صالحة للعصر وقد لا تكون.

جوهر المعاصرة ـ إذن ـ هو معايشة الأحياء لا الأموات، والواقع الماثل لا الماضي الزائل. ولهذا مظاهره ودلائله، التي تقتضيها المعاصرة.

وهذا الإجمال له تفصيل، نُبين عنه في هذا الفصل.

١ ـ ضرورة معرفة العصر:

أول دلائل «المعاصرة» أو مقوماتها: أن نعرف «العصر» الذي نعيش فيه معرفة دقيقة وصادقة، فإن الجهل بالعصر، أو معرفته على غير حقيقته يفضي إلى عواقب وخيمة، كالطبيب الذي يصف دواءً جيدًا، ولكنه قد يقتل مريضه أو يضاعف عليه سقمه، إذ لم «يشخص» داءه تشخيصًا دقيقًا، أي لم يعرفه كما ينبغي.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إن بعض الكتَّاب اللامعين في عالمنا العربي والإسلامي، يتحدَّثون عن التفكير المـادي وكأنهم في القرن الثامن عشـر، مغفلًا الاتجاهات الإيمانية التي برزت لدى الكثيرين من علماء ومفكري القرن العشرين[١].

ومنهم مَن لا يزال يتشبَّث بالماركسية، وقد سقطت قلاعها العملية، وحتمياتها النظرية، في مسقط رأسها، وديار مجدها.

ومنهم مَن لا يبرح ينادي بالقومية، وقد ذهبت ريحها منذ زمن بعيد، وبات الناس يبحثون عن تكتلات أكبر وأرحب، تحقِّق مصالحهم، وتدرأ أخطار المنافسين عنهم.

ومنهم... ومنهم.

ولقد قال المستشار طارق البشري في حديثه عن «الإسلام والعصر»: «إن المشكلة ليست في جهلنا بالإسلام، بل المشكلة في جهلنا بالعصر!».

وهو يوجه كلامه إلى العلمانيين ودعاة التغريب والتحديث، فهو يعيب عليهم عدم معرفتهم بالعصر الذي يتباهون بالانتماء إليه، أكثر مما يعيب عليهم عدم معرفتهم بالإسلام، فهذا مفروغ منه، وهم لا يدَّعونه لأنفسهم.

وإذا كان من دعاة التحديث مَن يجهل العصر، فإن في دعاة الإسلام مَن هو أكثر جهلًا به، لأنه يعيش في الماضي وحده، ويسكن في صومعة التراث، وقد أغلق عليه بابها، فلا يكاد يرى أو يسمع أو يحسُّ شيئًا مما حوله. ويا ليته يعيش في عصور التألُّق والازدهار. بل كثيرًا ما يعيش في عصور التخلُّف والتراجع. فهو يفكِّر بعقولهم، ويتحدَّث بلغتهم، ويحيا

(١) راجع في ذلك: عقائد المفكرين في القرن العشرين للأستاذ العقاد، والله يتجلى في عصر العلم بأقلام ثلاثين عالمًا عصريًا، كتب كل منهم مقالًا كيـف اهتدى إلى الله عن طريق تخصصه، والعلم يدعو إلى الإيمان تأليف أ. كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك.

QaradawiBooks.com

في مشكلاتهم، ويجيب عن أسئلتهم؛ فهو حي يعايش الأموات، أكثر مما يعايش الأحياء.

وربما اعتبر بعضهم موقفه هذا الشخصي، معبِّرا عن موقف الإسلام. وهذا هو الخطأ الشنيع، سواء من الشخص أو ممَّن يحلِّل موقفه.

فالإسلام ينكر بشدَّة على الذين يجمدون على الماضي وحده، متَّبعين للآباء والأجداد، وإن كانوا على باطل، ومن عباراته القارعة لهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤].

وينكر الإسلام على الذين يجترُّون الذكريات الأليمة، ويعيشون في دوامتها الحزينة، فتنغص عليهم حياتهم، دون أن يصنعوا شيئًا لمستقبلهم، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وفي مثل ذلك يقول الرسول الكريم: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجِز، ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا. بل قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان**»[(١)].

والمراد بـ«لو» هنا «لو» المتمنية المتحسِّرة، وهي التي يقول فيها الشاعر:

ليت شعري، وأين منِّي «ليت» إن «ليتا» «لوًّا» عناء![(٢)]

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، عن أبي هريرة.

(٢) البيت لأبي زبيد الطائي، كما في البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (١٦٦/٢)، تحقيق د. وداد القاضي، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

ويقول الآخر:

وليس براجع ما فات منِّي بـ «لهف» ولا بـ «ليت» ولا «لوَ اني»[١]!

وقال بعض السلف: «الاشتغال بوقت ماضٍ تضييع وقت ثانٍ»[٢].

المطلوب ـ إذن ـ أن يعيش الإنسان المؤمن القوي في حاضره، منطلقًا إلى مستقبله، ولكي يحسن العيشة في حاضره وزمانه، وبعبارة أخرى: عصره. ينبغي أن يعرفه، حتى يتعامل معه على بصيرة.

وجاء في حكم آل داود: ينبغي للعاقل أن يكون عارفًا بزمانه، حافظًا للسانه، مقبلًا على شأنه[٣]، ومن الكلمات المأثورة: رحم الله امرأً عرَف زمانه، واستقامت طريقته.

وهذه المعرفة قد تكون مطلوبة طلب استحباب، أو طلب وجوب، فإذا كانت هذه المعرفة وسيلة لازمة لأداء واجب، كانت هي واجبة كذلك. وَفقًا للقاعدة الفقهية الشهيرة: «ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب».

خذ مثلًا: الفقيه والمربي والداعية، لا يستطيع أحدهم أن يصل إلى الصواب والرشد في مجاله إذا كان يجهل عصره، ويخاطب أهله بلغة عصر آخر، فلا مراء أنهم لن يفهموا عنه. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤]، يُفهم منه أنه كما يجب على صاحب الرسالة أن يتحدَّث بلسان قومه حتى يفهمهم ويبيِّن لهم، يجب عليه أن يتحدَّث بلسان عصره، حتى يُفهم أهله ويبيِّن لهم، وإلا لم تقم عليهم حجة.

(١) ذكره ابن مالك في شرح التسهيل (٢٨٢/٣)، تحقيق د. عبد الرحمن السيد ود. محمد بدوي المختون، نشر دار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

(٢) رواه البيهقي الزهد الكبير (٤٨٠).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٣١)، عن وهب بن منبه.

QaradawiBooks.com

ولقد قرر فقهاؤنا المحقِّقون: أن الفتوى تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان، والعرف والحال[١]، فاعترفوا بأثر التغير الزماني، اعترافهم بأثر التغير المكاني، بل كثيرًا ما قدَّموا تغيُّر الزمان على سائر التغيُّرات.

حتى إن «مجلة الأحكام العدلية» الشهيرة نصَّت في إحدى موادها على هذه القاعدة فقالت: «لا ينكر تغيُّر الأحكام بتغيُّر الزمان»[٢].

ولهذا تغيرت بعض الفتاوى في عصر الصحابة عما كان عليه الحال في عصر النبوة، كما في قضية جمع المصحف، وجلد الشارب في عهد أبي بكر، وقضية قسمة الأرض المفتوحة، وجلد شارب الخمر ثمانين في عهد عمر، وقضية جمع الناس على مصحف واحد في عهد عثمان، والتقاط الإبل الضالة في عهده، وقضية تضمين الصناع في عهد علي وقوله: لا يصلح الناس إلا ذاك[٣].

وقد اختلفت الفتاوى في عصر التابعين عن عصر الصحابة، واختلفت فتاوى عصر الأئمة المتبوعين عن عصر شيوخهم من التابعين وأتباعهم، واختلفت فتاوى أصحاب الأئمة وتلاميذهم عن فتاوى شيوخهم، وأئمتهم، لاختلاف العصر، رغم قرب العهد. وكثيرًا ما عبَّروا عن الخلاف بين أبي حنيفة وصاحبيه الشهيرين أبي يوسف ومحمد بقولهم: إنه اختلاف حجة وبرهان، بل هو اختلاف عصر وزمان[٤]؟

---

(١) انظر كلام ابن القيم في إعلام الموقعين (١١/٣ ـ ٤٥).

(٢) انظر المادة (٣٩) من مجلة الأحكام وشرحها للأستاذ علي حيدر: درر الحكام شرح مجلة الأحكام (٤٣/١)، وانظر: تعليقنا عليها في كتابنا: شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان صـ ١٣٢، ١٣٣.

(٣) رواه البيهقي في الإجارة (١٢٢/٦).

(٤) انظر كتابنا: مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، صـ ٢٠٠ ـ ٢٢٩، عامل تغير الفتوى من عوامل السعة والمرونة، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٦، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

معرفة الواقع من تمام معرفة العصر:

ومن تمام معرفة العصر: معرفة الواقع المعيش، والواقع المحلى «الوطني»، والواقع الإقليمي «العربي»، والواقع الإسلامي، والواقع العالمي.

وهذه المعرفة لازمة لكلِّ مَن يريد تقويم هذا الواقع، أو إصدار حكم له أو عليه، أو محاولة تغييره.

وقد ذكر علماؤنا أن من واجب الفقيه أو المفتي أن يعرف الواقع قبل أن يفتي فيه بجواز أو منع، أو حلٍّ أو حرمة، فلا يكون كلُّ بحثه وكلُّ همِّه حول ما يجب أن يكون، مغفلًا ما هو كائن بالفعل، ولهذا قال العلامة ابن القيم: إن الفقيه هو من يزاوج بين الواجب والواقع[١].

وقبل ذلك قال الإمام أحمد في بيان ما يجب أن يتَّصف به المفتي، فذكر العلم والحلم، إلخ. ثم قال: ومعرفة الناس. وهذه العبارة «معرفة الناس» تعبير عن معرفة الواقع. وقد علَّق عليها ابن القيم بقوله: «هذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم، فإن لم يكن فقيهًا فيه، فقيهًا في الأمر والنهي، ثم يطبِّق أحدهما على الآخر، وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[٢].

ولا تتمُّ معرفة الواقع على ما هو عليه حقيقة إلا بمعرفة العناصر الفاعلة فيه، والموجِّهة له، والمؤثِّرة في تكوينه وتلوينه، سواء أكانت عناصر مادية أم معنوية، بشرية أم غير بشرية. ومنها عناصر جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وروحية.

---

(١) إعلام الموقعين (١٦٩/٤).

(٢) نقلها ابن القيم في إعلامه (١٥٧/٤)، وانظر كذلك كتابنا: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية صـ ٦٠، ٦١، نشر دار القلم، الكويت. ط ٣، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

وتفسير الواقع كتفسير التاريخ، يتأثَّر باتجاه المفسِّر وانتمائه العقدي والفكري.

وقد حذَّرنا في كتابنا «الصحوة وهموم الوطن العربي والإسلامي» من النظرات: الجزئية، والمحلية، والآنية، والسطحية، والتلفيقية، والتبريرية. وهذا ما ينبغي أن نحذر منه هنا أيضًا في بيان الواقع وتفسيره.

فعلينا أن نحذر من الاتجاه «الإطرائي» للواقع، ومحاولة تحسينه، وإبراز صورته سالمة من كلِّ عيب، منزَّهة عن كلِّ نقص، وغض الطرف عن العيوب الكامنة فيه، وإن كانت تنخر في كيانه، واتهام كلِّ مَن ينقد هذه العيوب والآفات بأنه مشوش، أو مبالغ، أو متطرِّف.

ولنحذر كذلك من الاتجاه «التشاؤمي» الذي ينظر إلى الواقع بمنظار أسود، يجرده من كلِّ حسنة، ويلحق به كلَّ نقيصة، ولا يرى فيه إلا ظلمات متراكمة، موروثة من عهود التخلف، أو وافدة مع عهد الاستعمار. حكومات خائنة ـ بلسان أهل الوطنية ـ أو كافرة ـ بلسان أهل الدين ـ وجماهير مضلَّلة، وأقطار هي مجموعة أصفار! وما يرجى من تغيير، أو يؤمَّل من إصلاح، فهو سراب يحسبه الظمآن ماء.

ومثل ذلك: الاتجاه «التآمري» في تفسير الواقع، الذي يرى وراء كلِّ حدث ـ وإن صغر ـ أيديًا أجنبية، وقوى خفية، تحركه من وراء ستار، يهودية، أو صليبية، أو ماسونية، أو غيرها، ونحن لا ننكر أن هناك كيدًا خفيًّا لهذه الأمة، يكيده لها أعداؤها الظاهرون والمستخفون ـ سنة الله في خلقه ـ ولكن تضخيم ذلك بحيث يجعلنا «أحجارًا على رقعة شطرنج» يفتُّ في عضدنا، ويوئسنا من أي توجه إيجابي لإرادة التغيير، ويريحنا بأن نشعر أننا أبدًا ضحايا مَن هو أقوى منا، ولا حلَّ أمامنا غير الاستسلام

QaradawiBooks.com

للواقع المر. ومن ناحية أخرى يجعلنا هذا لا نعود على أنفسنا باللائمة، ولا نحاول إصلاح ما فسد، وتدارك ما وقع.

إن أَوْلى من تعليق أخطائنا على مشجب التآمر الخارجي، أن نردَّها إلى الخلل الداخلي، أي الخلل في أنفسنا قبل كلِّ شيء. وهذا ما قرَّره القرآن بعد هزيمة غزوة أحد، حيث خاطب المسلمين فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقريب من ذلك: الاتجاه «التنصُّلي» في تفسير الواقع، بمعنى أن أحدًا لا يريد أن يتحمَّل مسؤولية ما في هذا الواقع من سوء وانحراف، فكل واحد، وكل فريق، يريد أن يحمِّل وزره على غيره؛ أما هو فلا ذنب له، ولا تبعة عليه.

الكل يشكو من الفساد، ولكن من المسؤول عن فساد الحال؟

جمهور كبير من الناس يحمِّلون المسؤولية على العلماء، والعلماء يحمِّلون المسؤولية على الحكام، والحكام يحمِّلونها على الضغوط الخارجية أو الضرورات الداخلية.

والحق أن الجميع مسؤولون، كلٌّ حسب ما له من مُكنة وسلطة: الجماهير والعلماء، والمفكِّرون والمربُّون والحكام. وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «**كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته**»[(١)].

ومن التفسيرات المحذورة للواقع: التفسير «التبريري» الذي يحاول أن يُضفي على الواقع، ما يجعله مقبولًا، وإن حاد عن الحقِّ وسواء

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

السبيل، وفي هذا لون من التدليس والتلبيس، بإظهار الواقع على غير حقيقته، وإلباسه زيًّا غير زيه، كالذي يُلبس الخواجة الأوروبي جُبَّة وعمامة، فيبدو وكأنه شيخ أزهري مسلم، وما هو من الإسلام ولا الأزهر في شيء.

إننا نريد معرفة واقع عصرنا وعالمنا عمومًا، وواقع أمتنا خصوصًا كما هو، دون تحريف ولا تزييف، ولا تهويل ولا تهوين، ولا مدح ولا ذم، مستخدمين الأساليب العلمية الموضوعية في الكشف والرصد والتحليل، وفي هذا ما يساعدنا على تشخيص الداء، ووصف الدواء.

إن خصومنا يعرفوننا تمامًا، من قمة رأسنا إلى أخمص قدمنا، بل نحن، كما قال الدكتور كمال أبو المجد في محاضرة له في جامعة قطر: مكشوفون لهم حتى النخاع.

فهل عرفنا نحن خصومنا؟ وأقصد بخصومنا: أصحاب المشروع الحضاري المخالف لمشروعنا، وكل الخائفين منا، والطامعين فينا.

وإذا كنا لم نعرف أنفسنا كما عرفها غيرنا، فإني لنا أن نستطيع بمعرفتهم؟

هل عرفنا «البعد الديني» في سياسة الغرب العالمية، وسياسته معنا على وجه الخصوص؟ وعلى الأخص مع إسرائيل[1]؟

هل عرفنا دور الكنيسة الحقيقي، وأصابعها المؤثرة في السياسة، برغم انفصال الدين عن الدولة؟

(١) راجع: البعد الديني في السياسة الأمريكية د. يوسف الحسن، من منشورات مركز دراسات الوحدة العربية.

QaradawiBooks.com

هل عرفنا ما ينفقه الغرب من مليارات ومـا يقوم به من جهود، في سبيل التنصير عامة، وتنصير المسلمين خاصة[١]؟

هل عرفنا أن الغرب المعاصر لم ينفصل عـن تراثه، بل بني عليه؟ ولم يفعـل ما يطالبنا به بعـض «التقدميين» أو «الليبراليين» منا، وهو الانسلاخ من جلدنا، أي من تراثنا.

يقول المفكر المغربي الدكتور محمد عزير الحبابي: «الغرب نفسه يتغيَّر باطراد فـي صيرورة متصاعدة، فـلا غرابة أن يعتمـد على تراثه الخاص، عساه يحافظ على معالم ثابتة في هويته، وينفتح على ما يجري خارج مناطقه، دون تخوف من الذوبان. فمن العبث أن نقلد الغرب في كلِّ شيء علَّنا نلتحق بالمعاصرة، وفي الآن نفسه يرفض بعضنا الاقتداء به في المحافظة على أصالتنا، كما يحافظ هو على أصالته»[٢].

عصرنا بين الإيجابيات والسلبيات:

ولعصرنا خصائص تميِّزه عن غيره يجب أن ندركها ونستوعبها، بما فيها من إيجابيات وسلبيات.

فهو عصر العلم والتكنولوجيا.

وهو عصر الحرية، وحقوق الإنسان، واستقلال الشعوب.

وهو عصر السرعة والقوة، والتغيرات السريعة، والتطورات الهائلة.

---

(١) راجع كتاب: التنصير، وهو يتضمن الترجمة للبحوث التي قدمها كبار المبشرين البروتستانت في أمريكا إلى مؤتمر كولورادو سـنة ١٩٧٨م، والخاص بتنصير المسلمين في العالم، وهو كتاب خطير يجب أن يقرأ.

(٢) انظر: التراث وتحديات العصر صـ ١٠٤.

QaradawiBooks.com

وهو عصر التضام والالتحام، والظهور في كتل كبيرة.

وهو عصر التخطيط والتنظيم، لا الارتجالية والفوضى والتواكل.

وهو عصر اقتحام المستقبل، وعدم الاكتفاء بالواقع، فضلًا عن الانكفاء على الماضي.

وهذه كلها من إيجابيات العصر وإنجازاته، إذا صحَّت الأهداف، ووُضعت الضوابط.

ولكن للعصر جوانب أخرى اقتضتها سنة الله في هذا الكون، حيث تمتزج فيها الخيرات بالشرور، والمنافع بالمضار، واللذات بالآلام.

فهو عصر غلبة المادية والنفعية.

وهو عصر تدليل الإنسان بإشباع شهواته.

وهو عصر التلوث بكلِّ مظاهره.

وهو عصر الوسائل والآلات، لا عصر المقاصد والغايات.

وهو عصر القلق والأمراض النفسية، والتمزقات الاجتماعية.

المعاصرة بين الجبر والاختيار:

وإذا كان لعصرنا سلبياته كما له إيجابياته، فهل من مقتضى المعاصرة أن نأخذ العصر بكلِّ ما فيه، باعتباره وحدة لا تتجزَّأ؟ أم لنا حقُّ الانتقاء والتخيُّر؟

وهذا يقتضينا أن نسأل هنا سؤالًا مهمًّا: ما هو العصر؟ وما موقفنا منه؟ أهو قدر غالب لا مفرَّ من الخضوع له، والانحناء لجلاله، ولا مفرَّ لنا من أن نأخذه بعُجره وبُجره، وخيره وشرِّه، وحلوه ومرِّه؟ أم من حقنا

QaradawiBooks.com

أن نأخذ من العصر أحسنه وأمثله، وندع ما فيه مما لا يلائم عقائدنا وشرائعنا وقيمنا؟

إن «العصر» ـ في واقع الأمر ـ مثل «الوطن» هو الناس الذين يعيشون فيه، بأفكارهم ومعارفهم وأعرافهم ومشاعرهم، وأخلاقهم وأعمالهم، وأنظمتهم وثقافاتهم، بما فيها من صواب وخطأ، ومن استقامة وعوج، ومن خير وشرٍّ، ومن نفع وضرٍّ.

ومن حق الناس ـ بل من واجبهم ـ أن يميزوا بين الصواب في الفكر، والخير في السلوك، والنافع من العمل، في العصر، وبين الخطأ في الفكر، والشرِّ في السلوك، والضار من العمل مما جاء به العصر، فيحرصوا على الجانب الأول، ويأخذوا به، ويجتهدوا في اجتناب الجانب الآخر ما وسعهم الجهد.

ولسنا هنا مع «الجبرية الزمانية» التي تعتبر الإنسان «وعاء» يملؤه العصر بما يشاء، وإن لم يشأ الإنسان. كما أن هناك «جبرية مكانية» ترى الإنسان «مسيرًا» لبيئته الجغرافية، هي التي تحدِّد شخصيته، وتوجِّه فكره وسلوكه.

ونحن نرفض «الجبريات» كلَّها، التي تعتبر الإنسان مسيرًا لا مخيرًا، ومقهورًا لا مريدًا، سواء في ذلك «الجبرية الدينية» القديمة التي تجعل الإنسان كريشة تحركها رياح الأقدار، أم «الجبرية الاجتماعية» التي ترى الفرد دمية يحرِّك خيوطها المجتمع، أم «الجبرية السياسية» التي تشيع الآن، وتجعل مجتمعاتنا كلها «أحجارًا على رقعة الشطرنج»!

إن الإنسان يتأثَّر ـ ولا ريب ـ ببيئته الخاصة والعامة، المادية والثقافية، كما يتأثَّر بعصره وزمانه، ولكنه لا يفقد إرادته واختياره أمام هذه المؤثرات، فقد منحه الله من القوى والمَلَكَات ما يجعله قادرًا على حمل

QaradawiBooks.com

أمانة المسؤولية، وتقرير مصيره بنفسه وصنع يده: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

ومن المعلوم أن من الناس مَن يعيش خارج عصره، فهو يهرب منه ليحيا في الماضي القريب أو البعيد، وهربه من العصر إما لنفوره منه وكراهيته له، لما يشتمل عليه من أمور تهدِّد كيانه الاعتقادي أو الفكري أو العملي. وإما لخوفه منه، وضعفه أمام مغرياته وعوائقه، وربما بالغ في هذا الخوف لجهله بحقيقة العصر، أو ضعف معرفته به، أو فهمه على غير وجهه، فلا يجد أمامه إلا العزلة عنه، بدل المواجهة التي لا يملك أسلحتها.

كما أن من الناس مَن يندمج في العصر إلى حدِّ الذوبان فيه، فهو لا يقف من العصر موقف الفاحص المنتقي، الذي يأخذ ويَدَع، بل يأخذه كلَّه، وينزل في بحره إلى الأعماق، إلى حدٍّ قد يغرق فيه، فلا يجد شاطئًا، ولا قاربًا للنجاة.

والخير في الوسط الذي يعرف العصر، ويحيا فيه، آخذًا أحسن ما فيه، ومنتفعًا بكلِّ جوانبه الإيجابية الخيِّرة، معرضًا عن الجوانب الأخرى التي تضرُّ ولا تنفع.

ليس العصر هو الغرب:

ولا بد هنا من إيضاح حقيقة لها وزنها وقيمتها، وهي: أن العصر ليس هو الغرب.

فمن الناس مَن يعتبر أن عصرنا هو الغرب بكلِّ ما فيه، من خير وشرٍّ، ورشد وغيٍّ، وهدى وضلال، واستقامة وانحراف. وأننا إذا شئنا أن

QaradawiBooks.com

نعيش عصرنا حقًّا، يلزمنا أن نحيا حياة الغربيين بخيرها وشرِّها، وحلوها ومرِّها، ما يُحَبُّ منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب.

ولكن البحث المتعمِّق المنصف يرينا أن الغرب ـ وإن كان هو المهيمن في عصرنا على الحياة، وكانت ثقافته هي الثقافة السائدة والغالبة على العالم ـ ليس هو كل العالم، ولا كل العصر.

فهناك العالم الإسلامي ـ على امتداده وسَعَته ـ له ثقافته الخاصة، ومعارفه وقيمه المتميزة، ورغم سطوة الغرب الساحقة في عالم الثقافة، مثل سيطرته في عالم السياسة، ورغم تأثُّر العالم الإسلامي بالغرب تأثُّرًا هائلًا في كلِّ أنماط الحياة، يظل العالم الإسلامي متميزًا عن غيره من العوالم الأخرى، كتابية كانت أم وثنية.

وهناك عالم الشرق الأقصى بدياناته وفلسفاته، وطقوسه واتجاهاته، وما فيها من حقائق وأساطير، تكوِّن جزرًا ثقافية أخرى لم تستطع الديانات السماوية الكبرى أن تؤثِّر فيها التأثير الثقافي المطلوب.

ومن هنا نقول: إن العصر أوسع من الغرب، برغم تأثيره البالغ عليه.

كما نقول أيضًا: إن الغرب ليس كلُّه شرًّا ولا ضلالًا، فكم فيه من علم نافع، وكم فيه من عمل صالح، وكم فيه من خلق كريم، وكم فيه من إنجازات هائلة، وإمكانات ضخمة، يمكن توظيفها لصالح الإنسان، كل إنسان.

لقد أقرَّ الرسول الكريم ﷺ، بعض الأحكام والتقاليد التي كان معمولًا بها في الجاهلية، حيث لم يجد فيها ما يخالف ما جاء به الإسلام، وأقرَّ أحكاما أخرى مع بعض التعديل، لتتفق مع هداية الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا، ونقل أمورا من الأمم الأخرى، ولم يرَ في ذلك

QaradawiBooks.com

بأسًا، مثل: أسلوب حفر الخنادق، ونصب المنجنيق في الحرب، ولم تكن من مكايد العرب في حروبهم.

ونوَّه الرسول ﷺ بحلف اشترك فيه في صغره، وهو في الجاهلية، لردِّ المظالم، ونصرة المظلوم، وقال عنه: «**لو دعيت لمثله في الإسلام لأجبت**»[١].

وقال ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»[٢]! وإنما قالها لبيد في الجاهلية قبل أن يسلم.

وأشاد عليه السلام بخطبة سمعها قبل البعثة من قسِّ بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ.

لا حرج علينا إذن أن نقتبس من الغرب ما ينفعنا، وما يليق بنا، ويتلاءم مع قيمنا وثقافتنا، وما يؤكِّد المبادئ التي دعا إليها ديننا.

وقد توجب علينا عملية الملاءمة هذه أن نعدِّل ونحوِّر ـ بالحذف والإضافة ـ فيما نقتبسه حتى يغدو صالحًا لنا، متوافقًا مع أصول شريعتنا، ونظام حياتنا، وظروف بيئتنا. وقد يصبح بهذا التعديل والتحوير جزءًا من وجودنا المعنوي، وكياننا الثقافي، ويفقد جنسيته الأولى.

لا جناح علينا أن نأخذ من الديموقراطية وضماناتها وعناصرها ما يؤكِّد مبدأ الشورى، ومبدأ النصيحة والمحاسبة للحاكم، وحق عزله إن جار عما بويع عليه[٣].

---

(١) رواه البزار (١٠٢٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١٢٢): فيه ضرار بن صرد وهو ضعيف، وله طريق آخر. عن عبد الرحمٰن بن عوف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٨٤١)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، عن أبي هريرة.

(٣) انظر كتابنا: فتاوى معاصرة (٢/٧٠٤ ـ ٧٣٧)، فتوى: الإسلام والديمقراطية، وتعدد الأحزاب في الدولة الإسلامية، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، وانظر كتابنا: =

QaradawiBooks.com

وأن نأخذ من نظام القضاء والمحاكمات الغربي، وأنواع المحاكم ودرجاتها، ما يؤكد مبدأ العدل الذي فرضه الإسلام، وأقام عليه الحكم.

وأن نأخذ مما ابتكره الغرب من أدوات للثقافة ـ كالسينما والمسْرح والتلفاز والإذاعة ـ على أن نفرغ فيها المضمون الذي يتناسق معنا، ويدعم هُويتنا، ونضع لها من الشروط والضوابط ما يجعلها أدوات بناء لا معاول هدم.

وكلُّ ما لدى الغرب من وسائل وآليات لا بأس بأخذه منه، إذا استخدمناه فيما يخدم أهدافنا ومقاصدنا. إذ لا حكم للوسائل إلا باعتبار مقاصدها، وقد يرتقي أخذها واستيرادها إلى درجة الوجوب والفريضة لا مجرد الجواز والمشروعية، إذا كانت وسيلة لازمة ومتعيِّنة لأمر واجب، وفقًا للقاعدة الشهيرة: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

وليس هذا خاصًا بالوسائل والأدوات المادية، بل يشمل المعارف والأفكار النظرية أيضًا.

وقد نبَّهتُ في بعض ما كتبتُ من قبل[1] أن رفضنا لبعض الفلسفات والنظريات الكلية التي ظهرت في الغرب، وكان لها أتباع وأنصار، كما كان لها خصوم وأعداء، مثل: نظرية «دارون» في النشوء والارتقاء، أو نظرية «دور كايم» في نشأة الدين وتفسير الظواهر الاجتماعية، أو فلسفة «فرويد» في التحليل النفسي وتفسير السلوك الإنساني، أو فلسفة

= الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي صـ ١٢٨ ـ ١٣٥، فصل: هم الاستبداد السياسي، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(١) انظر كتابي: بينات الحل الإسلامي صـ ٨٣ ـ ٨٧، عنوان: مشروعية الاقتباس مما عند غيرنا وحدوده، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٣.

QaradawiBooks.com

«ماركس» في التفسير المادي للتاريخ، رفضنا لهذه النظريات في فلسفتها الكلية، واتجاهها العام، لا يعني بالضرورة أن كلَّ ما قاله هؤلاء باطل، فقد نجد عند كلٍّ واحد من هؤلاء في مجاله، من النظريات العميقة، والتحليلات الدقيقة، والآراء الرشيدة، ما ينبغي لنا أن ننتفع به، ونفيد منه لفكرنا وثقافتنا، تطبيقًا لما قاله سلفنا: خذ الحكمة من أي وعاء خرجت.

وقد حكى القرآن على لسان بعض المشركين كلمات حكيمة تتلوها الأجيال في كتاب الله، وتستضيء بها، وإن كان قارئها غير مؤمن، كما في قوله على لسان ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]. فبيَّنت ما يفعله الفتح الملوكي «الاستعماري» بالبلاد والعباد. وقد قالت ذلك قبل أن تسلم مع سليمان لله رب العالمين.

ومثل ذلك قول امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقد روى أبو داود، عن الصحابي الفقيه معاذ بن جبل: إن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق. ولما قال له بعض أصحابه: وما يدريني ـ رحمك الله ـ أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات ـ وفي بعض الروايات: المشتبهات ـ التي يقال لها: ما هذه؟! ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع، وتلقَّ الحق إذا سمعته ـ أي ولو من منافق ـ فإن على الحقِّ نورًا[1].

(١) رواه أبو داود في السُّنَّة (٤٦١١)، والحاكم في الفتن (٤/٤٦٠)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣٨٥٥): صحيح الإسناد موقوف.

QaradawiBooks.com

استيراد الثقافة الغربية بكلِّ عناصرها:

ومن الدعوات المشبوهة هنا ما ينفِّق له بعض الناس من وجوب فتح النوافذ للثقافة الغربية بكلِّ ما فيها من صواب وخطأ، ورشد وغي بحجَّتين يحتجُّون بهما:

الأولى: أن هذه الثقافة ثقافة عالمية، وليست ثقافة غربية. فإذا لم نفتح لها الأبواب والنوافذ على مصاريعها، تخلَّفنا عن ركب العالم المعاصر، وبتنا في عزلة قاتلة عن مسيرته الثقافية المتطوِّرة.

والثانية: أن الثقافة أو الحضارة لا تتجزَّأ، فهي لا تعطيك بعضها، حتى تأخذها كلَّها، فأجزاؤها مرتبطة ارتباطًا عضويًّا بعضها مع بعض، لا يجوز أن نأخذ الجانب المادي أو العلمي، دون الجانب الأدبي، ولا يسوغ أن نأخذ بعض الجانب الثقافي دون بعض.

دعوى عالمية الثقافة:

أما الشبهة الأولى فهي مغالطة مكشوفة، فمن المقرَّر المعلوم لدى الدارسين أن الثقافة غير العلم المحض، القائم على الملاحظة والتجربة، فهذا العلم التجريبي عالمي حقًّا، فقوانين الفيزياء والكيمياء، والفلك والتشريح والطب وغيرها قوانين عامة، لا تتأثر بدين ولا وطن ولا قوم، إلا في عرضها وتدريسها، وربطها بالفلسفة العليا للكون كلِّه، وللوجود كلِّه، ووضع الضوابط لتوظيفها فيما يخدم الأهداف العليا للإنسان، ولا يتعارض مع القيم الدينية والأخلاقية.

أما الثقافة فخصوصيتها ثابتة ومؤكَّدة، لأنها ليست مجرد معارف ذهنية مجردة، بل هي معارف وإدراكات، ممزوجة بقيم واعتقادات،

QaradawiBooks.com

مجسدة في أعمال وسلوكيات، تعبِّر عنها شعائر وآداب وفنون، تُقرأ وتسمع، وتحسُّ وترى. وهي تتأثر في ذلك كله بالدين واللغة، والبيئة، والمواريث الثقافية والحضارية، والتفاعل مع الآخرين إيجابًا أو سلبًا.

ولهذا تختلف ثقافة الشعوب بعضها عن بعض، فثقافة أهل الشرق غير ثقافة أهل الغرب، وثقافة أهل الإلحاد غير ثقافة أهل الدين، وثقافة أهل الكتاب غير ثقافة الوثنيين، وثقافة الحضر غير ثقافة البدو، وثقافة العرب غير ثقافة العجم، وثقافة المسلمين غير ثقافة غيرهم من أهل الملل الوضعية أو السماوية.

ولو نظرنا إلى الغرب، لوجدنا ثقافة البلاد الليبرالية تختلف كثيرًا عن البلاد الشيوعية، ثم وجدنا الليبراليين يتفاوتون فيما بينهم، فالثقافة اللاتينية غير السكسونية، غير الجرمانية، وهذه كلها غير الثقافة الأمريكية.

صحيح أن هناك قدرًا مشتركًا بينها، لاتفاقها في الدين المسيحي، والاستمداد من الحضارتين الإغريقية والرومانية، وتشابه البيئة، ولكن يبقى لكلٍّ منها تميزه ومشخصاته.

أما المسلمون ـ والعرب خاصة ـ فلهم ثقافتهم الخاصة التي تعبِّر عن كينونتهم الحضارية المتميزة، والتي اتَّسمت بخصائص قلما تتوافر لغيرها، تحدثنا عنها في موضعها.

هل الحضارة كلٌّ لا يتجزأ؟

وأما الشبهة الأخرى، وهي أن الثقافة أو الحضارة مرتبطة ارتباطًا عضويًّا لا يقبل التجزئة، بحيث يستحيل أخذ بعضها دون بعض. فهو قول مرفوض، ودعوى مردودة، يرفضها المنطق، ويردها التاريخ والواقع.

QaradawiBooks.com

لقد دعا الدكتور طه حسين إلى ذلك في الثلاثينات من هذا القرن العشرين ـ في كتابه مستقبل الثقافة في مصر[١] ـ كما دعا إليه آخرون قبله وبعده، وردَّ عليهم آخرون قديمًا وحديثًا.

وقد عرضت لذلك في كتابي «الحلول المستوردة»[٢]، وبيَّنت أن الانتقاء من الحضارات والثقافات ممكن وواقع. وقد حدث قديمًا وحدث في عصرنا.

فقد أخذ المسلمون في عصورهم الذهبية عن الفرس والهنود واليونان، جوانب مختلفة من حضاراتهم وثقافاتهم، وانتفعوا بها بقدر أو بآخر، ولم يكن حتمًا عليهم أن يأخذوا كلَّ ما في هذه الحضارات أو الثقافات.

وأخذ الأوروبيون بعد ذلك من المسلمين المنهج العلمي الاستقرائي، كما شهد بذلك المنصفون من مؤرخي العلم الغربيين أنفسهم[٣]، وانتفعوا بهذا المنهج أيما انتفاع، ولم يكن لازمًا لذلك أن يأخذوا من المسلمين عقائدهم وتصوراتهم، وعباداتهم وآدابهم، وغير ذلك مما يكوِّن ثقافتهم المتكاملة.

وأخذ اليابانيون اليوم من الغربيين علمهم الطبيعي والرياضي، وما أثمره من تطبيقات تكنولوجية، فأفادوا وتفوَّقوا فيه على أصحابه أنفسهم، ولم يأخذوا منهم ما يتعلَّق بالعقائد والشعائر والتقاليد، وما ضرَّهم ذلك شيئًا، بل حفظ عليهم ذاتيتهم، وشخصيتهم التاريخية المستقلة.

---

(١) مستقبل الثقافة صـ ٣٩، نشر دار المعرفة، ط ٢، ١٩٩٦م.

(٢) فصل: كيف عُزل الإسلام عن قيادة المجتمع؟

(٣) من أمثال «بريفولت» و«غوستاف لوبون» و«جورج سارتون» وغيرهم، انظر: مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي د. سامي على النشار صـ ٣٨٢ ـ ٣٨٥، نشر دار المعارف، ط ٢.

QaradawiBooks.com

والمؤرخ المفكر الغربي الشـــهير «توينبي» ينقد بشدَّة غير الغربيين الذين يقبلون الحضارة الغربية بكلِّ عناصرها، ويرى ذلك من سوء حظ البشـــرية. وذلك حين يتحدَّث عن البلاد التي تحرَّرت من الاســـتعمار الغربي، فيقول في «محاضراته»: «ولكن هذه البلاد التي استقلت سياسيًّا، ما زالت غيـــر متحررة تمامًا مـــن الوجهة الثقافية، فهـــي لا تزال متأثرة بالأفكار والمثل العليا الغربية، دون تمييز ودون أي انتقاد لها».

وفي موضع آخر يقول: «على أن كلَّ هذه البلاد التي نجحت في أن تحرِّر نفسها من سيطرة الغرب السياسة، قد اســـتغلت حريتها على نحو غير متوقع على الإطلاق. فقد ناضلت هذه البلاد بعنف شـــديد ضد الســـيطرة السياسية للغرب. ويمكن القول بأن كفاحها هذا قد كلِّل بالنجاح في كلِّ الحالات حتى الآن. ولقد كان من المتوقع بعد أن تمكنت من أن تتحرَّر سياسيًّا من الغرب، أن تستخدم هذه الحرية الجديدة التي اكتسبتها في النضال ضد المدنية الغربية بوجه عام؛ أي أنه كان من المتوقع أن تســـتخدم هذه البلاد حريتها المكتسبة حديثًا، لكي ترجع إلى أسلوبها التقليدي في الحياة، وهو الأسلوب الذي كان سائدًا في حياتها قبل أن يسيطر عليها الغرب.

ولكن الذي حدث في جميع الحالات تقريبًا ـ كما نعلم ـ هو أن البلاد التي تحرَّرت حديثًا قد استخدمت حريتها للغرض العكسي تمامًا؛ أي أنها قد اســـتخدمتها لتقتبس ـ بمحض اختيارها ـ عناصر من المدينة الغربية، أعني من أسلوب الحياة الحديثة، وقد فعلت ذلك بحماسة، وبلغت حماستها هذه حدًّا لم يكن الحكام الغربيون السابقون يجرؤون على أن يفرضوا به المدنية الغربية عليهم، ذلك لأن نظام الحكم الأجنبـــي، يتعين عليه دائمًا أن يكون أكثر حذرًا من نظـــام الحكم القومي، وهناك أمـــور لا يجرؤ النظام الأجنبي على فعلها مطلقًا، ومع ذلك يجرؤ عليها النظام القومي.

QaradawiBooks.com

ولكنني أعتقد أنه سيكون من سوء حظ الجنس البشري كله ـ وضمنه الغرب ذاته ـ أن يتجه الجزء غير الغربي من العالم إلى قبول المدنية الغربية بكلِّ عناصرها دون تمييز، ودون تفرقة بين ما هو نافع وما هو ضار فيها، وأقول: إن هذا يكون من سوء الحظ، لأن المدنية الغربية ـ شأنها شأن أي مدنية أخرى ـ فيها أوجه نافعة وأوجه ضارة.

ذلك لأن المستوى المادي للمعيشة، ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة لغاية أخرى هي رفع المستوى الروحي. وعلى ذلك فمن وراء رأس المال المادي، يوجد رأس المال الإنساني، وهو أهم رأس مال يملكه البشر»[(١)].

دفاع العلمانيين عن استيراد المذاهب والأفكار:

لقد دافعت بعض الأقلام العلمانية في ديارنا العربية الإسلامية عن اتجاه «الاستيراد»: استيراد المذاهب والأفكار من خارج أرضنا، واستغرب بعضهم النقد الذي يوجهه «دعاة الأصالة» إلى المذاهب المستوردة، والأفكار المستوردة، والحلول المستوردة، وحجَّة هؤلاء: أن الحياة قائمة على التبادل، هذا يصدِّر وهذا يستورد، وهذا يبيع وهذا يشتري، وهذا يعطي وهذا يأخذ. وكما يحدث هذا في عالم «الأشياء»، فلماذا لا يحدث مثله في عالم «الأفكار»؟ وَفق تقسيم مالك بن نبي رَحِمَهُ اللَّهُ [(٢)].

(١) انظر: محاضرات أرنولد توينبي صـ ٣٥ ـ ٤٧، ترجمة د. نبيل صبحي، نشر دار العروبة. وانظر كتابنا: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا صـ ١٢٦ ـ ١٣٧، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٢) كما في كتبه: تأملات، وفكرة كومنولث إسلامي، ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ومشكلة الثقافة، وميلاد مجتمع، نشر دار الفكر، دمشق.

QaradawiBooks.com

وغفل هؤلاء عن عدَّة حقائق:

الأولى: أن دعاة الأصالة لا ينكرون استيراد الأفكار الجزئية، أو الحلول الجزئية لمشكلاتنا من الغرب أو الشرق، إذا كانت ملائمة لنا، محققة لأهدافنا، نختارها نحن ولا تُختار لنا أو تُفرض علينا. بل قد يوجبون الاستيراد إذا رأَوا فيه مصلحة متعيِّنة لأمتنا، وبخاصة ما يتعلَّق بالوسائل والأساليب.

إنما ينكرون استيراد مذهب كامل نتخذه مرجعًا لنا، أو فكر كلي، أو حل كلي، نؤسس عليه حياتنا كالفكر ـ أو الحل ـ الليبرالي الرأسمالي، أو الفكر ـ أو الحل ـ الاشتراكي الثوري الماركسي، كما نادى منادون بهذا أو ذاك أيام نَفَاق سوقها في بلادها.

الثانية: أن دعاة الأصالة ينكرون أن نظلَّ نحن نستورد أبدًا ولا نصدِّر، ونشتري ولا نبيع، ونأخذ ولا نعطي، ونستهلك ولا ننتج، فهذا ليس من «التبادل» في شيء. إنما نحن ـ حينئذ ـ سوق لسلع الآخرين، وأفواه مفتوحة لالتهام منتجاتهم. وهذه هي «التبعية» الذليلة المرفوضة، التي لا يجوز أن ترضى بها أمة كريمة على نفسها، لا في عالم الأشياء، ولا في عالم الأفكار.

وإذا سقطت أمة في مرحلة ما من تاريخها في هوة الاستيراد من جانب واحد، فعليها أن تعتبر ذلك نقطة ضعف يجب أن تتجاوزها وتتحرر منها، ولا تدافع عنها أو تباهي بها.

الثالثة: أن علم الاقتصاد الذي يستند إليه هؤلاء العلمانيون، والذي يرى أن الحياة قائمة على التبادل، وأن الاستيراد كثيرًا ما يكون ضروريًّا للأمم والجماعات، هذا العلم نفسه يقيد هذا بقيود تجعله وسيلة نفع لا أداة ضرر، وآلة بناء لا معول هدم.

QaradawiBooks.com

فلا يجوز أن نستورد من غيرنا ما يضرنا ماديًّا أو معنويًّا، كالذي يسمونه «المشروبات الروحية»، وأدوات الاستهلاك الترفي، ولوازم اللهو الحرام.

ولا يجوز أن نستورد إذا كان الاستيراد يعوِّد الشعب الاتكال على ما عند غيره، لا الاعتماد على نفسه، ليأكل مما يزرع، ويلبس مما يصنع، ويستهلك مما ينتج، ويدافع عن نفسه بأسلحة من صنع يديه. وفوق ذلك كله لا يجوز أن نستورد سلعة من غيرنا إذا كان لدينا سلعة مثلها، ناهيك بسلعة أفضل منها.

وهذا ما جعل دعاة الأصالة العربية الإسلامية ينكرون استيراد أيديولوجيات ومذاهب، نبتت في أرض غير أرضنا، لتخاطب قومًا غير قومنا، وتحمل لتفسير الوجود والمعرفة والقيم فلسفة غير فلسفتنا، وتتعامل مع الله والإنسان، والكون والحياة بثقافة غير ثقافتنا.

النموذج الغربي للتنمية:

وإذا كان الغرب ليس هو العصر، فمن حقِّنا أن نتوقَّف أمام بعض دعاة المعاصرة الذين يريدوننا ـ لكي نكون معاصرين حقًّا ـ أن نأخذ «النموذج الغربي» في التنمية، بكل ما أفرز من سلبيات في محيط الكون والحياة والإنسان. ويرون أنه لا سبيل لأن تنمو مجتمعاتنا وتنهض من كبوتها، وتخرج من إسار التخلُّف، إلا إذا قلدت هذا النموذج حذو القُذَّة بالقُذَّة.

هذا مع أن الغربيين أنفسهم اليوم يوجهون سهام نقدهم إلى هذا النموذج الذي غلبت عليه نزعات المادية والنفعية، والآنية والمحلية والعنصرية جميعًا.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لقد عدا النموذج الغربي على التوازن الكوني، وأمسى الناس يشكون اليوم من الخلل الذي أصاب طبقة «الأوزون»، والذي ترتب عليه خلل كبير في حياة الناس، قد يتفاقم فيؤدِّي إلى نتائج لا يعلم عواقبها إلا الله.

وعدا النموذج الغربي على «التوازن الفطري» الذي أودعه الله الحياة بعناصرها وأنواعها المختلفة، فكان من أثره ما جعل الناس يشكون من «تلوث البيئة» بمختلف مظاهره.

وأشدُّ من خطر تلوث البيئة: تلوث الإنسان نفسه. حين تفسد فطرته، وتختلُّ موازينه، ويعوجُّ تفكيره وسلوكه، فيرتكب من الحماقات، ويقترف من المنكرات والشذوذات، ما يعاقب عليه في الدنيا، قبل الآخرة، تعاقبه فطرة الله في الأرض قبل أن تعاقبه محكمته في السماء.

ومن هنا كان «الإيدز»، وكانت الأمراض العصبية والنفسية، وكان القلق والاكتئاب، المنتهي بالانتحار، والتخلص من الحياة، أو العيش في الحياة باعتبارها ملهاة أو مأساة! على نحو ما قال شاعرنا العربي قديمًا[(١)]:

ليس من مات فاستراح بميتٍ   إنما المَيْتُ ميت الأحياء
إنما المَيْتُ مَن يعيش كئيبًا   كاسفًا باله قليل الرجاء[(٢)]

لقد أدَّى هذا النموذج بنزعاته تلك إلى أن جعل الإنسان عبدًا للآلة، التي هو صانعها، وأن أصبح في النهاية ترسًا في هذه الماكينة الكبيرة الجبارة، إن لم يسِر معها ويدُر بدورانها، طحنته عجلاتها، ولم يبالِ به أحد.

(١) عدِي بن رعلاء الغَسّاني، كما في الأصمعيات، نشر دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٩٣م.
(٢) من شعر عدي بن الرعلاء الغساني، كما في الأصمعيات صـ١٥٢، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، نشر دار المعارف، مصر، ط٧، ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

لقد قدَّمت لـــه التنميـــة الصناعيـــة ـ الخالية من القيـــم الإيمانية والأخلاقية ـ الوســـائل، ولم تقدِّم له الغايات، قدَّمت له الرفاهية، ولم تقدِّم له السكينة، منحته المادة، وسلبته الروح، أعطته العلم، وحرمته الإيمان.

لا غرو أن وجدنا من فلاسفتهم ومفكريهم، وعلمائهم وأدبائهم، مَن سلطوا أضواءهم الكاشفة والناقدة على عورات هذا النموذج المسرف في المادية، والذي جعل التنمية غاية أو إلهًا معبودًا.

ومن أشهر نقادهم هنا: اثنان من حملة جائزة نوبل في العلوم، وهما: «ألكسيس كاريل»، و«رينيه دوبو»[1].

هذا ما صنعه الغرب بنفســـه حتى نما، ناهيك بمـــا صنعه بغيره من الشعوب والأوطان. لقد ســـرق ثرواتها سرًّا وعلانية، ليكوِّن منها رصيدًا ضخمًا لثروته الكبرى. لقد أفقرها ليغتني هو. إنها اللصوصية بعينها.

لقد قتل الآخرين ليحيا، صنع مـــن جماجمهم حجارة لبناء رفاهيته، وزخرف أبنيته بدمائهم.

واليوم، ونحن نسعى إلى التنمية بكلِّ طاقاتنا، هل يلزمنا أن نقلد هذا النموذج، ونتَّخذه إمامًا؟

إن واجبنا أن نضعه على مشرحة التحليل، لنعرف مكوناته، ونحلِّله إلى عناصـــره الأولية، فنأخذ منه ما ثبت نفعـــه، ونتجنَّب ما ثبت ضرره وإثمه، أو ما كان إثمه أكبر من نفعه، وأن نُحوِّر فيه ونعدل حتى يلائمنا.

---

(١) راجع: إنسانية الإنسان لرينيه دوبو، ترجمة د. نبيل صبحي الطويل، والإنسان ذلك المجهول لألكسيس كاريل، ترجمة أسعد شفيق، وسقوط الحضارة لكولن ولسون، وغيرها.

QaradawiBooks.com

إن التنمية التي نتبنَّاهـا هي التنمية بمفهومها الشـامل، الذي يعتبر الإنسان هدف التنمية ووسـيلتها في آن واحد، والذي يهدف إلى تنمية الإنسان كله: جسـمه، وعقله، وعاطفته، وروحه وضميره. الإنسان فردًا، والإنسـان مجتمعًا، الإنسـان طفلًا، والإنسان شـابًا، والإنسان شيخًا، الإنسـان رجلًا، والإنسـان امرأة، الإنسـان الأبيض، والإنسان الأسود، والإنسان الملون.

٢ ـ العلم والتكنولوجيا:

إن أهم مقتضيـات المعاصرة، وبعبـارة أخرى: أهـم ما نأخذه من «العصر» هو: العلـم وتطبيقاته «التكنولوجية»، العلـم بمعناه الحديث، القائم على الملاحظـة والتجريب. العلم الطبيعـي والرياضي، إلى آخر مدى وصلا إليه. العلم الذي أوصل الإنسـان إلى غـزو الفضاء، وصنع الحاسـوب «الكومبيوتر»، والهندسـة الوراثية التي انتهـت إلى مرحلة يعبِّرون عنها بـ «الثورة البيولوجية».

إننا إذا قلنا: إن أصالتنا الإسـلامية والعربيـة لا تمنعنا من أخذ هذا العلم والاقتباس منه والانتفاع به، نكون قد ظلمنا أصالتنا.

فالواقع أنها توجب علينا ذلك إيجابًا، من أكثر من جهة:

أ ـ من جهة أن من فروض الكفاية على الأمة ـ التي لا خلاف عليها ـ أن تتقن كلَّ علم تحتـاج إليه في دينها أو دنياهـا، وأن يكون لديها من المتخصِّصين والخبراء فيه ما يقوم بكفايتها، ويغنيها عن غيرها.

وفرض الكفاية هو ما يجب على الأمة في مجموعها وجوبًا تضامنيًّا، بحيث إذا قام به عدد كافٍ سقط الإثم عن سائر الأمة، وإلا أثمت كلُّها.

QaradawiBooks.com

ب ـ ومن جهة أن الأمة مطالبة بأن تكون في مكان الأستاذية للأمم، التي يعبِّر عنها القرآن بـ «الشهادة على الناس»، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذه المكانة التي بوَّأها القرآن للأمة توجب عليها أن تتفوَّق في كلِّ ما يعزِّز مكانتها، ويعينها على أداء رسالتها الحضارية، وفي مقدِّمة ذلك العلم الذي جعله الله المرشح الأول لاستحقاق الإنسان منصب الخلافة في الأرض كما تدلُّ على ذلك آيات: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

فلا يجوز للأمة المسلمة أن تظلَّ عالة على غيرها، وأن ترضى بالبقاء في ذيل القافلة البشرية وموضعها في الطليعة.

ج ـ ومن جهة أن الأمة يجب أن تكون سيدة في أرضها، لا سلطان لأحد عليها، فهي بالإسلام تعلو ولا تُعلى، وتحكم ولا تُحكم. ويجب لذلك أن تُعدَّ لأعدائها القائمين والمحتملين ما استطاعت من قوَّة، دفاعًا عن حرماتها، وذودًا عن دعوتها، وتمكينًا لحضارتها، وإرهابًا لعدو الله وعدوها.

وإذا كان العلم والتكنولوجيا التي هي ثمرته وسيلة لازمة لذلك، وكان من الواجب الحتمي شرعًا اكتساب هذا العلم وكلِّ ما يؤهِّل له

QaradawiBooks.com

ويعين عليه، تطبيقًا للقاعدة الشـرعية المتَّفق عليهـا، وهي: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

د ـ ومن جهة رابعة: أن العلم الحديث ييسِّـر على الإنسان كثيرًا من أمور حياته، ويساعده على أداء واجباته، في وقت أسرع، وبجهد أقل، وبصورة أفضل، ويسـهِّل له أشـياء لم يكن يحلم بها من قبل مجرَّد حلم.

ولا يجوز أن يُحرم المجتمع المسـلم، ولا الفرد المسلم من ثمرات هذا كلِّه، بل هو أولى الناس بالاستفادة من هذا العلم، الذي يعتبره نعمة من الله الذي: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]. والذي يجب أن يشـكر الله تعالى عليها، وشـكرُ النعمة باسـتخدامها فيما خُلقت له، مما يحبُّه الله تعالى ويرضاه، لا مما يكرهه ويسخطه.

ثم إن الله تعالى يريد بالناس اليسـر، ولا يريد بهم العسر، والشريعة تأمر بتحصيل المصالـح الخالصة أو الراجحة، فإذا ثبـت أن وراء هذا العلم تيسيرًا ومصلحة فهو مطلوب شرعًا.

وقد اسـتخدم المسـلمون هذا العلم في طباعة المصاحف والكتب الدينية، ونشـر العلم وتعليم الدين، وتسـهيل أداء عباداته، مثل فريضة الحج، وغيرها. واليوم يجتهدون في اسـتخدام «الكومبيوتر» في خدمة السنة النبوية والعلوم الشرعية واللغوية، فهو عون على الدين والدنيا.

هـ ـ ومن جهة خامسـة: أن هـذا العلم الذي نأخـذه اليوم من الغرب، قد أخذه الغرب بالأمس منا، من حضارتنا. وهذا ما شهد به الغربيون أنفسهم، فهو إذن بضاعتنا تُردُّ إلينا، ولسنا بالغرباء عنه، ولا الدخلاء عليه.

QaradawiBooks.com

صحيح أن العلم المعاصر لم يعد هو العلم الذي اقتبسه الغرب منا قديمًا، فقد خطا خطوات واسعة، وقفز قفزات هائلة، من عصر الصناعة الأول إلى عصر الصناعة الثاني، إلى ما نراه اليوم من تكنولوجيا متطوِّرة، ومن نتائج بعيدة المدى، ومن طموحات تكاد تغيِّر وجه الحياة. ولكن أصول هذا المنهج العقلية والعلمية أصول إسلامية، وقد قيل: الفضل للمبتدي، وإن أحسن المقتدي.

ومهما يكن الأمر في أصل هذا العلم ومصدره، فهو الآن في صورته الأخيرة علم غربي، شئنا أم أبينا، وهو كذلك أحد مستلزمات العصر، ولا معاصرة لنا إذا لم نعبُّه عبًّا، لا يكفينا منه مجرَّد الارتشاف، لا بدَّ من الوصول إلى درجة «الإحسان» في هذا العلم، فإن الله كتب الإحسان على كلِّ شيء.

شراء التكنولوجيا:

ولا ينفعنا هنا ما زعمه بعضهم يومًا: أننا يمكننا بأموالنا ـ التي هيَّأها لنا النفط وغيره ـ أن نشتري التكنولوجيا من أيِّ مكان في العالم، ونستخدمها كما نريد، ونوظِّفها في إنهاض أوطاننا، وتطوير أوضاعنا، وتحقيق طموحاتنا التنموية.

فالواقع أن التكنولوجيا التي تُشترى لا تطوِّر المجتمع، ولا تنقله إلى العصر؛ بل تساعده على الاستهلاك لا الإنتاج، والتقليد لا الإبداع، وتغيير المظهر لا الجوهر، والمبنى لا المعنى.

والذين يبيعوننا التكنولوجيا ليسوا بلهاء، بحيث يبيعوننا ما يجعلنا نستغني عنهم؛ إنما يعطوننا البعض لا الكل، والفرع لا الأصل، حتى نظلَّ مربوطين بهم، مشدودين إليهم، مفتقرين إلى عونهم.

QaradawiBooks.com

ولا يزال الناس يذكرون في الخليج تلك المدينة الخليجية الكبرى التي تعطَّلت فيها إحدى محطات الكهرباء الرئيسة، فعاش نحو ثلث سكانها محرومين من كل آثار الكهرباء في الحياة الحديثة: لا ثلاجة، ولا مكيف، ولا مروحة، ولا مصعد، ولا تلفاز، ولا، ولا. حتى أرسل المصنع أو الشركة التي اشتُريت منها المحطة، الخواجة المهندس الذي أصلحها!

إن التكنولوجيا المطلوبة هي التي تُستنبت في أرضنا، وتنمو بنموِّنا، وتتفاعل مع واقعنا، وتمدُّها عقول أبنائنا، وتحملها سواعدهم. ونحن لها أهل إذا استبانت الوجهة، واتَّضح السبيل. والدين أعظم ما يعيننا على ذلك إذا أحسنَّا فقهه، وعملنا بتوجيهه.

لا تناقض بين النقل والعقل:

وما أوهمه بعض الكتاب من أن البيئة الدينية لا تهيئ لمناخ علمي مزدهر، بافتراض وجود صراع بين النقل والعقل، أو بين النصِّ الإلهي والاجتهاد الإنساني، غير صحيح، بل تردُّه النصوص، ويردُّه التاريخ، ويردُّه الواقع، فالعقل هو المخاطب بنصِّ الشارع، والمكلَّف بفهمه والعمل به، والاجتهاد في دلالته، وملء الفراغ فيما لا نصَّ فيه. وقد ترك النقل ـ أو الوحي ـ للعقل شؤون الكون والحياة كلَّها يصول فيها ويجول، ولم يحجر عليه في ذلك. بل أمره وحرَّضه ودعاه.

والمحقِّقون من علماء الأمة اعتبروا الوحي والعقل هاديين للخلق إلى الحقِّ. يقول الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه القيم «الذريعة إلى مكارم الشريعة»: «لله ﷻ، إلى خلقه رسولان، أحدهما: من الباطن وهو العقل. والثاني: من الظاهر وهو الرسول. ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن، فالباطن يعرف صحة

QaradawiBooks.com

دعوى الظاهر، ولولاه لما كانت تلــزم الحجة بقوله، ولهذا أحال الله مَن يشكِّك في وحدانيته وصحَّة نبوة أنبيائه على العقل، فأمره بأن يفزع إليه في معرفة صحتها. فالعقل قائد والدين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيًا، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرًا، واجتماعهما كما قال الله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]»[(١)].

ويؤكِّد ذلك معاصــر الراغب الإمام أبو حامــد الغزالي في عدد من كتبه. ففي مقدمة «المســتصفى» يعتبر العقل القاضي الذي لا يُعْزَل ولا يبدل، والشــرع الشــاهد المزكَّى المعدَّل، ويجعل العقل مركب الديانة وحامل الأمانة[(٢)].

وفي «الإحياء» يقرِّر أن لا غنى بالشــرع عن العقل، ولا بالعقل عن الشــرع «فإن العلــوم العقليــة كالأغذية، والعلــوم الشــرعية كالأدوية، والشــخص المريض يســتضرُّ بالغذاء متى فاته الدواء»، وينكر على مَن يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشــرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن. وهو في رأيه ظنٌّ صادر عن عمى في عين البصيرة[(٣)].

وفي «الاقتصاد في الاعتقاد» يصف عصابة الحق وأهل الســنة أنهم الذين وفَّقوا بين مقتضيات الشــرائع، وموجبات العقــول، وتحقَّقوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول[(٤)].

---

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة صـ٢٠٧، تحقيق د. أبو اليزيد العجمي، نشر دار السلام، مصر.

(٢) المستصفى (٣/١)، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٣) إحياء علوم الدين (١٧/٣)، نشر دار المعرفة، بيروت. ويلاحظ أن الراغب في «الذريعة» يرى الشرعيات كالأغذية، والمعقولات كالأدوية، باعتبار آخر صـ ٢٠٨.

(٤) من مقدمة كتاب: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، صـ٣، نشــر مكتبــة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م.

QaradawiBooks.com

وفي كتاب «معارج القدس» الذي ينسب للغزالي نقرأ هذه الكلمات: «اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشـــرع، والشـــرع لم يتبيَّن إلا بالعقل. فالعقل كالأُس والشرع كالبناء، ولن يغني أسٌّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسٌّ.

وأيضًا، فالعقل كالبصر، والشرع كالشـــعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شـــعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر، فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان، بل متحدان»[1].

ولا غرو أن وجدنا في تاريخ حضارتنا كثيرًا ممن نبغوا في المجالين: العلوم الشـــرعية، والعلـــوم العقلية. ومن هـــذه العلوم العقليـــة: العلوم الطبيعية، والرياضية والطبية.

فجابر بن حيان يسمى جابرًا الصوفي.

والخوارزمي مبتكر علم الجبر، إنما وصل إليه، وهو يؤلف رسالة في فقه الوصايا والفرائض.

وابن رشد الحفيد صاحب كتاب «الكليات» في الطب الذي تتلمذت عليه أوروبا عدة قرون، هو نفســـه صاحب كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن، وهو قاضٍ شرعي من فقهاء المالكية.

والفخر الرازي صاحب «التفســـير الكبير» والكتب الشهيرة في علم أصول الفقه وعلم أصول الدين، كان من أشـــهر الأطبـــاء في زمنه، ولم تكن شهرته في الطب تقلُّ عن شهرته في علوم الدين.

---

(١) معارج القدس صـ ٥٧، نشـــر دار الآفاق الجديدة، بيروت. وانظـــر: تعليقنا عليه في كتابنا: الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه صـ ٤٦.

QaradawiBooks.com

وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وأول مَن أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية، هو أحد فقهاء الشافعية الذين ترجم لهم ابن السبكي في «طبقاته»، وترجم لهم الذهبي وغيره من مؤرخي الأعلام في الإسلام[١].

استخدام أسلوب الإحصاء:

وإذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية في معالجة الأمور، وهو فارق مميز بين العلميين والعشوائيين أو الغوغائيين من الناس، فإن النبي ﷺ، قد بادر إلى الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة.

فقد روى البخاري ومسلم، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فقال: «**أحصوا لي كم يلفظ الإسلام**»، وفي رواية للبخاري أنه قال: «**أحصوا لي كم يلفظ الإسلام**» قال حذيفة: فكتبنا ألفًا وخمسمائة رجل... الحديث[٢].

فهو إحصاء كتابي يراد تدوينه وتثبيته، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام، مقدار القوة البشرية الضارية، التي يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط، أي القادرين على القتال.

والإحصاء الذي تمَّ في عهد مبكِّر من حياة الدولة المسلمة، وتمَّ بأمر

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (٥٩٧/١٥)، تحقيق د. بشار عوّاد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م. وطبقات الشافعية للإسنوي (٢٨٤/٢)، نشر دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٢م، والأعلام للزركلي (٢٧٠/٤، ٢٧١)، نشر دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢ م

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٦٠)، ومسلم في الإيمان (١٤٩)، عن حذيفة.

QaradawiBooks.com

من الرسول نفسه في سهولة ويسر، يرينا إلى أيِّ حدٍّ يرحِّب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية.

وفي مقابل هذا نجد في «العهد القديم»: أن أحد أنبياء بني إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء، فنزلت عقوبة سماوية بهم[١]! كأنما «الإحصاء» يمثِّل تحديًا للقدر أو للإرادة الإلهية. وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير «برتراند راسل» أن تعاليم «التوراة» والكتاب المقدس لا تتيح مناخًا مناسبًا لإنشاء عقلية علمية.

التخطيط:

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك، بل هو أوضح دلالة عليها، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل، وتحقيق الأهداف المنشودة.

ومن الناس مَن يتصورون أو يصوِّرون الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل. وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلًا للإيمان، فهما ضدان لا يجتمعان، أو خطَّان متوازيان لا يلتقيان.

والحقيقة أن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل، ففيه يأخذ المرء المتديِّن من يومه لغده، وبعبارة أخرى من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته. ولا بدَّ له أن يخطِّط حياته، ويضع لنفسه ـ في ضوء الوحي ـ منهاجًا يوصِّله إلى الغاية، وهي رضوان الله ومثوبته.

(١) انظر: العهد القديم، سفر العدد، إصحاح (٢٣).

QaradawiBooks.com

وفي القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولي الألباب، وهي قصة نبي الله يوسف عليه السلام، وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عامًا، لمواجهة أزمة غذائية عامة. عرف يوسف ـ بما ألهمه الله، وعلَّمه من تأويل الأحاديث ـ أنها ستصيب المنطقة كلَّها، وقد اقترح يوسف عليه السلام، مشروع الخطة. ووُكِل إليه تنفيذها، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧ ـ ٤٩].

ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافي التوكل على الله، أو الإيمان بقضائه، وقدره؛ ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط فضلًا عن أن يوجِّه إليه، أو يحثَّ عليه.

والحقُّ أن الذي يتعمَّق في دراسة كتاب الله، وسنة رسوله يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية، وترك الأمور تجري في أَعِنَّتها بغير ضابط ولا رابط ولا نظام. وبيَّن الرسول ﷺ، أن التوكل على الله لا يعني اطِّراح الأسباب أو إغفال السنن، التي أقام الله عليها نظام هذا الوجود، ولا يكاد مسلم يجهل قصة الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ، وترك ناقته أمام المسجد قائلًا: يا رسول الله، أأعقل ناقتي وأتوكل، أم أطلقها وأتوكَّل؟ فقال له: «**اعقلها وتوكل**»[(١)].

وقال الإمام الطبري يردُّ على مَن زعم أن تعاطي الأسباب يؤثِّر في كمال التوكل: «الحق أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاءه عليه ماضٍ، لم

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٧)، وقال: حديث غريب. وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٩٠/٨)، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٢)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

يقدح في توكُّله تعاطيه الأسباب؛ اتباعًا لسُنّته وسُنّة رسوله، فقد ظاهر ﷺ، بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشِّعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادَّخر لأهله قُوْتَهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك»[1].

ومَن قرأ سيرته عليه الصلاة والسلام، وجد أنه كان يُعدُّ لكلِّ أمر عُدّته، ويهيئ له أسبابه وأهبته، آخذًا حِذره، مقدِّرًا كافة الاحتمالات، واضعًا ما أمكنه من الاحتياطات مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى.

فهو حين أمر أصحابه ـ بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم ـ بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطًا، أو رمية من غير رامٍ، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية، والدينية والسياسية للحبشة في ذلك الوقت.

فلم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان مهمًا بَعُد، في شبه جزيرة العرب، فإن قريشًا ـ بما لهم من نفوذ ديني وأدبي ـ تستطيع أن تلاحقهم.

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفُرس أو الروم، حيث يحكمها أباطرة لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة.

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا بعيدًا إلى بلاد مثل: الهند، والصين. حيث تنقطع أخبارهم، وتكون الهجرة مهلكة لهم.

(١) نقله ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٢١٢)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩م.

QaradawiBooks.com

ولقد كانت الحبشة هي المكان المناسب جغرافيًّا، فهو ليس جدَّ بعيد، ولا جد قريب، بل بينه وبين قريش بحر. وكانت الحبشة هي المكان المناسب دينيًّا، فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يُعَدُّون أقرب مَوَدَّة للمسلمين، وكانت الحبشة هي المكان المناسب سياسيًّا، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنَّصَفَة، ولهذا قال الرسول لأصحابه: «**إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه**»(١). وهذا يدلُّنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في عُزلة عن العالم من حولهم، رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها، وبعض.

ويدلُّ على ذلك أيضًا موقفهم من حرب الفُرس والروم، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين في هذا، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ٢ ـ ٣].

وهكذا، فقد كانوا ـ وهم في فجر الدعوة ورغم الضعف والاضطهاد ـ على صلة بالصراع العالمي بين الدولتين العظميين في ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين: الشرقي والغربي.

وأوضح من ذلك موقفه ﷺ، في هجرته إلى المدينة، ففيها يتجلَّى التخطيط العلمي، والتوكُّل الإيماني جنبًا إلى جنب.

فلقد أعدَّ عليه الصلاة والسلام، من جانبه كلَّ ما يستطيع البشر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمعينات.

ولقد اطمأن إلى المهجر الذي سينتقل إليه، بعد أن بايع المؤمنين

(١) رواه البيهقي في الدلائل (٣٠١/٢)، عن أم سلمة.

QaradawiBooks.com

مــن الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية، واشــترط لنفســه أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم.

واطمأن إلى الرفيق الذي ســيصحبه في رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار، وما تحمله من مفاجــآت، ولم يكن هناك أفضل من أبي بكر رفيقًا.

واطمأنَّ إلى الفدائي الذي ســيبيت مكانه، معرِّضًا نفسه لاحتمالات الخطر، وغدرات المتربصين، ولم يكن ثَمَّ أفضل من علي ابن عمه أبي طالب فارس الإسلام لهذه المهمة.

ورتَّب الدليل الخِرِّيت الذي يدلُّه على الطريق، وما فيه من منعطفات ومخابئ يمكن أن تضلِّل عنــه أعين الطالبين، فكان مشــركًا أمينًا، هو عبد الله بن أريقط، وهو ما أخذ منه الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية، مع الاطمئنان والأمان.

وهيَّأ الرواحل التي سيمتطيها هو وصاحبه ودليله في سفرهم الطويل، واتفقوا على المكان والموعد الذي يستقلُّون به الركائب.

وتخيَّر المخبأ الــذي يختفي فيــه أيامًا معدودة، حتــى تخفَّ حدَّة الطلب، ويتملَّك القومَ اليأسُ، واختاره في غير طريق المدينة، زيادة في التعمية على القوم فكان غار «ثور».

وأعدَّ فريق الخدمة الذي يأتي بالزاد، والأنباء، خلال أيام الاختفاء، فكانت أســماء وعبد الله بن أبي بكر، ومن بعدهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر، يأتي بغنمه فيحلبون منها، ويعفِّي على آثار أسماء وعبد الله.

خطة محكمة الحلقات، متقنة التدبير، لم تُتــرَك فيها فجوة دون أن تُملأ، ولا ثغرة دون أن تُسد، ووُضع فيها كلُّ جندي في دوره المناسب

QaradawiBooks.com

لظروفه وقدراته، فدور أبي بكر، غير دور علي، غير دور أسماء، وكلٌّ في موقعه الصحيح.

ومع هذا الإحكام الدقيق، كادت الخطة تخفق، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار، ويقفوا على بابه، وكان يكفي لكشف الأمر وإفساد الخطة: أن ينظر أحد القوم تحت قدميه، فيرى الرسول وصاحبه في الغار، وهذا ما خشيه أبو بكر، وصرح به للرسول ﷺ، حين قال: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟**»[١]، ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وهنا تجلَّى دور «التوكُّل» الحق، فبعد أن يبذل الإنسان ما في وسعه، ويتَّخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه، ويَدَع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر، لله وحده. هنا تقع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، موقعها وتؤتي أكلها[٢].

واقعنا المُر لا يمثل أصالة ولا معاصرة:

على أن واقعنا اليوم يؤكد أننا نعيش خارج عصرنا، فلا نزال حتى الآن مستوردين لمنتجات الغرب، نشتري أغلى الأجهزة وأفخر السيارات المشتملة على كل الكماليات ـ التي قد تصنع لنا خاصة وبطلب منا ـ ونركب أحدث الطائرات، ولكنا لا نصنع شيئًا من هذا كلِّه. لم نصنع محركًا «موتور» لطيارة ولا سيارة ولو صغيرة. ولذلك لو كفَّ الآخرون أيديهم عنا، ما تحرَّك لنا مصنع، ولا حلَّقت بنا طائرة، ولا سارت بنا سيارة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، كلاهما في فضائل الصحابة، عن أبي بكر الصديق.

(٢) انظر كتابنا: الرسول والعلم صـ ٤٧ ـ ٥٢، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

في بعض بلاد الخليج توقفت الحياة في نصف المدينة الكبيرة لأن إحدى ماكينات الكهرباء الكبرى توقَّفت، ولا يوجد مَن يصلحها. لا بد من خبير من بلادها التي صنعتها، ومن المصنع الذي صدَّرها!

التكنولوجيا لا تشترى من الخارج، وإنما تُصنع في الداخل.

قلتُ في عدد من كتبي ولا أزال أقول وأكرِّر: إن أمة «سورة الحديد» لم تتعلم بعدُ صناعة الحديد. فقد قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقوله: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، إشارة إلى الصناعات الحربية، وقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾. إشارة إلى الصناعات المدنية. ونحن للأسف لم نتقن أيًّا منهما.

لقد صنع الغرب «الكومبيوتر» وطوَّر أجيالًا منه، جيلًا بعد جيل، حتى وصل اليوم إلى ما وصل إليه من مُكْنة وقدرة وسرعة، مع صغر الحجم وقلة النفقات، ولا يزال يبدع ويطوِّر ويحسِّن. ونحن العرب إلى اليوم مختلفون في مجرد تسميته: أهو العقل الإلكتروني، أم الدماغ الإلكتروني، أم الحاسب الآلي، أم الحسَّابة أم المحساب أم الحاسوب؟!

لقد ذكرتُ في كتاب «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» الشروط اللازمة للخروج من سجن التخلُّف، والدخول في عصر التكنولوجيا المتقدمة. وهي شروط بعضها يتعلَّق بالأصالة، وبعضها يتعلق بالمعاصرة، وبعضها يتعلق بكلتيهما.

ولا أود أن أعيد ما كتبته، ولكن أنبه عليه للرجوع إليه في موضعه، إن كنا جادين حقًّا، أن ندخل العصر، ونلحق بالركب، ونسدَّ الفجوة بيننا وبين عالم اليوم.

QaradawiBooks.com

إن الـــذي نحن فيه لا يمثـــل أصالـــة، ولا يمثل معاصـــرة. إنه التيه والضياع.

إن أصالتنا الإسلامية والعربية لا يُتصور بحال أن تكون حائلًا بيننا وبين التقـــدم العلمـــي والتكنولوجي، كمـــا توهم كتابـــات بعـــض «المتطرفين» العلمانيين، الذين يلهثون جاهدين للبحث عن نقطة ضعف فيما يكتبه بعض الإسلاميين. فإذا عثر على ذلك في كتاب مغمور، أو مقال في صحيفة أو نحو ذلك، طار به كل مطار، واتخذ منه حُجَّة لتوهين الموقف الإسلامي كله.

لقد زعم من زعم من هؤلاء: أن الإســـلاميين يعتمـــدون ـ في بيان موقفهم من العلم ـ على فكرة الإعجاز العلمي فـــي القرآن، ويتمحَّلون لذلك تمحُّلات كثيرًا ما تكون متعسفة وممجوجة.

وتصوير الموقف الإســـلامي بمثل هذا غير عادل، وغير صحيح. فقد ذكرنا من الوجوه الموجبة لأخـــذ العلم المعاصر من أي وعاء كان، ما فيه الكفاية. ونزيد على ذلك أن الإسلام يدعو إلى العلم بأكثر من أسلوب في قرآنه وسُـــنَّته، وينشـــئ «العقلية العلمية» التي ترفض الخرافات والأوهام والعواطف، وتطالب بالنظر والتفكير والتدبر، وتنكر التقليد والجمود على ما كان عليه الآباء، أو الســـادة الكبراء، وتحكِّم البرهـــان والدليل في كل شيء: الدليل المنطقي العقلي في العقديَّات والعقليَّات، ودليل المشاهدة في الحسيَّات والتجريبيات، والتوثيق النقلي في المسموعات والمرويات.

وهذا ما فصَّلنـــاه في كتبنا، وأقمنا عليه الأدلَّة مـــن كتاب الله تعالى، ومن سُنَّة رسوله ﷺ[1].

(١) انظر في ذلك كتابينا: الرسول والعلم صـ ٤١ ـ ٦٤، فصل: الرسول والعلم التجريبي، والإسلام والعلمانية صـ ٥٧ وما بعدها، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

إن أصالتنا الإســـلامية هي التي تهيئ لنا أفضل مناخ نفسي وعقلي، يمكن أن تزدهر فيه نهضة علمية تكنولوجية راسخة، يقوم عليها مجتمع يرى هذه النهضة عبادة وفريضة وضرورة. وهذا المناخ هو الذي ترعرعت في ظلاله حضارتنا العربية الإســـلامية، التي مزجت بين الدين والدنيا، وجمعت بين العلم والإيمان، ووصلت الإبداع المادي بالسمو الروحي والخُلُقي.

وهذا ما يجـــب أن نحرص عليه حين نســـعى للحصـــول على علم العصر وتكنولوجيا العصر: أن نربط ذلك بقيم الإيمان والدين والأخلاق، حتى لا يكون العلم معول دمار، بل أداة عمار، وألا يعين الإنســـان على عمـــارة دنياه بخراب آخرته، وإشـــباع شـــهواته البهيميـــة، بجوع روحه الإنسانية.

٣ ـ النظرة المستقبلية:

ومن مقتضيات المعاصرة: ألا يستسلم الإنسان لظروف حاضره، بل يتطلَّع دائمًا إلى المســـتقبل. ومهما يضغط عليه الواقـــع بهمومه الآنية، ومشكلاته اليومية، وجراحه المســـتمرة في النزيف، فإنه يرنو إلى الغد، ويستشرف المســـتقبل، يعدُّ له العدة، ويأخذ له الحيطة، محاولًا أن يسدَّ ما يتوقَّع من ثغرات، وأن يعالج ما يطرأ من آفات، وأن يغرس نواة اليوم لتصبح نخلة أو شجرة زيتون بعد سنوات، وأن يفكِّر ماذا سيواجه الأبناء والأحفاد في الأجيال القادمة، وما الأخطار التي ترتقبهم؟ والآمال التي يرتقبونها؟ وهل في الإمكان أن ندَّخر من يومنا لغدنا، أو لغد ذرارينا من بعدنا، وأن نقيَهم بعض ما أصابنا من محن؟ وما غشـــينا من فتن؟ وما حلَّ بنا من كوارث لم نأخذ لها الأُهبة؟

QaradawiBooks.com

وهل يمكن للإنسان أن يطمح إلى مستقبل تغلب فيه الآمال يأس اليائسين، وتجف فيه دموع البائسين، وينتصر فيه الخير على الشر، والعدل على الظلم، والرخاء على الفقر، والعلم على الجهل، والتسامح على التعصب؟

إن من سمات عصرنا التطلُّع إلى مستقبل ومحاولة استشفافه، أو توقع ما يمكن أن يحدث فيه، لا عن طريق الكهانة والتنجيم، بل عن طريق الدراسة والرصد، وبناء النتائج على المقدمات، والمسببات على الأسباب، كما تفعل «الأرصاد الجوية» بالنسبة للرياح والأمطار والحرارة والبرودة.

يقول الدكتور المهدي المنجرة وهو أحد المهتمين البارزين من العرب بهذا اللون من الدراسة: «إن الدراسات الاستقبالية تُعد ظاهرة حديثة النشأة تعود إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، وأول مَن باشرها مؤسسة «راند» بناء على طلب البنتاجون في عام ١٩٤٧م، ولم تشهد انطلاقتها الحقيقية إلا مع نهاية الستينات»[١].

وقد تتبَّع زكي نجيب محمود في مقاله «المستقبل المحسوب» بدايات الاهتمام بهذه الدراسات منذ مطلع القرن العشرين. وتحدث قسطنطين زريق في كتابه «نحن والمستقبل» عن هذا النمط العلمي الريادي المعاصر في الاهتمام المستقبلي، الذي يتميز بصفته العلمية، وبتمسكه بالمنطق الاختباري، وبأنه جهد جماعي رآه ينتسب إلى عالمنا المعاصر.

ويعلق الدكتور أحمد صدقي الدجاني في بحثه القيم: «دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة» بقوله: «واضح أن ظهور الدراسة المستقبلية

(١) الحرب الحضارية الأولى د. المهدي المنجرة صـ ١٧٣، نشر مكتبة الشروق، ط١، ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

بمعناها الحديث وثيق الصلة بثـورة العلم التقني التي تفجَّرت في عالمنا المعاصر هذا، وأثمرت ثورة في الاتصال، وثورة في المعلومات، وأحدثت تحولات وتحولات. وقد أورد «هوج ستيوارت» في كتابه «تذكّر المستقبل» تسعة تحولات تحدَّثت عنها «جون نيسبت» عام ١٩٨٢م، وسماها توجهات عظمى «تحول من مجتمع صناعي إلى مجتمع معلوماتي، انتقال من انقياد للتقنية إلى اسـتجابة إنسـانية لها، انتقال من ضيق الاقتصاد القومي إلى شـمول الاقتصاد العالمي، تحول مـن المركزية إلـى اللامركزية، تزايد الاعتماد على الـذات في مقابل الاعتماد على المؤسسـات، التحول من ديموقراطية الإنابة إلى ديموقراطية المشـاركة، تحول من نظام هرمي إلى نظام شبكي، انتقال من مناطق صناعية إلى مجتمعات جديدة، تحوُّل من مجتمع خيارات محدودة إلى خيارات عديدة»[1].

ولما كانت ثورة العلـم التقني قد تفجَّرت في الغـرب، فإن ظهور الدراسة المسـتقبلية بمعناها الحديث بدأ هناك. وقد أولتها عناية خاصة المؤسسـات العسكرية والشـركات متعددة الجنسـيات عابرة القارات. وهكـذا بدت الصلـة وثيقة بين الدراسـات المسـتقبلية والدراسـات الاستراتيجية.

كان طبيعيًّـا أن يجـرى بحث عن اسـم يُطلـق على هذه الدراسـة المسـتقبلية التي ظهرت بمعناهـا الحديث، وأن يجتهد المشـتغلون بها فيطلقوا عليها هذا الاسم أو ذاك؛ وهكذا ظهر اسم «المستقبلية»، ولم يلبث «جاستون بيرجر» الفرنسي أن سماها عام ١٩٦٠م «علم الريادة». ثم استخدم

(١) دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة مجلة المسـلم المعاصر صـ ١١٦، ١١٧، السنة السادسة عشرة، العدد (٦٢)، ربيع ثان ـ جمادى ثانية ١٤١٢هـ ـ نوفمبر ١٩٩١م ـ يناير ١٩٩٢م.

QaradawiBooks.com

«أوسيب فليشتم» الألماني عام ١٩٦٦م اسم «علم المستقبل» في كتابه «علم التاريخ وعلم المستقبل»، وهناك من سمَّاها «علم حساب المستقبل».

وإن كان الدكتور الدجاني يتحفَّظ على اعتبار ذلك علمًا، بل يراه استشرافًا وتشوفًا ورؤية؛ فهل يتسع صدر الإسلام ـ عقيدة وشريعة وفكرًا ـ لهذا النوع من التوجه المستقبلي؟ أو يضيق به ويغلق الباب دونه؟

إن كثيرًا ممن لم يتعمقوا في فَهم الإسلام يحسبون أن الدين عامة ـ والإسلام خاصة ـ لا يرحِّب بالنظرة المستقبلية، التي تستوجب استشراف الغد، والتخطيط له، والإعداد لما عسى أن تتخمض عنه الليالي والأيام.

وذلك لأن الدين ـ في نظرهم ـ يربط الإنسان بماضيه وتراثه، الذي غالبًا ما يُنظر إليه نظرة فيها لون من «التقديس»، الذي يحيله إلى «قفص» يحول دون حركته وانطلاقه، وإن كان في نظره قفصًا من ذهب! أما المستقبل فهو بيد الله، وهو غيب لا يعلمه إلا الله. ولا دخل للإنسان في توجيهه. وإنما يفرضه عليه القدر الأعلى من فوق، دون أن يكون له كسب أو اختيار.

هكذا يفكر بعض المتدينين، وخصوصًا العوام، وأشباه العوام. وأقصد بأشباه العوام كثيرًا من الجامعيين، وكبار المتعلمين، الذين لا يتميزون كثيرًا في أفكارهم الدينية عن العوام والأميين، وإن كانوا في تخصصاتهم من المرموقين، الذين قد يُشار إليهم بالبنان!

وهذا اللون من التفكير هو الذي يعتمد عليه جماعة العلمانيين في تصوير النظرة الإسلامية للمستقبل.

ومن أراد أن يعرف النظرة الإسلامية للمستقبل فليعرفها من القرآن الكريم والسُنَّة النبوية. كما أوجزتُ بيان ذلك في بعض كتبي[1].

(١) أولويات الحركة الإسلامية صـ ١٢١ ـ ١٢٤، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت.

QaradawiBooks.com

القرآن الكريم والمستقبل:

فالمتدبر للقرآن الكريم يجده منذ العهد الملكي يوجه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول، والمستقبل المرتجى، ويبين لهم أن الفلك يتحرك، والعالم يتغير، والأحوال تتحول، فالمهزوم قد ينتصر، والمنتصر قد يُهزم، والضعيف قد يقوى، والدوائر تدور، سواء أكان ذلك على المستوى المحلي أم العالمي.

وعلى المسلمين أن يهيئوا أنفسهم، ويرتبوا بيتهم لما يتمخض عنه الغد القريب أو البعيد، فكلٌّ آتٍ قريب.

نقرأ سورة «القمر» المكيَّة، فنجد فيها قول الله تعالى عن المشركين، وهم أولو القوة والشوكة، والعدد والعدة: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۞ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥ ـ ٤٦].

ذكر ابن كثير في تفسيره، عن ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾. قال عمر: أيُّ جمع يُهزَم؟ أي جمع يُغلَب؟ فلما كان يوم بدر رأيتُ رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، فعرفت تأويلها يومئذ[1].

وروى البخاري، عن عائشة قالت: نزل على محمد ﷺ، بمكة، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[2].

فكان المقصود بهذه الآية وأمثالها تهيئة الذهنية المسلمة، والنفسية المسلمة، للتغير الحتمي، والغد المرتقب.

(١) تفسير ابن كثير (٤٨١/٧، ٤٨٢).

(٢) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وعلى المستوى العالمي نجد آيات الكتاب العزيز تتحدَّث عن ذلك الصراع، التاريخي بين الدولتين العظميين: فارس والروم ـ وقد كان صراعًا اهتمَّ له الفريقان في مكة: المسلمون والمشركون ـ فتبشِّر الآيات الجماعة المؤمنة بأن المستقبل للروم من أهل الكتاب، على الفرس المجوس عباد النار، وأنهم ـ وإن غُلبوا اليوم ـ سيَغلبون في بضع سنين، وفي هذا تقول السورة جازمة: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

هذه الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى تدلُّنا على أمرين:

أ ـ مدى وعي المجموعة المسلمة ـ على قلَّتها وضعفها المادي ـ بأحداث العالم الكبرى، وصراع العمالقة من حولها، وأثره عليها إيجابًا وسلبًا.

ب ـ تسجيل القرآن لهذه الأحداث، وتوجيه النظر إلى عوامل التغير، والانتقال من الواقع إلى المتوقَّع في ضوء السنن.

وفي سورة المزمل المكينة نقرأ الآية الأخيرة من السورة التي تتضمَّن تخفيف الله عن نبيه ﷺ، ومَن معه في قيام الليل وقراءة القرآن، لما ينتظرهم من مهام جسيمة في المستقبل، فسيواجهون أعداء يقاتلونهم ويصدونهم عن سبيل الله، فليوفروا بعض قوتهم لهذا اللقاء المفروض عليهم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

QaradawiBooks.com

وفي القرآن آيات كثيرة تتحدَّث عن المستقبل، حاملة البشرى والأمل للأمة بظهور الدين، والتمكين له، واستخلاف أهله في الأرض، وبروز آيات الله في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبيَّن الحق.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَا ﴾ [النمل: ٩٣]، ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

الرسول والمستقبل:

وفي السنة النبوية أحاديث جمة تتحدث عن المستقبل كذلك، وهي التي تذكر عادة في أبواب «الفتن» و«الملاحم»، و«أشراط الساعة».

والانطباع العام عند كثيرين عن هذه الأحاديث أنها توحي بالتشاؤم واليأس من المستقبل، وانتصار الشرِّ على الخير، والضلال على الهدى. وهو انطباع لا يقوم على استقصاء هذه الأحاديث وتأملها، وموازنة بعضها ببعض، كما أنه يغفل «المبشرات» التي تحدثت عن انتصار الإسلام وانتشار دعوته، واتساع دولته، وعودة خلافته، وهي جملة من الأحاديث الصحاح.

والقارئ المتأمل لسيرة رسول الله ﷺ، يتبين له أنه لم يكن غافلًا عن مستقبل دعوته، بل كان يفكِّر فيه، ويخطِّط له، في حدود ما هيَّأ الله له من فرص، وما آتاه من أدوات وأسباب.

QaradawiBooks.com

ويكفي أن نقرأ عن جهده ونشاطه ﷺ، في مواسم الحج التي تجمع ممثلين من جميع قبائل العرب، وكيف كان عليه الصلاة والسلام، يعرض دعوته عليهم، ويطلب نصرتهم، ويعدهم بوراثة ممالك كسرى وقيصر، ليعلم إلى أي أفق كان يرنو بصره ﷺ.

وكان الرسول الكريم ـ وهو في مكة وأتباعه قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ـ مؤمنًا بمبدأين أساسيين:

الأول: أن هذا الواقع لا بد أن يزول، لأنه يحمل عوامل زواله، وأن البديل له هو الإسلام، وأن ليل الجاهلية الحالك والجاثم سيعقبه فجر صادق، وما على المؤمنين إلا أن يصمدوا ويصبروا ولا يستعجلوا الثمرة قبل إبانها.

لما اشتد الأذى بالصحابة في مكة ـ وخصوصًا المستضعفين منهم ـ جاء خباب بن الأرت إلى رسول الله ﷺ، يشكوا إليه ويستنجد به، وهو متوسِّد رداءه في ظلِّ الكعبة. فقال بلسانه ولسان المعذبين من أمثاله: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتي بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين! ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه! والله لَيُتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[1].

يؤيد ذلك ما قاله عليه الصلاة والسلام لسراقة بن مالك في رحلة الهجرة، وهو مطارد

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٢)، عن خباب بن الأرت.

QaradawiBooks.com

مباح الدم: «**كيف بك إذا ألبسك الله سواري كسرى؟**»[١]، وتبشيره لأصحابه بفتح فارس والروم، وهو محاصر يحفر الخندق[٢]!

الثاني: أن هذا المستقبل المنشود إنما يتحقق وَفق سنن الله في رعاية الأسباب، وإعداد المستطاع من العدة، وإزاحة العوائق من الطريق، وترك ما عدا ذلك للإرادة الإلهية، فما يعجز عنه البشر لا تعجز عنه القدرة المطلقة[٣].

الخلفاء الراشدون والمستقبل:

ومن تأمَّل في سيرة الصحابة، وخصوصًا الخلفاء الراشدين، استبان له من وقائع شتى اهتمامهم بالمستقبل وتفكيرهم فيه، واحتياطهم له.

وهذا ما حفزهم إلى جمع القرآن في عهد أبي بكر ﷺ، لما استحرَّ القتل بالقرَّاء في معركة اليمامة من حروب الردة، حتى قيل إن سبعمائة منهم قد استشهدوا في ذلك اليوم، فأشار عمر على أبي بكر بذلك الجمع، مخافة أن يموت أشياخ القرَّاء، كأُبي وابن مسعود وزيد بن ثابت ﷺ. وتردَّد أبو بكر في أول الأمر، ثم شرح الله صدره لتنفيذ ما اقترحه عمر ﷺ. وتم تكليف زيد بن ثابت ﷺ، بالقيام بهذا الأمر[٤]. وكان من توفيق الله تعالى، ومن أسباب حفظ القرآن وصيانته

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٤١٢/٢)، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، نشر دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) رواه النسائي في الجهاد (٣١٧٦)، وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٢٩٧٦)، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) راجع ما ذكرناه عن التخطيط للهجرة، في حديثنا عن: عصر العلم والتكنولوجيا.

(٤) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٧٩)، عن زيد بن ثابت.

QaradawiBooks.com

مما أصاب الكتب السماوية السابقة. تحقيقًا لوعد الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ونحو ذلك ما فعله الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، في جمع الناس على مصحف واحد، يقرأ بحرف واحد، وإلغاء كل المصاحف الشخصية التي كتبها بعض الصحابة مشتملة على تعليقات وتفسيرات.

وإنما فعل عثمان ذلك، لأن الناس اختلفوا في القراءات، بسبب تفرق الصحابة في البلدان، واشتد الأمر في ذلك، وعظم اختلافهم وتشبثهم، ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة بن اليمان حين اجتمعوا في غزوة أرمينية، فقرأت كل طائفة بما رُوى لها، فاختلفوا وتنازعوا، وأظهر بعضهم إكفار بعض، والبراءة منه، فأشفق حذيفة مما رأى منهم، فلما قدم إلى المدينة دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته، فقال: أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك! قال: في ماذا؟ قال: في كتاب الله. ووصف له ما رأى وما سمع، وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفوا كما اختلف اليهود والنصارى! وقد شاور عثمان الصحابة بما فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فوافقوا على رأيه في أن يجتمع الناس على قراءة فإنهم إذا اختلفوا اليوم كان من بعدهم أشد اختلافًا[1].

ومن أبرز دلائل الفكر المستقبلي عند الصحابة: موقف عمر من سواد العراق بعد فتحه، ورفضه تقسيمه على الفاتحين، وَفقًا لما فهمه أكثرهم من آية سورة الأنفال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...﴾ [الأنفال: ٤١].

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨٧، ٤٩٨٧)، عن أنس.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وتوقَّف عمر ومعه من فقهاء الصحابة، أمثال: علي ومعاذ، وكان تفكير عمر في الأمر منصبًا على المستقبل، مستقبل الأجيال المسلمة التي ينتظر أن تطـرق أبواب الحياة: ماذا يبقـى لتحقيق مطالبها وسـد حاجاتها، إذا اسـتولى هذا الجيـل المحظـوظ على تلـك الغنائم الهائلـة؟ وجيوش المسلمين وثغورهم ومصالحهم العامة، من أين ينفق عليها في المستقبل؟!

لقد قال عمر بصراحة للصحابة المطالبين بالتوزيع: أتريدون أن يأتي آخر الناس، وليس لهم شيء؟!

ولهذا رأى هو ومن معه مـن الصحابة وقف رقبـة الأرض لصالح أجيال الأمة، على أن تبقى في يد أربابها، ويفرض عليها خراج مناسب لمصلحة بيت المال أو الخزانة الإسلامية العامة. وعلَّل عمر ذلك بقوله: إني أردتُ أمرًا يسع أول الناس وآخرهم. وكذلك قال معاذ[1].

وأعانه على إقناعهم ما فهمه من آيات توزيع الفيء في سورة الحشر، حيث أشـركت فيه الجيل الحاضر من المهاجرين والأنصار، ثم ألحقت بهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وبهذا بيَّن عمر ومن معه أن الأمة متكافلة في سائر أزمانها، كما هي متكافلة في سائر أقطارها، تكافل زماني، وتكافل مكاني؛ لا يجوز لجيل أن يأكل وحده حقَّ الأجيال اللاحقة.

(١) انظر: الأموال لأبي عبيد صـ٩١ ـ ٩٣، تحقيق خليل محمد هراس، نشر دار الفكر، بيروت، والاسـتخراج لأحكام الخراج لابن رجب صـ ١٦، نشـر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، وانظـر كتابنا: فقه الزكاة (٤١٤/١، ٤١٥)، نشـر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢٥، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

أصناف الناس أمام الماضي والمستقبل:

والناس أمام الماضي والمستقبل ـ أو التراث والعصر ـ ثلاثة أصناف: طرفان وواسطة:

الصنف الأول: الموغلون في الماضوية:

ماضويون تراثيون موغلون في الماضوية، لا يكادون يرنون إلى الأمام، أو المستقبل، أو يتعمقون في الحاضر، فهم مشدودون أبدًا إلى الخلف، سجنوا أنفسهم داخل قضبان التراث، ولا يتصورون العيش في الحاضر أو المستقبل، إلا باجترار التراث كله، بجزئياته وتفاصيله، وخصوصًا فيما يتعلق بالتشريع والتوجيه والسلوك. وهم ينسبون موقفهم إلى الدين!

من سمات هؤلاء:

(أ) أنهم يضفون لونًا من القداسة على التراث، فهو حق كلُّه، خير كلُّه، صواب كلُّه، مع أن الدراسة المنصفة للتراث تؤكد أنه لا يخلو من الباطل في الاعتقادات، والشرور في الأفعال، والخطأ في الآراء والأقوال.

وقد كان في عصر النبوة منافقون حدثنا عنهم القرآن في عدد من سوره، وكان فيه مَن أقيم عليه الحد، ومَن ذمَّه الله ورسوله.

وكان في عصر الصحابة من الفتن ما هو معلوم، وإن كنا لا نجحد فضل هذا العصر في عمومه وجملته.

(ب) وهم يسرفون في ردِّ كل جديد إلى قديم من التراث، وإن لم يقم على ذلك برهان، فنظرية «التطور» توجد عند علماء المسلمين، مع الاختلاف البين بين ما ذهب إليه المسلمون، وما ذهب إليه «داروين»

QaradawiBooks.com

ومَن تبعه. والطب الحديث يوجد عند الرازي وابن سينا، وعلم الاجتماع المعاصر لا يخرج عن ابن خلدون، إلى غير ذلك من المبالغات التي يدفع إليها حماس يضيع الحقائق.

ونحو هذا من يتمحَّل لردِّ النظريات العلمية الحديثة إلى آيات من القرآن الكريم، مع أن القرآن الكريم في غنى عن هذا التمحُّل.

(جـ) وهم يعتبرون كل زمن شرًّا مما قبله، إلى أن تقوم الساعة، بناء على ظواهر بعض الأحاديث، التي يفهمونها فهمًا حرفيًّا، رغم مخالفتها لنصوص أخرى، وللواقع التاريخي أيضًا[1].

(د) ومنهم مَن يتعلق بالصورة والشكل عند السلف، لا بالروح والجوهر، وبأعمال الجوارح لا بأعمال القلوب، وبالآداب الظاهرة، لا بالعبادات الباطنة فأكبر همه تقصير الثوب، وإطالة اللحية، وعدم الأخذ منها، وإحفاء الشارب، والأكل باليد، لا بالملعقة والشوكة، والأخذ بالأقوال الجزئية للسلف، لا بمنهج الاجتهاد والتفكير عندهم.

وهؤلاء قلة قليلة، وإن كان لهم وجود في الساحة العربية والإسلامية، وآفتهم قصور فَهمهم للدين وللعصر جميعًا، فقد جمدوا عند أفكار معينة في الدين، وأقوال محدَّدة في التراث، انتهت بهم إلى الوقوف عند صورة الدين لا حقيقته، وشكله لا جوهره، وتمسكوا بظواهر النصوص وحرفيَّتها، لا بمقاصدها وأهدافها.

(١) مثل حديث: «**لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه**». رواه البخاري في الفتن (٧٠٦٨)، عن أنس. وانظر: تعليقنا على الحديث في كتابنا: كيف نتعامل مع السنة النبوية صـ ١٠٥، نشر دار الشروق، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٨م.

QaradawiBooks.com

حتى سألني بعض الطلاب والطالبات في جامعة قطر عن أناس ينتقلون من جنوب قطر إلى شمالها، للدعوة وتبليغ رسالة الإسلام إلى الناس، ولكنهم أبوا إلا أن يذهبوا مشيًا على أقدامهم، وأمتعتهم على ظهر جمل يصحبونه في رحلتهم، ولما سئلوا: لماذا لم تركبوا السيارات وهي متاحة؟ قالوا: نحن نتبع السنة في الدعوة!

هل هذا متصور؟!

وهذا يذكرني بما حكاه لي بعض الإخوة في بعض البلاد العربية أن داعية من هذا النوع وقف يومًا يقول: الحمد لله الذي سخر لنا الكفار من الإفرنج وغيرهم، يقدمون لنا العلم والتكنولوجيا لنتفرَّغ نحن لعبادة الله تعالى وطاعته!

وجهل المسكين أن تخلفنا في مضمار العلم والتكنولوجيا، يعتبر جريمة في نظر الإسلام، لأننا لم نُعِد ما استطعنا من قوة، ولم نقُم بحقِّ فرض الكفاية، في إتقان كل علم به قوام الدين أو الدنيا، كما قرَّر علماؤنا من قبل. وغدونا في كثير من الأمور عالة على غيرنا من هؤلاء «الكفار»! فأضعنا واجبات كثيرة، لأنا أضعنا وسائلها ومقدماتها اللازمة لها، والتي قال فيها علماؤنا: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

إن هذا الصنف من «الماضويين» أو «التراثيين» غائبون عن العصر وإنجازاته وتياراته، وكأنما خرجوا لتوهم من مقابر دفنوا فيها منذ خمسة قرون، مع أن بعضهم قد يكون خريجًا في أحدث الجامعات العصرية، وربما كان مهندسًا أو طبيبًا، أو صيدليًّا، أو محاسبًا، أو محاميًا، أو غير ذلك مما تفرزه جامعات عصرنا فهو عصري الشهادة، ماضوي الفكر.

QaradawiBooks.com

الصنف الثاني: المغرقون في المستقبلية:

مستقبلون مغرقون في المستقبلية، لا يكادون يلتفتون إلى الوراء، إنما ينظرون أبدًا إلى الأمام. يرون أن الإنسان يتطوَّر دائمًا إلى ما هو أحسن وأمثل، فلماذا العودة إلى الخلف، أي إلى الماضي أو التراث، أو التاريخ؟ نحن أبناء اليوم والغد، لا أبناء الأمس. فلماذا التشبث بالأمس، واعتباره أفضل من اليوم؟ ولماذا التمسك بالتراث إلى حدِّ التقديس؟

أهم ما لدى الإنسان عند هؤلاء هو المخيلة، إذ كان أهم ما في الإنسان عند الأولين هو الذاكرة. كأنما يريدون أن يلغوا الماضي من الزمن، و«أمس» من اللغة، والفعل الماضي من الكلام، ويحذفوا الوراء من الجهة، والذاكرة من الإنسان.

التراث عندهم متَّهم، والماضي لديهم مبغَّض، والسلف في نظرهم مجرَّحون، وتاريخ الأمة ظلمات بعضها فوق بعض.

هم مع التراث كما قال الشاعر في جيران سوء له:

إن يسمعوا الخير أخفوه، وإن سمعوا شرًّا أذاعوا، وإن لم يسمعوا كذبوا![1]

ما في هذا التاريخ أو هذا التراث من حسنات وإنجازات علمية وحضارية وأخلاقية، منسي أو مسكوت عنه، وما فيه من فتن وانحرافات، لا يخلو منها تاريخ بشر، ينظرون إليه من خلال «ميكروسكوب» يضخم الصغير حتى يجعله كبيرًا.

(١) البيت لابن المطهر الحموي، كما في مجمع الآداب لابن الفوطي (٧١/٥)، تحقيق محمد الكاظم، نشر مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، ط١، ١٤١٦هـ.

QaradawiBooks.com

لقد رأينا من هؤلاء من يهاجم «السلف الصالح» ويتهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، بتخريب الدولة الإسلامية، لجهله بشؤون الإدارة والسياسة[١]!

رأينا من هؤلاء مَن سخر من كلِّ مَن يكشف عن إنجاز علمي أو حضاري حقيقي ـ غير متمحل ـ سبق به العرب والمسلمون، ومَن يردِّد مع المستشرقين المتحاملين: أن المسلمين لم يكن لهم فضل ولا أصالة في علم ولا عمل ولا فن ولا أدب.

فعلومهم وفلسفتهم منقولة عن اليونان، وفقههم متأثر بتشريع الرومان، ونظمهم مقتبسة من الفرس، وحضارتهم خليط مركب من الأمم السابقة.

والإسلام ـ بعقيدته وشريعته وأخلاقه ـ محسوب على هذا الماضي، أو هذا التراث، فهو لا يصلح لهذا العصر، وليس كما يقول المشايخ والدعاة: إنه صالح لكل زمان ومكان. وكيف تصح هذه المقولة مع تغير الزمان. واختلاف المكان، وتطور الحياة والإنسان؟

على الإسلام أن يخلى مكانه لأفكار العصر و«أيديولوجيات» العصر، وإن كان لا بدَّ من بقائه، فعليه أن يبقى محصورًا في حنايا الضمائر، بوصفه علاقة بين الإنسان وربِّه، فإن سمح له بالخروج منها، فليكن في حدود دور العبادة «الموجهة» التي لا تتدخل في أمور الحياة، وسياسة الأمة، إذ لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة!

(١) هذا ما كتبه حسين أحمد أمين في بعض الصحف القاهرية، وانظر: ردنا عليه في كتابنا: فتاوى معاصرة (٧٩٢/٢ ـ ٨٠٢)، تحت عنوان: خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز هل كان جاهلًا بالسياسة؟

QaradawiBooks.com

ومن هؤلاء مَن يسمح للإسلام بدخول العصر، بشرط أن تعاد قراءته، ويعاد تفسيره من جديد، دون تمييز بين الثوابت والمتغيرات، أو بين منطقة القطعيات ومنطقة الظنيات. فهم يرون أن «يتعصرن» الإسلام، لا أن يسلم العصر، ويطالبون الإسلام أن يتطوَّر، ولا يطالبون التطوُّر أن يُسلم.

والصنف الثالث: دعاة الوسطية:

هم الذين سلموا من إفراط الأولين وتفريط الآخرين، وهداهم الله إلى الموقف الوسط، وهم الذين قال فيهم الإمام علي رضي الله عنه: عليكم بالنمط الأوسط الذي يلحق به التالي، ويرجع إليه الغالي[1].

إنهم يجتهدون أن يقيموا الموازين القسط بين عناصر الزمن كلِّه، الماضي والحاضر والمستقبل، فهم يعتبرون بالماضي، ويعايشون الحاضر، ويستشرفون المستقبل.

يفرقون بين الإسلام والتراث، فالإسلام كلمة الله العليا، وأمره الذي لا يعصى، والتراث صنع البشر، ونتاج عقولهم وإرادتهم، حتى التراث الديني نفسه، هو عمل العقل الإسلامي.

يعلمون أن الخطأ البين: اعتبار الإسلام ماضيًا، فالإسلام هو الماضي والحاضر والمستقبل جميعًا.

إنهم لا يرفضون القديم لمجرد قدمه، ولا يعيشون الحديث لمجرد حداثته؛ بل يستمسكون بكلِّ قديم نافع، ويرحبون بكلِّ حديث صالح.

إنهم ينكرون على الفريق الأول جمودهم على كل قديم، وعلى الفريق الآخر انفتاحهم على كل حديث. وفي كل من القديم والحديث

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٣٩).

QaradawiBooks.com

خير وشـــر، وصواب وخطأ، وصلاح وفســـاد. والموقف المقبول شرعًا وعقلًا هو القصد إلى اجتناب الشـــر والخطأ والفساد، وتحرى الوصول إلى الخير والصواب والصلاح، بغض النظر عن قدم ذلك أو حداثته.

ثم إن القدم والحداثة أمران نسبيان، فرب حديث عند قوم يعتبر أمرًا قديمًا كل القدم عند غيرهم، على أن الحديث لا يبقى حديثًا أبد الدهر، فقديم اليوم كان حديث الأمس، وحديث اليوم سيصبح قديم الغد.

وقد كان من قبلنا ـ على عكس الســـائد اليوم ـ يعظمون القديم، ولا يحتفلون بالحديث، ويرون الأقدمين أعلى مكانة من المحدثين، والأوائل أفضل أبدًا من الأواخر. فقال أحد الشعراء ناقدًا هذا التوجه[١]:

قل لمـــن لا يرى المعاصر شـــيئًا ويـــرى للأوائـــل التقديمـــا
إن هـــذا القديـــم كان حديثًـــا وسيمســـي هذا الحديـــث قديمًا

إن هذا الفريق من دعاة الوسطية يرحبون بالتطور والتجديد في الحياة والمجتمع، بل في الدين نفســـه، الذي نوَّه رســـوله بـ «المجددين» فيه، الذين يبعثهم الله في كلِّ قرن لهذه الأمة: «ليجددوا لها دينها»[٢].

فهم يقامـــون الجمود البليـــد، ويحاربـــون التقليـــد، ويدعون إلى الاجتهاد، ويؤمنون بتطور العلم والفكر. إنهم يؤمنون أن الثبات والتغير

(١) البيتان لابن شـــرف القيرواني، انظر: المحاضرات والمحاورات للســـيوطي صـ٢٥٣، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.

(٢) رواه أبـــو داود في الملاحـــم (٤٢٩١)، والطبراني في الأوســـط (٦٥٢٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٢٢/٤)، وســـكت عنه ولكن نقل تصحيحه المناوي فـــي فيض القدير (١٨٤٥)، فلعله سقط من المطبوع، وسكت عنه الذهبي. عن أبي هريرة.
انظر: بحثنا حول هذا الحديث في كتابنا: من أجل صحوة راشدة صـ ١١ وما بعدها، فصل: تجديد الدين في ضوء السنة، نشر دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

ظاهرتان متجاورتان من ظواهر الكون والحياة والإنسان. فكل منها فيه الثابت والمتغير، وإن كان الملاحظ أن الجوهر ثابت، والأعراض هي المتغيرة أبدًا.

كما أنهم يعلمون أن التطور أو التغير ليس دائمًا إلى الأحسن والأمثل، فكثيرًا ما يكون من حسن إلى سيئ، ومن سيئ إلى أسوأ. وهذا ما يشهد به التاريخ، وما يصدقه الواقع. فالتطور لا يقتصر على الجانب العلمي والمعرفي، الذي يتقدم باستمرار، بل يشمل جوانب الإيمان والقيم والسلوك أيضًا. لهذا يرحبون بالتطور إذا كان ارتقاء إلى ما هو أفضل، وينكرونه إذا كان في جهة الهبوط والانحدار.

كما أنهم يميزون بين الثوابت والمتغيرات، بين ما يقبل التجديد والاجتهاد والتطور وما لا يقبله. فهم يدعون إلى الثبات في المقاصد والغايات، وإلى المرونة والتطور في الوسائل والآلات، الثبات في الأصول والكليات، والمرونة والتطور في الفروع والجزئيات، الثبات في دائرة القطعيات والمحكمات، والمرونة والتطور في محيط الظنيات والمتشابهات، الثبات في حقائق الدين، والمرونة والتطور في أمر الدنيا[1].

هذا الفريق من دعاة الوسطية الإسلامية يؤمنون بالعقيدة أساسًا، وبالعقل نبراسًا، وبالشريعة منهاجًا، وبالأخلاق سياجًا، وبالاجتهاد مذهبًا، وبالتجديد مشربًا، وبالعلم مركبًا، وبالانفتاح على العالم دون ذوبان، وبالتمسك بالأصول دون جمود على كل ما كان.

(١) انظر كتابنا: الخصائص العامة للإسلام صـ ٢١٣ ـ ٢٥٨، فصل: الجمع بين الثبات والمرونة.

QaradawiBooks.com

يؤمنون بما نقله العلامة ابن عبد البر النمري: «ليس هناك كلمة أضر بالعلم والعلماء من قول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئًا!»[١]، فكم ترك الأول للآخر، وكم في الإمكان أبدع مما كان. وهو ما شهدت به العصور والأزمان. ويرددون معه قوله: «وليس هناك كلمة أحض على طالب العلم من قول الإمام علي ﷺ، في خطبة خطبها: واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون، وقيمة كل امرئ ما يحسنه»[٢].

ولئن قيل ذلك في شأن الفرد، إنه ليصدق في شأن الأمم. فقيمة كل أمة ما تحسنه. فليس المهم أن تعمل، لكن المهم أن تحسن إذا عملت؛ فـ «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء**»[٣].

إن تيار الوسطية لا يغفل المستقبل كما لا ينسى الماضي. وفي مكتبة الإسلاميين اليوم أكثر من كتاب يتحدث عن المستقبل من منظور الإسلام[٤].

وقد أقام بعض الإسلاميين مركزًا لدراسات المستقبل الإسلامي مقره «لندن»، وهو الذي أقام ندوته الشهيرة في الجزائر سنة (١٩٩٠م) عن قضايا المستقبل الإسلامي.

وهذا التقسيم الثلاثي واقعي ومنطقي، وترجيح فريق الوسط هو الذي يدعو إليه العقلاء، أيًّا كانت ثقافتهم. ولا بأس أن أستعير هنا

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٤١٦/١)، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، عن شداد بن أوس.

(٤) مثل: مستقبل الدعوة الإسلامية في القرن الخامس عشر الهجري للشيخ محمد الغزالي، والإسلام والمستقبل للدكتور محمد عمارة: والمستقبل برؤية مؤمنة مسلمة للدكتور الدجاني، وكتابنا: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، وغيرها.

QaradawiBooks.com

كلمات الفيلسوف الأديب الدكتور زكي نجيب محمود في التعبير عن هذا المعنى ذاته في كتابه «ثقافتنا في مواجهة العصر» قال: «إن الثقافة العربية الحديثة إذ واجهت العصر بمقولاتها، لم تجد مقولاتها تلك مُعدَّة كلَّ الإعداد لتلقي مادة العصر، فانقسم رجال الثقافة عندنا ثلاثة مذاهب:

مذهب وجد الصيد نافرًا من القفص، لكنه لم يزل به حتى طوَّعه بعض التطويع فاستكان له ولو إلى حين، وفي رحاب هذا المذهب تقع الكثرة الغالبة من أعلام الأدب والفكر في تاريخنا الحديث: محمد عبده، والعقاد، وطه حسين، وتوفيق الحكيم وغيرهم، فهؤلاء جميعًا ـ على اختلاف نزعاتهم وأذواقهم ـ لم يرفضوا العصر، لكنهم حاولوا أن يصوغوه في قوالب الثقافة العربية الأصيلة، مع تفاوت بينهم في درجة النجاح، ومع هؤلاء القادة يذهب معظم المثقفين.

ومذهب آخر وجد الصيد نافرًا من القفص فاستغنى عن الصيد، واحتفظ بالقفص يضع فيه من كائناته المألوفة ما يجده حاضرًا بين يديه، وفي هذا المذهب تقع جماعة لا حصر لعددها ممن ملؤوا أوعيتهم من كتب التراث، وغضُّوا أنظارهم غضًّا عن العصر بكلِّ ما يضطرب به من قضايا ومشكلات فكرية، ومع هذه الجماعة تذهب عامة الناس من غير المثقفين.

ومذهب ثالث وجد الصيد نافرًا من القفص فحطم القفص، وجرى مع الصيد حيث جرى، وهؤلاء قلة قليلة لا تجد بأسًا في أن نمحو صفحتنا محوًا، لنملأها بثقافة العصر وحده كما هي معروفة في مصادرها، بغير تحريف ولا تعديل.

فمن ذلك ترى جماعتين من الجماعات الثلاثة، هما اللتان تصدتا

QaradawiBooks.com

للعصر: إحداهما بتعديله ليلائم قالبنا الموروث، والأخرى بغير تعديل فيه، ملقية في اليم القالب الموروث.

وأما الجماعة الثالثة، فقد لاذت بالهروب في حصونها، فلا مواجهة بينها وبين العصر. ومن ثم فلنا أن نسقطها من حسابنا، برغم كثرة عددها، وبرغم أنها هي التي ظفرت بتأييد الجماهير.

وكذلك نستطيع أن نسقط من حسابنا ـ في موضوعنا هذا ـ تلك القلة القليلة التي وإن تكن قد شاركت العصر في مشكلاته الفكرية وقضاياه، إلا أنها قد شاركته كما يشاركه رجال الفكر من أصحاب الحضارة الغربية نفسها، فكأن هذه الجماعة «المستغربة» تنظر إلى الأمور بعين أوروبية أو أمريكية، وكل ما لها من انتماء إلى الثقافة العربية الحديثة هو أنها تكتب ما تكتبه باللغة العربية، ولعل أهم ما قامت به في صنيعها ذاك، هو أنها عرضت على الأمة العربية ثقافة الغرب، لا عن طريق الترجمة المباشرة، بل عن طريق تمثُّلها لتلك الثقافة ثم عرضها بأسلوب حي فيه روحها وشخصيتها، فلئن كانت الفئة الكبيرة التي لاذت بالماضي بغير تعديل، قد خرجت من ميدان المواجهة بالفرار، فإن هذه الفئة الصغيرة التي دمجت نفسها في حاضر الغرب كما هو، قد خرجت هي الأخرى من ميدان المواجهة بالذوبان في عالم غير عالمهم.

وتبقى بين أيدينا جماعة واحدة، هي التي اضطلعت بالمواجهة الثقافية بكل ما في هذه الكلمة من أبعاد، وأعني تلك الجماعة التي تستقطب جمهور المثقفين، والتي جعلت همها أن تسوق ثقافة العصر في مقولات الثقافة العربية كما عرفها التاريخ»[1].

(١) انظر كتابه: ثقافتنا في مواجهة العصر صـ ١٥، ١٦، نشر دار الشروق، بيروت.

QaradawiBooks.com

إن نظرتنا لا تخالف نظرة المفكر الكبير من ناحية المبدأ، ولكن تخالفه من ناحيتين:

أ ـ من ناحية التطبيق، فقد يعتبر هو طه حسين في جماعة الوسط، ونحن نراه أقرب إلى طرف الاستغراب، وإن كان في أواخر حياته قد عدَّل كثيرًا من موقفه.

وقد يرى هو مثل: رشيد رضا، وحسن البنا، ومحمد عبد الله دراز، وأمثالهم من جماعة التراث، مع أننا نسلكهم في دعاة الوسطية.

ب ـ من ناحية التعبير، فقد اعتبر العصر هو «الصيد» الذي يُطلب ويُنشد، والتراث أو الماضي مجرد «قفص» أي وعاء مهمته الاحتواء والحجز، فليس له أي قدرة على العطاء.

وأحسب أن الإنصاف يقتضي أن نعطي للتراث حقه، كما فعلنا مع العصر.

على أن الدكتور ـ وجل مَن نشؤوا في أحضان الثقافة الغربية ـ لم يميزوا بين الإسلام والتراث، أي بين ما هو وحي إلهي وما هو فكر إنساني. فالأصل أن الإسلام بعقائده وشعائره وشرائعه وقيمه وأخلاقياته الثابتة بقرآنه وسنته، أعلى من التراث، فهو الميزان الذي يحتكم إليه المختلفون، والنور الذي يهتدي به المتحيِّرون.

دعوى التصادم بين التفكير المستقبلي والتفكير الديني:

ومن الكتاب العلمانيين مَن يزعم أن التفكير الديني بطبيعته يصطدم بالتفكير المستقبلي، لما يحمل في طياته من خطر يهدِّد قيمًا كثيرة مرتكزة على أساس ديني: فحين يفكر الإنسان المعاصر في المستقبل

QaradawiBooks.com

يتَّجه ذهنه في الأغلب إلى تلك الكشوف العلمية والتكنولوجية التي يوسِّع بها نطاق معرفته بنفسه، وبالعالم، وسيطرته عليهما، وطابعها هو الاتجاه إلى تأكيد قدرة الإنسان وانتقاله التدريجي من مرحلة قبول الطبيعة على ما هي عليه، إلى مرحلة تغييرها وتشكيلها وَفقًا لأغراضه، مما يؤدِّي به إلى منافسة الطبيعة، وإحداث تحول جذري في مسارها.

مثل هذا الجهد العلمي والتكنولوجي يتخذ في عالمنا المعاصر ـ في نظر هؤلاء العلمانيين ـ طابعًا يؤدِّي إلى التصادم مع كثير من القيم الدينية.

فالعلم يسير الآن في أول الطريق المؤدي إلى كشوف تقف على مدخل تلك المنطقة المحظورة التي كانت من قبل وقفًا على التفسير الديني وحده. والتفكير المستقبلي في العالم يؤدِّي مباشرة إلى توقع التحكم في المخ البشري ومختلف القدرات الإنسانية، وإلى أطفال الأنابيب، وتخليق الحياة الصناعية، والتحكم في جنس المواليد. بل وفي صفاتهم الجسمية والنفسية والعقلية. هناك ـ إذن ـ قوى مخيفة توشك على الانطلاق من داخل مختبرات العلماء، وهي قوى لا تقتصر على التحكم في الطبيعة المادية، بل تسعى على التحكم في الطبيعة البشرية بدورها. وكل اتجاه إلى التفكير في مستقبل هذه التطورات، يثير بالضرورة حساسيات ومخاوف لا حصر لها. فالمستقبل يحمل في طياته احتمالات مزعجة، تؤدي إلى زعزعة قيم ظلت مستقرة ومريحة زمنًا طويلًا[١].

(١) انظر: الصحوة الإسلامية في ميزان العقل د. فؤاد زكريا صـ ٧٢، نشر دار الفكر المعاصر، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٨م.

QaradawiBooks.com

هذا ما قالــه أحدهم عــن التفكير الدينــي وموقفه مــن احتمالات المســتقبل، وهو تحامل واضح على التفكير الدينــي وحده، على حين نجد كثيرين من العلماء والأدباء والفلاســفة والمفكرين اليوم، في بلاد التقــدُّم العلمــي والتكنولوجي نفســها، يتوجَّســون خيفــة من هوس التكنولوجيا، وجنون البيولوجيا، وغلو الإنســان فــي الدأب على تغيير خلق الله في الكون، وفطرة الله في الإنسان. وهو ما يتنادى الكثيرون من العقلاء في العالم اليــوم لمحاولة تفاديه، قبل أن يقــع، والتخفيف من ويلات وشرور ما قد وقع بالفعل.

وقد أطلق بعض المهتمين صيحة: «يا سكان الأرض اتحدوا»[١]. أي لتفادي الخطر الواقع والمتوقَّع على هذا الكوكب وأحيائه.

ويؤكد الدكتــور زكي نجيب محمــود في كتابــه «تجديد الفكر العربي» أنه «مؤمن بأنه لا مندوحة لنا عــن أن نزيل التعارض القائم اليوم فــي أركان الدنيــا جميعًا، بيــن العلم الذي يتقــدَّم بخطوات كخطــوات الجبابرة، وقيمة الإنســان التــي تنهار بوثبــات كوثبات الشياطين»[٢].

والدكتــور قســطنطين زريق ـ وهــو رجل مســيحي مصنف في القوميين التقدميين ـ يتجه هذا الاتجاه في كتابه «نحن والمســتقبل» فيتحدَّث عن «مشــكلات التقدم» الذي أخذت البلاد المتقدمة تحسُّ بما جرَّ عليها من مشكلات متفاقمة، وأضرار وأخطاء متضخمة، وما يتعرضون له من مساوئ وشرور. وقام فريق من رجال الفكر وأرباب

(١) عنوان كتاب للأستاذ عصام الدين حواس، نشر المكتبة العربية، ١٩٨٩م.
(٢) تجديد الفكر العربي صـ ٢٨٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المسؤولية ينبِّهون ويحذِّرون، ويدعون إلى السعي الجاد السريع لتدارك الخطر، و«كبح انطلاق التقدم» كي لا يؤدِّي في النهاية إلى تخلخل الحضارة الإنسانية. ونقل عن العالم الفرنسي «رينيه ديمون» قوله: إن جميع الدلائل تدلُّ على انهيار حضارتنا انهيارًا تامًّا محتمًا خلال القرن الحادي والعشرين إذا لم نصلح أساليبنا! وأشار الدكتور زريق إلى ما قام به فريق «ناري روما» حول «المأزق الذي تعانيه الإنسانية» نتيجة التقدم العلمي والتكنولوجي. وما أصدره الباحثون المتخصصون المكلفون من تقرير يحمل نُذُرًا تشاؤمية مرعبة، أو على الأقل خليقة بإثارة القلق البليغ لما تكشف عنه من تحديات للبشرية في حاضرها ومستقبلها القريب.

ومن أهم الاستنتاجات العامة التلخيصية التي توصلوا إليها قولهم: «إذا ظلت الاتجاهات الحاضرة ـ في نمو سكان العالم، والتصنيع، والتلويث، وإنتاج الغذاء، واستنزاف الموارد ـ قائمة دون تعديل، فإن الإنسانية ستبلغ حدود النمو على هذا الكوكب خلال المائة سنة المقبلة. وأرجح ما سيحصل هبوط فجائي وغير قابل للضبط في السكان وفي القدرة الصناعية»[١].

ومثل هذه التحذيرات كثير، يظهر في كتب وتقارير وبحوث شتى، في أكثر من بلد. وقد نشرت الصحف من عهد قريب خبرًا عن وثيقة خطيرة وقعها (١٥٠٠) عالم، منهم (٩٩) تسعة وتسعون من حملة جائزة نوبل، تحذِّر من خطر استخدام العلم والتكنولوجيا ـ دون ضوابط ـ على البيئة والإنسان[٢].

(١) انظر: نحن والمستقبل صـ ٤٨، ٤٩، ١٥١، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط١.

(٢) صحيفة الشرق القطرية، يناير سنة ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

التعلق بالنموذج النبوي والصحابي:

ويرى بعض دعاة العلمانية: أن فكرة الدين في حدِّ ذاتها تقف حائلًا دون التحليق في المستقبل، والتطلع إلى غد أفضل، وتطوير الحياة إلى ما هو أحسن وأمثل. لأنها دائمًا مشدودة إلى الوراء[١]، إلى عصر نزول الوحي، واتصال السماء بالأرض، وبروز الجيل الأول الذي تخرَّج في مدرسة النبوة، وهو جيل الصحابة، أفضل أجيال الأمة في نظر المتدينين، لأنه الجيل القرآني الرباني المحمدي، الذي لم يُعرف لرسول من الرسل مثله، إيمانًا وعلمًا وعملًا وبذلًا وجهادًا في سبيل الله[٢]، وهو الذي جاء في مدحه الحديث: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[٣].

حاجة البشر إلى نموذج:

وهنا ألفت النظر إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: أن البشر لا يتعلَّمون من المبادئ النظرية وحدها، ولكنهم في حاجة إلى نموذج بشري تتجسَّد فيه المبادئ النظرية، والقيم الروحية، والمُثُل الأخلاقية المجرَّدة، يكون لهم أسوة، يقتدون بها فيهتدون. فالبشر ليسوا فلاسفة تجريديين، يتَّبعون مبدأً مثاليًّا يؤمنون به، دون أن يروه محسًّا منظورًا، أمامهم في الحياة الواقعية.

---

(١) انظر: الصحوة الإسلامية في ميزان العقل د. فؤاد زكريا صـ ٩٢ وما بعدها، فصل: الأصالة والمعاصرة.

(٢) انظر: معالم في الطريق للشهيد سيد قطب صـ ١١ ـ ١٩، فصل: جيل قرآني فريد، نشر دار الشروق القاهرة، ١٣٨٨م ـ ١٩٦٨م.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في فضائِل أصحاب النبي (٣٦٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٥٩٤)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

لهذا اقتضت حكمة الله تعالى، أن يضع أمام الناس نماذج بشرية عملية ليقتدوا بها فيهتدوا، تتمثل في رسل الله عليهم الصلاة والسلام. واقتضت حكمته ـ بالنسبة للرسالة الخاتمة ـ أن يضع أمامهم نموذجين حيين ملموسين: نموذجًا فرديًّا، ونموذجًا جماعيًّا.

أما النموذج الذي وضعه الله تعالى أمام الفرد، ليتمثَّله ويتَّخذه إمامًا وأسوة، فهو محمد رسول الله ﷺ، الذي جعل الله في سيرته منارًا لسلوك المؤمنين في شتى جوانب الحياة. يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومن فضل الله على عباده أن جعل في سيرته الجامعة متَّسعًا لكلِّ أنواع الاقتداء في مراحل الحياة المختلفة، وجوانبها المتنوعة. فالشاب والشيخ، والعزب والمتزوج، وذو الزوجة الواحدة وصاحب الأكثر من زوجة، والأب والجد، والحاكم والمحكوم، والغني والفقير، والمسالم والمحارب، والمنتصر والمنكسر، كلٌّ يجد في حياته وسيرته مجالًا للقدوة[1].

أما النموذج الآخر الذي جعله أُسوة للجماعة، فهو جيل الصحابة في عصر النبوة والراشدين. فهذا جيل هيَّأه الله لتلقي رسالة الإسلام مباشرة على يدي صاحبها المبعوث بها، فاستقبلها بعقله وقلبه وإرادته، وعاش فيها، وعاشت فيه، وسرت في كيانه العقلي والنفسي والعملي مسرى الدم في العروق، فحسَّن فقهه لها، وعمَّق إيمانه بها، وزكت نفسه بتعاليمها، وصلح عمله في رحابها، وصدق جهاده لنصرتها.

فكان هذا الجيل أفقه الناس لرُوح الإسلام، وأصدقهم عملًا به، وأسرعهم للبذل في سبيله، وأكثرهم غَيْرة على حرماته، وجهادًا لإعلاء كلمته.

(١) انظر: الرسالة المحمدية للعلامة سليمان الندوي صـ ١١٦ وما بعدها.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهو الـــذي حفظ لنا القرآن فـــي الصدور وفي الســـطور، وروى لنا السنن أقوالًا وأفعالًا وتقريرات، ونشر دين الله في الآفاق، بالأعمال قبل الأقوال، وبالأخلاق قبل الأوراق. وربى الشعوب على حبه والإيمان به، والعمل بأحكامه. وهي مهمات عظمى، انفرد بحملها دون سائر الأجيال، وهي أعباء تنوء بها الجبال.

ولا غـــرو أن أثنـــى الله عليه في كتابـــه[1]، وأنثى عليه الرســـول في أحاديثه، وأثنت عليه الأمة بعد ذلك في مأثوراتها، وسجل التاريخ فضله بأحرف من نور.

ومن هنا لا نعجب إذا رنا المســـلم ببصره إلـــى النموذج الأول، المثل الأعلى للفرد، وهو الرسول الأكرم الذي بعثه الله ليتمِّم مكارم الأخلاق، ووصفـــه بأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلـــم: ٤]، ليتَّخذ منه الأســـوة والهداية في حياته كلها. ورنت الجماعة ببصرها كذلك إلى الجيل الأول، الجيل الرباني، القرآني، المحمدي، ليتخذ منه أســـوة في حســـن فَهم الدين، وصدق اليقين بما عند الله، والتناصح في الله، والتواصي بالحقِّ، والتواصـــي بالصبر والمرحمة، والتعاون على البر والتقوى، والجهاد في ســـبيل الله، وتقديم مصلحة الإسلام على كل مصلحة شخصية.

والنقطة الثانية: أن وضع هذا النموذج أو ذاك أمام الفرد المســـلم أو الجماعة المســـلمة، لا يعني أن نهتـــدي به في كلِّ تفصيـــلات الحياة، وجزئياتها المتغيرة، وعلاقاتها المتطورة.

(١) في أواخر ســـورة الأنفال الآيات: [٧٢ ـ ٧٥]، وسورة التوبة الآيات: [٨٨، ٨٩]، وآخر سورة الفتح الآية: [٢٩]، وسورة الحشر الآيات: [٧ ـ ٩]، وغيرها من سور القرآن.

QaradawiBooks.com

إنما الواجب والمشـــروع هو وضع النموذج نصب الأعين، لتهتدي بهداه، وتقتبس من ســـناه، وتنهل من فضائله، وتغتـــرف من معين قيمه ومبادئه، وتتشرَّب روحه العالية المشرقة فيما تأخذ وما تدع.

وقد كان الصحابة عامة، والراشدون خاصة، أعظم الناس تأسيًا واقتداءً برسول الله ﷺ، وحرصًا على اتباع سنَّته، واقتفاء سيرته، ولم يمنعهم ذلك أن يبتكروا أشياء اقتضاها زمانهم وتطوُّر حياتهم، ومصلحة دينهم ودنياهم، مثل: جمع القرآن فـــي مصحف، وجمع الصحابة علـــى حرف واحد من أحرف القراءة السبعة، وتدوين الدواوين، وتمصير الأمصار.

ونجد رجلًا مثل عمر بن الخطاب ـ الرجل الثاني في الإســـلام في نظر جمهور الأمة ـ يستحدث أشـــياء لم تكن في عهد النبوة، ولا في عهد أبي بكر، وهي التي يعدُّونها «أوليات عمـــر»، فهو أول من مصَّر الأمصار، ودوَّن الدواوين، وكتب النـــاس على قبائلهم، وفرض العطاء لكلِّ مولود في الإسلام، وأول مَن استقضى القضاة في الأمصار، وأول من كتب التاريخ[1].

بل نجد الصحابة خالفوا ما كان عليه الأمر في حياة النبي ﷺ، عملًا بما تقتضيه السياســـة الشـــرعية الحكيمـــة، من جلـــب المصالح، ودرء المفاسد، وتحقيق أكبر منفعة لأكبر عدد من الناس بقدر المستطاع.

ولهذا وقف عمر أرض الســـواد ولم يقســـمها كما قســـم النبي ﷺ، خيبر، والتقط عثمان ضوال الإبل، ولم يكن يلتقطها النبي ﷺ، وضمن على الصناع، ولم يكونوا يضمنون في عهد النبوة.

(١) انظر: سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي صـ ٧٥ ـ ٧٩، نشر دار إحياء علوم الدين، دمشق.

QaradawiBooks.com

وهذا لا يعتبر في الحقيقة مخالفة، بل فعل النبي ﷺ، ما هو أصلح للأمة في زمنه، وفعل خلفاؤه الراشـــدون ما هو أصلح للأمة في زمنهم. كما قال ابن قدامة في تعليل فعل عمر في الأرض[١].

ولو كان الإسلام يكره الابتكار في شـــؤون الحياة ما رغب الرسول الكريم في ذلك بقوله: «**مَن سنَّ في الإسلام سنَّة حسنة فله أجرها، وأجر مَن عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**»[٢].

وهذا هو المنهج الذي يريده الإســـلام: الاتباع فـــي أمور الدين، والابتداع في أمور الدنيا. وكذلك كان أفضل أجيال المســـلمين. فلما انحرف المسلمون عن النهج الصحيح للإســـلام، عكسوا المشروع، وقلبوا الموضوع، فابتدعوا في شـــؤون الدين وجمدوا في أمور الدنيا والحياة.

والمسلمون في خير قرون هذه الأمة، وهي القرون الثلاثة الأولى ـ برغم يقينهم بفضل عصر النبوة والراشـــدين ـ لم يمنعهم ذلك أن يطوِّروا من علوم الدين، ويخترعوا في علوم الدنيا، فنشـــأت مدارس الفقه والتفسير والكلام، ومدارس اللغة والنحو، ودونت علوم الدين واللغة.

ثم انفتح المســـلمون على العالم من حولهم، مـــن الهنود والفرس واليونان، فترجموا الكثير مـــن كتبهم ومعارفهم إلـــى العربية، وعكفوا عليها درسًا وبحثًا، فشرحوا غامضها، وكمَّلوا ناقصها، وصوَّبوا خاطِئَها، ورتَّبوا مشوشـــها، وهذَّبوا وحوَّروا، وأضافوا وغيَّـــروا، وابتكروا علومًا

(١) المغني لابن قدامة (٢٣/٣)، نشر مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦)، عن جرير بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

جديدة، مثل الجبر والمقابلة. وتركوا بصماتهم على القديم، في الهندسة والطب، والفيزياء والكيمياء، وشتى العلوم والرياضيات، التي كانت تعتبر كلُّها شُعبًا من «الفلسفة» أو «الحكمة».

بل اعتبروهم مبتكري المنهج العلمي التجريبي، الذي يفخر به الغرب، وينسبه إلى «روجر بيكون»، وسمِّيه «فرنسيس بيكون»، وهما إنما اقتبساه من الحضارة العربية الإسلامية، كما اعترف بذلك كثير من المنصفين من مؤرخي العلم، أمثال: «بريفولت»، و«جوستاف لوبون»، و«جورج سارتون»[١].

المهم أنهم لم يعتبروا ذلك منافيًا للاعتزاز بعصر «النموذج» الأول، واتخاذه أسوة، بل اعتبروا ذلك من استلهام روحه، والسير على هداه.

استنباطات مردودة:

لقد استنبط بعض الباحثين المعاصرين من حديث: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[٢]. مقولة غريبة، مضمونها: أن الإنسانية التي يحتضنها الإسلام تتقدَّم نحو ما هو أسوأ، لا نحو ما هو أفضل، وأن هذا التقدُّم إلى الأسوأ حتمي لا رادَّ له، وَفقًا لهذا الحديث وأمثاله.

---

(١) «بريفولت» في بناء الإنسانية، و«لوبون» في حضارة العرب، و«سارتون» في تاريخ العلم، وانظر: مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي د. علي سامي النشار صـ ٣٨٢ ـ ٣٨٥، نشر دار المعارف، ط ٢، وشمس العرب تسطع على الغرب للمستشرقة الألمانية زيجريد هونكه صـ ٤٠١، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، نشر دار الجيل بيروت، ط ٨.

(٢) سبق تخريجه صـ ١٥٩.

QaradawiBooks.com

ولهـذا يُرجِّح أن هـذه الأحاديث موضوعـة مصنوعة، إمـا لتبرير ما حدث بالفعل، إذا فرضنا أن الواضعين هم مسلمون فعلًا، وإما لتوجيه مسيرة الإسلام في طريق اليأس، إذا فرضنا أن الواضعين منافقون[١].

والحق أن الحديث صحيح متَّفق على صحَّته بين علماء الإسلام، لم يطعن عالم سنِّي ولا معتزلي ـ فيما أعلم ـ في سنده أو متنه، بل ذكر ابن حجر والسيوطي وغيرهما من أئمة النقل أنه من المتواتر[٢].

فاعتبار هذا الحديث موضوعًا: اتِّهام للأمة كلِّهـا بالجهل، والغباء، وترويج الباطل، واجتماعهـا على الضلالة طوال تلـك العصور، وهذا مدخل لنسف الدين كله.

أما ما فهمه الباحث الفاضل مـن الحديث، وما رتَّبه عليه من نتائج، فهو غير مسلَّم له.

فالحديـث إنما دلَّ على فضـل الجيل الذي تلقَّى عن رسـول الله ﷺ، وتربَّى في حضانة النبوَّة، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات الله، ومن هدي رسـول الله، وحمَّله القدر من المهمات ما لم يحمله غيره، ثم الجيل الذي تتلمذ على هؤلاء الأصحاب، واقتبس من مشكاتهم، واقتفى آثارهم، والجيل الثالث الذي سار على دربهم واتبعهم بإحسان، فرضي الله عنهم ورضوا عنه.

ولا يشكُّ دارس منصف أن «الإشعاع الروحي» لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاتمة، كان من القوة والعمق والسَّعَة، بحيث لا يلحقه

(١) انظر: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث د. فهمي جدعان صـ ٢١ وما بعدها، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

(٢) انظر: نظـم المتناثر في الحديث المتواتـر للكتاني حديث رقم (٢٤١)، نشـر دار الكتب العلمية، بيروت.

QaradawiBooks.com

جيل آخر، وهذا في الجملة لا في التفصيل، وفي أمر الدين والتقوى لا في أمر الحياة والعلم والعمران، فهذه قد تتفوَّق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضَّلة في الالتزام الديني.

وقد بشَّر الرسول ﷺ، أمته أنهم سيرثون ممالك كسرى وقيصر، وسينفقون كنوزهما في سبيل الله، وأنهم سيملكون المشرق والمغرب يومًا، وأن الرخاء سيبلغ مدًى لا يكاد يجد ذو المال يومها مَن يقبل منه الصدقة، وأن الأمن سيستتب حتى إن المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتى تطوف بالبيت الحرام، لا تخاف إلا الله، وأن أرض العرب ستعود يومًا مروجًا وأنهارًا.

فهل يعتبر هذا كله «تقدُّمًا إلى الأسوأ»؟!

إن أي قارئ غير متعصِّب ولا متعسِّف للتاريخ يعلم أن الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ طوَّروا كثيرًا من أمور الحياة، وأدخلوا عليها تحسينات وإضافات لم تكن في عصر النبوة، وهم الذين أمرنا أن نتَّبع سنَّتهم، ونعضَّ عليها بالنواجذ، فهي امتداد للسنة النبوية المطهّرة.

وبعد عصر الراشدين وجدنا المسلمين في عهد الأمويين والعباسيين، يبتكرون ويضيفون أشياء لم تكن في العصر النبوي ولا العصر الراشدي، أقرَّهم عليها علماء الأمة، وانعقد الإجماع على مشروعيتها.

ويكفي أن تمَّ فيها استبحار علوم الدين واللغة، وتدوينها وتأصيلها، وظهور المدارس العلمية والفكرية في شتَّى أنواع العلوم والآداب، ثم اقتباس علوم الأمم الأخرى، عن طريق الترجمة، ثم تدارسها وانضاجها وتهذيبها، وإعمال يد التعديل والتحسين والتحوير فيها، بالحذف والإضافة والتغيير، والتقديم والتأخير، حتى تنسجم مع المزاج العام للأمة، وتتواءم

QaradawiBooks.com

مع دينها وقيمها وثقافتها، وتجد لهـا مكانًا في حياتها العقلية والوجدانية والاجتماعية. ثم ابتكار علوم جديدة كاملة، لم يعرفها السابقون.

وفي هذا الإطار نشـأت الحضارة الإسـلامية الفارعة الرائعة، ثابتة الأصول، باسقة الفروع، وارفة الظلال، مباركة الثمار.

ولم يتوقَّف المسلمون عن إبداع هذه الحضارة في مختلف مجالاتها، وشتى فروعها، بدعوى أن هناك أحاديث تغلُّ أيديهم، أو تقيِّد أرجلهم، أو تشلُّ تفكيرهم، محتِّمة عليهم «التقدُّم إلى الأسوأ»!

صحيح أن الأجيال المسـلمة التي صنعت هذه الحضارة الشمَّاء، لم تكن في شفافية جيل الصحابة وتلاميذهم من الناحية الإيمانية «الروحية» ـ وهو أمر اعترف بـه الجميع ـ ولكن هذا لم يقـف حائلًا أمام تفوُّقهم العلمي، وتقدُّمهم الحضاري، وجهادهم الأخلاقي. بل وضعوا أخلاقيات ذلك الجيل المثالي نصب أعينهم، باعتباره مثلًا إنسـانيًّا أعلى، وبذلك يجمعون بين الحسـنيين أو يحاولون ذلك على الأقل: حسـنة الإبداع الحضاري المادي، وحسنة السمو الروحي، والترقِّي الإيماني والخلقي.

على أن هناك أحاديث أخـرى تبيِّن فضل الأجيـال اللاحقة، وتنوِّه بصبرها وثباتها في عصور الفتن والأزمات التي يُمتحن فيها أهل الإيمان، وحملة رسـالة الإسـلام، ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر. حتى ذكر الحديـث أن للعامل فيها أجر خمسـين! قيل: منَّا أو منهم، يا رسول الله؟ قال: «**بل منكم**»[1].

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤١)، والترمذي في التفسـير (٣٠٥٨)، وقال: حديث حسـن غريب. وابن ماجه فـي الفتن (٤٠١٤)، والحاكـم في الرِّقـاق (٣٢٢/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، عن أبي ثعلبه الخشني.

QaradawiBooks.com

كما صحَّت أحاديث كثيرة تبشِّر بغدٍ مشرق، ومستقبل زاهر لدعوة الإسلام، ومُلك واسع لدولته، وصحَّ الحديث كذلك أن الله يبعث في كلِّ مائة سنة مَن يجدد للأمة دينها. وبذلك يتجدَّد أملها، ويقوى رجاؤها، في صلاح الحال إذا فسد، وقوَّة الدين إذا ضعف، واستقامة الأمر إذا أعوج.

استمرار الخير في سائر أجيال الأمة:

وإيمان المسلم بفضل القرن الأول أو القرون الأولى لا يعني أن باب الله قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيامة، وأن الأجيال القادمة محرومة من استباق الخيرات، فقد حازتها تلك القرون، ولم يعد أمامها إلا الفتات إن بقي الفتات.

بل الحقُّ الذي لا ريب فيه أن باب الله تعالى مفتوح للجميع إلى أن تقوم الساعة، واستباق الخيرات مأمور به لجميع الأمة في كل العصور: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨]. وكم ترك الأول للآخر، وكم في الإمكان أبدع مما كان.

وفي الحديث الشريف: «**مثل أمتي كالمطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره**»[(١)].

يقرِّر الشراح هنا: أنه كما لا يحكم بوجود النفع في بعض الأمطار دون بعض، فكذلك لا يحكم بوجود الخيرية في بعض أجيال الأمة أو أفرادها دون بعض من جميع الوجوه، وفي هذا إيماء إلى أن باب الله

(١) رواه أحمد (١٢٣٢٧)، وقال مخرجوه: حديث قوي بطرقه وشواهده. والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩)، وقال: حسن غريب. وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٨٦)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

مفتوح، وطلب الفيض من جنابه مفسوح. فكلُّ طبقة من طبقات الأمة لها خاصية وفضيلة توجب خيريتها، كما أن كلَّ نوبة من نوبات المطر لها فائدتها في النشوء والنماء لا يمكن إنكارها. فإن الأولين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات، وتلقَّوا دعوة الرسول بالإجابة والإيمان، والآخرين آمنوا بالغيب، لما تواتر عندهم من الآيات، واتَّبعوا من قبلهم بالإحسان. وكما أن المتقدِّمين اجتهدوا في التأسيس والتمهيد، فالمتأخرون بذلوا وسعهم في التقرير والتأكيد، فكلٌّ ذنبهم مغفور، وسعيهم مشكور، وأجرهم موفور.

قالوا: والمراد هنا وصف الأمة قاطبة ـ سابقها ولاحقها، أولها وآخرها ـ بالخير، وأنها ملتحمة بعضها ببعض، مرصوصة كالبنيان، مفرغة كالحلقة التي لا يُدرَى أين طرفاها[1].

والمسلمون في كلِّ مكان وزمان يردِّدون هذا القول بوصفه حديثًا نبويًّا: الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة. ومعناه صحيح، وإن لم يرد بهذا اللفظ.

فقد صحَّت جملة أحاديث عن عدد من الصحابة تؤكد أن «**لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على الحقِّ حتى يأتي أمر الله**»[2]، وهو ما يتَّفق مع منطوق القرآن الكريم: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

(١) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للعلامة علي القاري (٤٠٤٨/٩)، وقد نقلناه بتصرف، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، عن معاوية بن أبي سفيان.

QaradawiBooks.com

كما صحَّت أحاديث تبشِّر بمستقبل مشرق للإسلام، تعلو فيه كلمته وتنتشر دعوته، وتتَّسع دولته[١].

سنن وقواعد مطردة:

ولقد وضح لدى الأجيال المسلمة طوال القرون: أن ثمة مبادئ راسخة، وقواعد ثابتة، وسننًا مطردة، من محكمات القرآن والسنة، يحتكم إليها الجميع، منها:

١ ـ أن لكلِّ عمل ثمرة، ولكلِّ جهد جزاء، في الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

٢ ـ أن الجهاد في الله، سواء كان جهادًا روحيًّا أم ماديًّا، لا يهدره الله أبدًا: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٣ ـ أن مَن نصر الله نصره الله، ومكن له في الأرض، وإنما ينصر الله بالإيمان وعمل الصالحات، والصالحات: كل ما تصلح به الحياة روحيًّا وماديًّا، وما يصلح به الإنسان فرديًّا وجماعيًّا. يقول تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) انظر في ذلك: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، الجزء الأول، الأحاديث رقم (١ ـ ٦)، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

QaradawiBooks.com

٤ ـ العناية بحقوق الإنسان

ومن سمات عصرنا البارزة: أنه عصر حقوق الإنسان، فلا معاصرة لنا إذا لم نعترف بهذه الحقوق في دساتيرنا، ونرعها في مؤسساتنا، ونزرع احترامها في عقول أبنائنا، وضمائر شعوبنا وحكامنا. وبخاصة حقوق المستضعفين والمسحوقين.

حقوق الإنسان الفرد لدى المجتمع.

حقوق الشعوب لدى الحكام.

حقوق الفقراء لدى الأغنياء.

حقوق الأُجراء لدى الملَّاك.

حقوق العمال لدى أرباب العمل.

حقوق النساء لدى الرجال.

حقوق الأطفال لدى الآباء.

إلى غير ذلك من الحقوق، التي تحفظ للإنسان آدميته، وتصون حرُمته وكرامته، وتؤمِّنه على ممتلكاته وخصوصياته، وتحميه من مخالب الأقوياء أن تفترسه، ومن أقدامهم الغليظة أن تدوسه.

فهل تضيق أصالتنا الإسلامية والعربية ذرعًا بهذه الحقوق؟ أم ترحِّب بها وتنشرح بها صدرًا؟

الواقع أن هناك بحوثًا ودراسات جادة أثبتت ـ بمنهج علمي صحيح ـ أن هذه الحقوق ـ في جملتها ـ ليست من مستحدثات العصر ولا من مبتكرات الغرب، وأن الإسلام سبق بإقرارها، بل بالدعوة إليها والمحافظة عليها، واعتبار الفرد والمجتمع والدولة

QaradawiBooks.com

حراسًا على رعايتها، بوصفها واجبات شرعية، يثاب من فعلها، ويعاقب من تركها.

لا أملك في دراستي هذه أن أتحدث عن هذه الحقوق وموقف الإسلام منها، بل أحيل على بعض الكتب التي صدرت في هذه القضية، مثل: حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني الغربي، للدكتور محمد فتحي عثمان، وحقوق الإنسان بين الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، للشيخ محمد الغزالي، وحقوق الإنسان في الإسلام، للدكتور علي عبد الواحد وافي، والإسلام وحقوق الإنسان، للدكتور القطب محمد طبلية، والإسلام وحقوق الإنسان، للدكتور محمد عمارة.

واكتفى هنا بعرض خلاصة مما انتهى إليه بحث الدكتور فتحي عثمان، في كتابه الموثَّق بالأدلَّة الشرعية والتاريخية من مصادرها الأصيلة. وفيها بين أن تقرير حقوق الإنسان في الإسلام، استوعب الاتجاهات الوضعية كلَّها، قديمًا وحديثًا وتفوَّق عليها، مؤكِّدًا ما يلي:

(أ) تقرير حقوق الإنسان في الإسلام قد شمل الحقوق الشخصية الذاتية والفكرية والسياسية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية، وأكَّد الحريات العامة المتنوعة والمساواة.

(ب) وقد شمل تقرير حقوق الإنسان في الإسلام: الرجال والنساء اللاتي هن «**شقائق الرجال**» كما ورد في الحديث[1]، والأطفال وهم «**الذرية الضعاف**» الذين تمتعوا بالرعاية الشرعية من جانب كلِّ المؤسَّسات القائمة في المجتمع الإسلامي: الأسرة والجماعة والدولة.

(١) رواه أحمد (٢٦١٩٥)، وقال مخرجوه: حسن لغيره. وأبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣)، كلاهما في الطهارة، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٥)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

(جـ) كما شمل تقرير حقوق الإنسان في الإسلام: المسلمين وغير المسلمين في داخل دولة الإسلام وخارجها، لأن «البر» في الإسلام إنساني عالمي: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

(د) وحقوق الإنسان الشاملة في الإسلام هي في ضمان الفرد والجماعة والدولة على السواء، لأن «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» هو واجب هؤلاء جميعًا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة: ٧١].

(هـ) ومما يتجلَّى فيه تفوُّق حكم الله على وضع البشر بالنسبة لتقرير حقوق الإنسان وحرياته العامة: أن تقرير الحقوق في الإسلام يستند إلى «عقيدة الإيمان»، وهي في عمقها وشمولها ودوامها لا تقارن بفكرة «القانون الطبيعي» أو «العدالة» أو «العقد الاجتماعي» أو «المذهب الفردي»، إلخ.

فـ «الله» مصدر تقرير الحقوق في دين الإسلام حقيقة ثابتة، لا مجرد افتراض غامض، والعقيدة في الله ترتكز إلى أصولها في الفكر والنفس. ولها آثارها الواسعة الشاملة المستمرة في سلوك الفرد والجماعة والدولة.

(و) إن استناد تقرير الحق إلى الله ﷻ، وشريعته يؤدِّي إلى اقتران الحقِّ بالواجب، واقتران حقِّ الفرد بحقِّ الجماعة، واقتران الحقوق الفكرية والسياسية بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية. فكلُّ ما هو حق للفرد هو واجب على غيره: سواء أكان الغير فردًا آخر أم الجماعة أم الدولة. وهكذا لا مجال في المجتمع الإسلامي للأنانية والفردية، ففي الحديث: «**لا يؤمن**

QaradawiBooks.com

أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[١]، «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٢]، والقرآن يعبِّر في جلاء أن الأخوة ثمرة الإيمان الصحيح: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

(ز) بل إن تقرير حقوق الإنسان من قبل خالق الإنسان ﷻ، قد جعل إحقاق الحق واجبًا على صاحب الحقِّ نفسه، كما هو واجب على الذي عليه الحق، فعلى صاحب الحق أن يطالب به، ويحرص عليه، ويناضل لأجله، إن كان المانع مماطلًا أو باغيًا أو غاصبًا. ففي الحديث: «**من قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد**»[٣]، والمؤمنون أفرادًا وجماعة ودولة في أي مكان مأمورون بمظاهرة صاحب الحقِّ في طلبه والنضال لأجله: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ﴾ [الحجرات: ٩].

والمؤمن مأمور ألا يفرِّط في حقوقه، وبخاصة ما يمسُّ إنسانيته وفكره واعتقاده، حتى ولو اضطر إلى ترك الأرض التي عاش فيها وارتبط بها وأَلِفها. وهكذا تكون الهجرة أو «الالتجاء» بالاصطلاح القانوني المعاصر واجبًا على المضطهد، وليست حقًّا فحسب. كما أن من واجبه النضال والجهاد حيثما كان.

(ح) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شريعة الإسلام يعني إحقاق الحق ومقاومة البغي، وهو التزام فذٌّ يفرضه الإسلام على الفرد والجماعة والدولة، وهو واجب ديني شرعي يرتكز إلى العقيدة،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

(٣) رواه أحمد (١٦٥٢)، وقال مخرجوه: إسناده قوي. وأبو داود في السنة (٤٧٧٢)، والترمذي في الديات (١٤٢١)، وقال: حسن صحيح. عن سعيد بن زيد.

QaradawiBooks.com

ويتغلغل إلى أعماق ضمير المؤمن، وهو مقرون بالإيمان نفسه في عدد من آيات القرآن.

(ط) وإن الإسلام ليرتضي في مجال الاجتهاد والسياسة الشرعية كلَّ ما يتوصل إليه التفكير والتجربة من إجـراءات محكمة مخلصة ناجعة، لضمان حقوق الإنسان ومنع المسـاس بها والاعتداء عليها. وفي حدود ما ورد من نصوص القرآن والسنة وما وقع في تاريخ الإسلام.

الضمانات لمنع الاعتداء على حقوق الإنسان:

يمكن القول بوجود الضمانات التالية:

• واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المُلقى على عاتق الفرد والجماعة والدولة في الإسلام، والذي يعني حراسة هؤلاء جميعًا للحقِّ في مختلف صوره ومدافعتهم للبغي في مختلف صوره. ومن الوسـائل التي عرفها تاريخ الإسـلام في هذا الصدد وظيفة المحتسـب بالنسـبة للحكومة، ودعوى الحسبة بالنسـبة للأفراد، ويمكن إدخال مراقبة رعاية حقوق الإنسان في نطاق كليهما.

• كذلـك كان من اختصاص والـي المظالم ـ وهـو من اختصاص القاضي قبل ذلك وعندما لا يوجـد مثل هذا المنصب ـ النظر في تعدِّي الولاة على الرعية وأخذهم بالعسف في السيرة. فهذا من لوازم النظر في المظالم الذي لا يقف على ظلامة متظلِّم، فيكون لسيرة الولاة متصفحًا، وعـن أحوالهم مستكشـفًا، ليقويهـم إن أنصفوا، ويكفهم إن عسـفوا، ويستبدل بهم إن لم ينصفوا.

• ولا مانع أن يقوم قضاء داخل الدولة الإسلامية على أعلى مستوى لحماية حقوق الإنسان: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

QaradawiBooks.com

• ومن الإجراءات المعروفة في شريعة الإسلام وتاريخه: «التحكيم»، لمحاولة الإصلاح بين طرفي النزاع، سواء أكان ذلك على المستوى الداخلي أو العالمي. والنصُّ صريح في مجال الأسرة، ولا مانع من تعديته إلى الجماعة داخل الدولة والجماعة الإنسانية الدولية، يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء: ٣٥].

• والإسلام يشرع الجهاد لحماية حقوق الإنسان، ومنع استضعافه، والبغي على ذاته وحقوقه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ [النساء: ٧٥].

• وحق الهجرة والالتجاء مكفول للفرد للفرار بنفسه وعقيدته وفكره من الاضطهاد، وكلُّ ما يمكن أن يستحدث من وسائل لحماية الحق وكفالة العدل ومقاومة البغي فإن الإسلام يرتضيها ويحتويها[1].

هذه هي حقوق الإنسان في الإسلام، واضحة بيِّنة موثَّقة من أصوله ومصادره.

ولكن الذي نؤكِّده هنا: أن الإسلام يمتاز عن الفكر الغربي بما قرره من التوازن بين الحقوق والواجبات. فالإنسان في حضارة الغرب يركض أبدًا وراء ما هو له، ولا يهتمُّ كثيرًا بما هو عليه، والإنسان في الإسلام مشدود إلى ما يجب عليه أولًا.

(١) انظر: حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني الغربي د. محمد فتحي عثمان صـ ١٧٤ ـ ١٩٢ بتصرف، نشر دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

QaradawiBooks.com

الإنسان في نظر الغرب مطالِب ســائل، وفي نظر الإسلام مطالب مســؤول. وفرق كبير بين الموقفين، فرق بين مَن يقول: ماذا لي؟ ومَن يقول: ماذا عليَّ؟ فالأول يدور حــول حاجته، والآخر يدور حول قيمة أخلاقية.

ومن خــلال أداء الواجبات ترعى الحقــوق؛ إذ ما من حقٍّ لفرد أو جماعــة إلا كان هو واجبًا علــى غيره. فحقــوق المحكومين إنما هي واجبات على الحكام، وحقوق المســتأجرين إنما هــي واجبات على المالكين. وحقوق الأولاد إنما هي واجبات على الوالدين، وهكذا.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

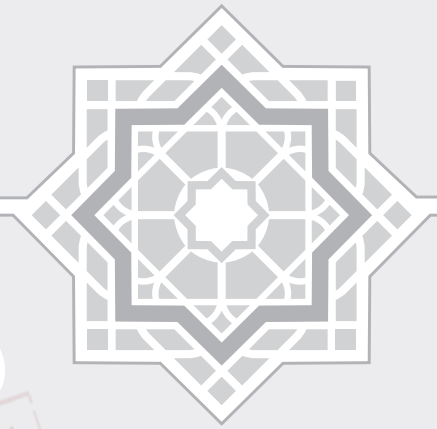

الفصل الرابع

ملاحظات ونتائج

- تواصل الحوار.
- ملفات يجب أن تغلق.
- لا مبرر للعلمانية في أرضنا.
- تأكيد كرامة الإنسان.
- المحرقة التي تُعَدُّ لِدُعاة الإسلام.
- فلسفة تجفيف المنابع.
- حتى المسجد لم يعد خادمًا للإسلام.
- التدين الذي يروجون له.
- من الرابح من وراء ذلك؟

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

ملاحظات ونتائج

أريد أن أذكر في هذا الفصل بعض الملاحظات أو الوصايا التـــي أرى من الخيـــر أن يتفاهم عليهـــا دعاة الأصالـــة ودعاة المعاصرة، إن كان لا بدَّ من بقاء هذا التصنيف أو التقسيم.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تواصل الحوار:

من هذه الملاحظات: ضرورة تواصل الحوار بين المخلصين من الفريقين، لتصحيح المفاهيم، وإزالة الشبهات، وتقريب الشُّقة، ومحاولة توسيع مساحة المتَّفق عليه، وتأكيد التعاون فيه، والمناقشة الجادة في المختَلف فيه، والعمل على تضييقه، والاجتهاد في الوصول إلى الصواب أو الصحيح أو الأصح، ما وجدنا لذلك سبيلًا، وإلا وسعنا التسامح والتماس الأعذار للمخالفين وإن اعتبرناهم نحن مخطئين.

وقد أمر القرآن بحوار المخالفين في الدين من أهل الأديان الكتابية الأخرى، على أن يكون الحوار بأحسن الأساليب وأمثلها، وأن يركِّز على مواضع الاتفاق لا على نقاط الاختلاف، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فإذا كان هذا هو الموقف الواجب مع المخالفين في الدين، فمن باب أولى أن يُتَّبع مع المخالفين في الفكر.

ملفات يجب أن تُغلق:

كما أرى من الخير أن نفرغ من بعض القضايا التي حسمها البحث العلمي الجاد، فينبغي أن نغلق ملفاتها، ولا نظلُّ نلف وندور حولها دون طائل، فالأعمار أثمن وأقصر من أن تُضاع في تحصيل الحاصلات، وتوضيح الواضحات، ونشر النشارة!

انظر إلى قضية مثل قضية «الربا»، كيف ثارت منذ أكثر من نصف قرن، حين كانت الرأسمالية الغربية في أوجها، وكان المنهزمون فكريًّا

QaradawiBooks.com

ونفسيًّا من أبناء المسلمين يحاولون أن يجدوا لهم سندًا من داخل الشرع، يبرِّرون به استباحة الربا، الذي جلبه الاستعمار في ركابه إلى ديار المسلمين.

تمحَّكوا بالتفريق بين ربا الجاهلية والربا الحاضر، أو بين ربا الانتاج وربا الاستهلاك، أو بين الأضعاف المضاعفة ـ كما حاولوا أن يفهموه من سورة آل عمران ـ وربا الفائدة المحدودة (١٠٪) أو نحو ذلك.

وقام العلماء الواعون الصادقون من رجال الشريعة ورجال الاقتصاد، وردُّوا هذه الدعاوي كلَّها، بمنطق علمي موضوعي رصين، من أمثال: أبي الأعلى المودودي، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد عبد الله العربي، وعيسى عبده إبراهيم، ومحمود أبو السعود، وأحمد عبد العزيز النجار، وغيرهم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدِّ، بل دخل المسلمون في دور إيجاد البدائل الإسلامية عن المؤسسات الغربية الربوية، فقامت المصارف الإسلامية، ومؤسسات الاستثمار الإسلامي، وطفقت تنمو وتتَّسع، وتتطوَّر إلى الأحسن.

ثم فوجئنا بمَن يردُّنا خمسين سنة إلى الوراء، لنناقش من جديد ما فرغنا من مناقشته وانتهينا منه نظرًا وعملًا!

ثم انظر المعركة التي بدأت في عهد الشيخ محمد عبده مع فرح أنطون صاحب مجلة «الجامعة» عن «الإسلام والسلطة الدينية»، والتي حسمها الأستاذ الإمام ـ حين جعل من أصول الإسلام الستة في إرساء العلم والمدينة: «قلب السلطة الدينية» لا إقامتها وتشييدها ـ لم تزل تظهر بين حين وآخر، كأنها أمر جديد.

QaradawiBooks.com

أكَّد الأستاذ الإمام محمد عبده: «أن الإسلام هدم بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتى لم يبقَ لها عند الجمهور من أهله اسم ورسم، ولم يَدَع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانًا على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه، ولم يجعل لأحد من أهله أن يحلَّ ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السماء، بل الإيمان يعتق المؤمن من كلِّ رقيب عليه فيما بينه وبين الله، سوى الله وحده. وليس لمسلم ـ مهما علا كعبه في الإسلام ـ على آخر ـ مهما انحطت منزلته فيه ـ إلا حق النصيحة والإرشاد».

وعن الحاكم قال الأستاذ الإمام: «إن الدين لا يخصُّه في فَهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزيَّة، ولا يرفع به إلى منزلةٍ، بل هو وسائر طلاب الفَهم سواء، إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة في الحكم، ثم هو مطاع ما دام على المحجَّة، ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد، فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه، وإذا اعوجَّ قوَّموه بالنصيحة، والإعذار إليه، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فإذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره. فالأمة هي التي تنصِّبه، وهي صاحبة الحقِّ في السيطرة عليه، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه»[1].

هذا ما قاله الأستاذ الإمام، وقاله بعده العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي مصر في زمنه في ردِّه على كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم»، كما قرَّره العلامتان: محمد الطاهر بن عاشور

(١) انظر: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٣٠٩/٣ ـ ٣١٠)، تحقيق د. محمد عمارة، نشر مكتبة الأسرة المصرية، ٢٠٠٨م ـ ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

شيخ علماء تونس، ومحمد الخضر حسين شيخ الأزهر بعدُ في مصْر، في نقضهما للكتاب المذكور. وهو ما أكَّده بعد ذلك كلُّ مَن كتبوا عن نظام الحكم أو النظام السياسي من العلماء أو الدعاة أو القانونيين، وهم جمٌّ غفير[١].

ومع هذا الوضوح الحاسم، أو الحسم الواضح، في هذه القضية لا يزال تيار التغريب ـ يمينيه ويساريه ـ يبدئ فيها ويعيد.

وآخر ما قرأناه في ذلك ما كتبه المفكر الماركسي المعروف الأستاذ محمود أمين العالم، في مقاله في صحيفة «الأهرام» عن «الإسلام السياسي والسلطة». وكان مما قاله: «هناك ما نطلق عليه اسم «التيار الإسلامي المعتدل» وما نطلق عليه اسم «التيار المتعصب»، وما نطلق اسم «التيار الإرهابي». على أنه برغم هذا التنوع والاختلاف، فهناك موقف يكاد يوحِّد هذه التيارات جميعًا، هو الموقف من السلطة. فهي جميعًا تدعو إلى «السلطة الدينية». ولا تكتفي بالقول بتطبيق الشريعة الإسلامية أو باستلهامها. بل تدعو دعوة صريحة جهيرة إلى أسلمة السلطة، وأسلمة المجتمع، في مختلف ممارساته وأساليب حياته. بل لعل بعضها يدعو إلى أسلمة المعرفة والعلوم كذلك. لا العلوم الاجتماعية فحسب، بل العلوم الدقيقة كذلك، كالعلوم الطبيعية»[٢].

(١) راجع على سبيل المثال ما كتبه الأساتذة: محمد يوسف موسى، ومحمد الصادق عرجون، وحسن البنا، وعبد القادر عودة، وسيد قطب، ومحمد الغزالي، ومحمد سليم العوا، ومحمد أبو فارس، وعبد الحميد متولي، وأخيرًا ما كتبه خالد محمد خالد: الدولة في الإسلام، معتذرًا عما كتبه قديمًا في كتابه: من هنا نبدأ.

(٢) انظر: صحيفة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/١٢/٩م، صفحة: الإرهاب والتطرف في فكر المثقفين، وهو الذي علق عليه الأستاذ فهمي هويدي في مقاله الأسبوعي بتاريخ ١٩٩٢/١٢/١٥م، تحت عنوان: لكيلا نخوض المعركة الغلط.

QaradawiBooks.com

وطالما كتبنا وكتب الكاتبون: أن الإسلام لا يدعو إلى «سلطة دينية» بالمعنى الكهنوتي الذي عرفه المجتمع الغربي، بل يدعو إلى «سلطة إسلامية» بمعنى أنها سلطة مدنية تختارها الأمة، تعتمد المرجعية الإسلامية في تشريعها وتوجيهها وسياستها الداخلية والخارجية.

ولكن الأستاذ العالم ينكر ذلك أيضًا، ويعتبر الدعوة إلى أسلمة السلطة، وأسلمة المجتمع، أمرًا منكرًا! ويعتبر ذلك من ابتداع ما سمَّاه «الإسلام السياسي»، فماذا يريد من وظيفة للإسلام في الحياة؟ ماذا يفهم من تطبيق الشريعة الإسلامية، إذا لم تسلم السلطة، ويسلم المجتمع؟

لقد كان الأستاذ العالم وزملاؤه أيام عزِّ الماركسية يدعون إلى «مركسة السلطة» وإلى «مركسة المجتمع»، فلماذا يريد للإسلام أن يبقى متفرِّجًا، وهو يرى السلطة والدولة والمجتمع والثقافة، تسير في اتجاه آخر، قد يكون إلى اليمين، أو اليسار، ولكنه غير اتجاه الإسلام؟!

وماذا ينكر من أسلمة المعرفة[1]؟ أو أسلمة العلوم الاجتماعية؟ وهل يعني ذلك إلا أسلمة الثقافة؟ ومعنى أسلمة الثقافة: تحريرها من سلطان الثقافة الغربية حتى تكون ثقافة أصيلة معبرة بحقٍّ عن ضمير الأمة وعقلها. ولا ريب أن العلوم الاجتماعية أوصل ما تكون بثقافة كلِّ أمة، وخصوصيتها الحضارية.

وهذا يقتضي أن تنظر إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية نظرة جديدة، لا تقلد الغرب فيها تقليدًا أصم أعمى، ولا ترفض كلَّ شيء عنده، بل نعيد

(١) انظر ما نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن عن قضية أسلمة ـ أو إسلامية ـ المعرفة، بأقلام: المرحوم د. إسماعيل الفاروقي، ود. عبد الحميد أبو سليمان، ود. عماد الدين خليل، ود. طه جابر العلواني.

QaradawiBooks.com

قراءتها بعقلية واثقة متفتحة غير مبهورة، من خلال منظورها الخاص، ومسلَّماتها الدينية والفكرية، فتأخذ منها وتَدَع، وترجِّح وتضعِّف، بمنطق علمي موضوعي، بعيدًا عن التعصُّب للقديم، أو التعبُّد للحديث.

وبذلك تنشأ مدارس عربية إسلامية جديدة في هذه العلوم، مكافئة للمدارس الغربية المختلفة فيها. وهذا لا يكون بمجرَّد إطلاق العناوين، بل بالبحث الدؤوب، والدراسة الجادة الصبور.

أما «أسلمة العلوم الطبيعية» فلا أعلم مسلمًا عاقلًا يدعو إلى ذلك، إلا ما أشرنا إليه من قبل، من ربط هذه العلوم بالأساس النظري أو الفلسفي لهذا الكون، وأنه مخلوق لله، وأن قوانينه سنن لله فيه لا تتبدَّل، فليس ما يجري فيه من باب المصادفات، ولا هو من فعل الطبيعة العمياء، وإنما هو صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء وقدَّره تقديرًا. وكذلك استخدام هذا العلم فيما ينفع الإنسانية لا فيما يضرُّها. أي ربط العلم بالإيمان والأخلاق.

وهل يضير العلم الطبيعي أن يقول مَن استخدمه ما قال سليمان حين جيء له بعرش بلقيس في لمح البصر، بواسطة «الذي عنده علم من الكتاب»، فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]؟ أو يقول ما قال ذو القرنين عندما أقام السدَّ العظيم: ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

يبدو أن تصوُّر الكاتب لأسلمة السلطة، وأسلمة المجتمع، وأسلمة المعرفة، لا يمتُّ بصلة إلى ما يدعو إليه تيار الوسطية الإسلامية، الذي هو التيار الأعمق جذرًا، والأقدم عهدًا، والأوسع انتشارًا.

فالتسوية بين التيارات التي ذكرها، ووصفها بالمعتدل والمتعصِّب والإرهابي، تسوية بين مختلفين أو مختلفات، كما تدلُّ العناوين ذاتها.

QaradawiBooks.com

لا مبرر للعلمانية في أرضنا:

ومن الملفات التي يجب أن تغلق ما ذكره الدكتور كمال أبو المجد في ندوة «الإسلام والعروبة» وهو: ملف العلمانية التي تفصل الدين عن الحياة والمجتمع، فقد نشـأت في أرض غير أرضنـا، وقوم غير قومنا، لظروف لا نظير لها عندنا.

إن الغرب نادي بالعلمانية ليواجه بها كهنوت الكنيسـة الغربية التي وقفت مع الجمود ضد الفكر، ومع الجهل ضد العلم، ومع الملوك ضد الشعوب، ومع الأغنياء والإقطاعيين ضد الفقراء والكادحين.

ونحن لا توجد لدينا بابوية ولا كهنـوت، ولا «رجال دين» ما حلُّوه في الأرض فهو محلول في السماء، وما عقدوه هنا فهو معقود هناك!

لقد بيَّنت في دراسة لي أن العلمانية في الغرب لها ما يبررها من فكرها الفلسفي منذ عهد أرسـطو، الذي يرى أن الله لا علاقة له بالعالم، لا يعلم فيه شـيئًا، ولا يدبِّر فيه أمـرًا، ومن فكرها الديني الـذي يذكر ظاهر نصِّه مؤكدًا قسمة الحياة بين الله وقيصر، وترك ما لقيصر لقيصر، وما لله لله!

أما العلمانية عندنا فهي ضد الدين، وضد فكر الأمة، وضد مصلحتها. وهي تجرِّد الأمـة من طاقـات هائلة كان يمكـن أن تفجرهـا العقيدة والشريعة، لو كانت العقيدة هي الموجِّهة، والشريعة هي الحاكمة.

وقد جرَّبت بعض البلاد الإسـلامية العلمانية، وقهرت شعوبها على الخنوع لها، بسيف الجبروت، وسوط العذاب، بدعوى اللحاق بالغرب المتقدِّم، والعالم المتطوِّر. فهل تقدَّمت وتطوَّرت حقًّا؟

إن أبرز مثل لذلك هو تركية أتاتورك، التي قلَّدت الغرب في كلِّ شيء، حتى في لبس القبعة، وتحريم الطربوش، ومنع الحجاب، وعطَّلت أحكام

QaradawiBooks.com

الشـــريعة القطعية، حتى في الزواج، والطلاق، والميراث، وشؤون الأسرة، وعزلت الأجيال عن تراثهـــا تمامًا حين ألغت الحـــرف العربي، وفرضت الحرف اللاتيني، وقطعت الصلة بالعالم الإسلامي عامة، وبالعرب والعروبة خاصة، حتى اعتبرت الأذان بالعربية جريمة. فماذا كانت النتيجة؟

لم تستطيع أن تقتلع جذور الإسلام، برغم حذفه من التعليم والثقافة والإعلام، وعاش معظم الشـــعب في صراع بين السطوح والأعماق، بين الجذور والأوراق، بين الماضي والحاضر بين العقيدة والواقع. وانتهت تركية العلمانية إلى ما عبَّرت عنه كاتبة تركيـــة بقولها: كنا أول دولة في الشرق، فأصبحنا آخر دولة في الغرب[١]!

بل إن الغرب نفســـه ـ برغم تهالك الدولة التركية على الارتماء في أحضانه والانتماء إليه ـ لم يعترف بتركية عضوًا في جســـمه، وجزءًا من حضارته، ولهذا لم يقبلها في السوق الأوروبية المشتركة، وقال في ذلك المستشار الألماني بصراحة: إن تركية تنتمي إلى حضارة غير حضارتنا!

وبذلك جســـدت تركية العلمانية قصة الغراب الـــذي حاول أن يقلد النسر، فلم يفلح أن يكون نسرًا، ولم يصلح أن يعود غرابًا!

تأكيد كرامة الإنسان:

ومما ينبغي التفاهـــم عليه والتواصي به: تأكيـــد كلِّ ما يرعى كرامة الإنسان، ويحترم فطرة الإنسان، وينمِّي خصائص الإنسان.

إن الحكماء والبصراء المنصفين من مفكري الغرب وجهوا النقد العنيف إلـــى حضارتهم، لأنها أعلت من شـــأن الجمـــاد أو المادة،

(١) الكاتبة التركية خالدة أديب.

QaradawiBooks.com

وهبطت بقيمة الإنسان. فعلينا أن نؤكِّد ذلك ونتبنَّاه، ونجعل من ثقافتنا الإنسانية واقعًا حيًّا في أرضنا ومجتمعاتنا، ونمكِّن لها في حياتنا العقلية والوجدانية، حتى تؤدِّي دورها المطلوب في البناء والإعلاء.

لقد سقطت دولة الشيوعية في بلادها الأم، برغم ما تملك من طاقات علمية وتكنولوجية ضخمة، وما لديها من ترسانة عسكرية هائلة، بما فيها الأسلحة الاستراتيجية والنووية، وما عندها من موارد مادية وبشرية وفيرة. ومع ذلك كله أنهار هذا العملاق الضخم، وهوى فجأة، وقبلها كان يهدد العالم كله بغزو أفكاره وفلسفته المادية.

وقد أبان هذا الانهيار أن ثقافته كانت هشَّة في حقيقتها، وإن كانت في ظاهرها ثقافة متماسكة لها فلسفتها في الوجود، وفلسفتها في المعرفة، وفلسفتها في القيم، وفلسفتها في تفسير التاريخ، وقد عبَّرت عن هذا كله مناهج، ومدارس وجامعات، وجنِّد لخدمته علماء وأدباء ودارسون، وأجهزة إعلامية جبارة، ورصدت لترويجه ملايين، بل بلايين الروبلات.

وما ذاك إلا لأن هذه الثقافة لم تلائم فطرة الإنسان، ولم تراعِ خصائص الإنسان، لأنها لم تعرف حقيقة الإنسان. نظرت إليه باعتبار أنه «كائن اقتصادي» فقط. ينتج ويستهلك. ولا روح له، ولا خلود له، ولا رسالة له وراء إشباع غرائزه الدنيا. ورأت أن «الإنسان يقوم وحده» في هذا الكون، لا ربَّ يحكمه، ولا غاية من خلقه. وقد عبَّرت عن ذلك بقولها: «لا إله والحياة مادة»! ومن ثم كان الدين عدوًّا لها، وكان الإلحاد ركيزتها.

وسقوط دولة الاشتراكية وذهاب ريحها، لا يعني أن الدولة العلمانية الليبرالية في غرب أوروبا وأمريكا دولة قوية، إنها قوية في الظاهر، كما

QaradawiBooks.com

كانت الدولة الاشـتراكية تبدو لنا للناس كذلك. ولكن السوس ينخر في كيانها من الداخـل. وثقافتها لا تتناقض في جوهرهـا تناقضًا كبيرًا، مع الثقافة الاشـتراكية، إن كلتيهما تنبع من مصدر واحد هو العقل البشري المادي المحـدود، ولا تفكِّر إلا فـي حاضر هذه الدنيـا، ولا تتَّخذ من الوحي مصـدرًا، ولا تعترف بالله حاكمًـا، ولا مدبرًا. كلتاهما تسـتغنى بالأرض عن السماء، وبالعقل عن الوحي، وبالدنيا عن الآخرة، وبالإنسان عن الله ﷻ، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

لقد عبر «ليوبولد فايس» «محمد أسد» عن ذلك بقوله: إن الحضارة الغربية لا تجحـد الله جحودًا صريحًا، ولكن ليـس لله مكان في نظامها الفكري الحالي[١].

المحرقة التي تُعَدُّ لِدُعاة الإسلام!:

إني ألمح في الأفق بوادر، بـل نذرًا خطيرة. ففي «غرف العمليات» في عواصم الغرب الكبـرى، تُعَدُّ الخطط المدروسـة ـ والتي تغذيها جامعات وجماعات ومراكز بحوث أكاديمية علمية، وقد أنفق عليها عشرات بل مئات الملايين بسـخاء ـ تعد هذه الخطط الاسـتراتيجية ـ كما يقولون ـ لحرب ضروس، هدفها ضرب هذا العملاق الذي تحرَّك بعد طول رقود أو حبس، وهو الإسـلام الذي ظهر بقوة، وأثَّر بسـرعة في الحياة الفكرية والسلوكية والاجتماعية والسياسية للمسلمين فيما يسمَّى «المد الإسلامي» أو «البعث الإسلامي» أو «الصحوة الإسـلامية». الخطة الآن تهيأ ـ بل هُيئت بالفعل ـ لضربه وسحقه، تحت عناوين مضلِّلة أو مصطلحات هلامية غير محدَّدة.

(١) من كتاب: الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد صـ ٣٩، ترجمة د. عمر فروخ، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٦٥م.

QaradawiBooks.com

وذلك مثل عناوين: «الإرهاب»، و«التطـرف»، و«الأصولية». وليس المقصود هو ضرب التطرف ولا الإرهاب، فهم الذين مهَّدوا لهما السبل، وهم الذين قاوموا الفكر الإسلامي الذي يؤمن بالحوار والاعتدال، ولم يفسحوا له المجال ليعمل كغيره تحت مظلَّة القانون. حتى إنهم سمحوا للفكر الشـيوعي ـ المناقض بصراحة لعقيدة الأمة ـ أن يعبِّر عن نفسـه بصورة رسمية، ورفضوا كلَّ الرفض أن يعطوا هذا الحقَّ للإسلام، المعبِّر الحقيقي والوحيد عن ضمير هذه الأمة!

وحين دخل الإسـلاميون معهم في ممارسة الديمقراطية، واحتكموا إلى صناديق الانتخاب، وظهر أن الشعب قد اختارهم، كما في الجزائر، قطعوا الطريق عليهم، وتدخَّلوا بالقوة لإلغاء الديمقراطية كلِّها! وقد قال المفكر الكبير الأسـتاذ رجاء جارودي عندما شـارك في نـدوة «الثقافة العربية» بالدوحة: إن الغرب قد قسَّـم المسـلمين إلـى صنفين: أخيار طيبيـن، وأشـرار خبثاء. فالأخيـار الطيبـون الذين يخضعـون لأوامر وتوجيهات البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي. والأشرار الخبثاء هم الذين يرفضون ذلك.

ونقل عن أحد الأدباء السـاخرين قوله: إن الشـعب إذا صوَّت ضد الحكومة يجب أن يُحلَّ الشـعب، لتبقى الحكومة! قال جارودي: وهذا بالضبط ما حدث في الجزائر.

إن الديمقراطية مقبولة، بل مطلوبة، بل لازمة، إذا أتت بالعلمانيين واللادينيين، ولو بانتخابات مكشوف زيفها، أما إذا أتت بالإسلاميين، فالشـعب لم ينضج بعـد، والديمقراطية غير صالحة لـه. وقاتل الله النفاق!

QaradawiBooks.com

إنها «محرقة» تُعَدُّ بإحكام للصحوة، بل للأمة الإسلامية، تديرها وترسم معالمها وخطواتها أيد خفية من هناك، من بعيد، وراء «الكواليس» وتنفذها أيد ووجوه عربية مسلمة، هي التي تظهر على خشبة المسرح.

إن هذا المارد خطر ماحق، فلا بدَّ من العمل الجاد المخطط لإعادته إلى القُمم، كما كان لمدَّة قرن أو قرنين من الزمان. ولا بدَّ من الاستعانة بكلِّ القوى من يمين ويسار، وبكلِّ الخصوم من غرب وشرق، وبكلِّ مَن يهدِّد المارد الإسلامي مصالحهم في الداخل والخارج، لمحاولة الإمساك به، طوعًا أو كرهًا، حتى ندخله القُمقم: قمقم الغفلة والهمود وغياب الوعي.

ولا بدَّ من إعادة النظر في الأدوات الثلاث الجبارة التي تصنع الأفكار والميول والأذواق والمشاعر، وهي: التعليم، والإعلام، والثقافة. وهي الأسلحة الفعَّالة في تلك الحرب الضروس التي بدأت بالفعل، بصورة وأخرى، وفي بلد وآخر.

فلسفة تجفيف المنابع:

والفلسفة التي تقوم عليها هذه الأدوات أو هذه المؤسسات هي ما أسماه بعضهم بصراحة: سياسة «تجفيف المنابع». يقصدون: منابع التدين الإيجابي المتحرك المحرِّك. فكلُّ ما يدعو إلى تعميق الإيمان برسالة الإسلام ـ بوصفه عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ـ وكلُّ ما يدعو المسلم إلى الاعتزاز به والغيرة عليه، والموالاة لأوليائه، والمعاداة لأعدائه، وكلُّ ما يدلُّ على أصالة المسلم واستقلال شخصيته، وتميزه فردًا، وتميز أمته بين الأمم، بوصفها «أمة وسطًا»، وكلُّ ما يوحي بأستاذية الأمة وشهادتها على الناس،

QaradawiBooks.com

وكلُّ ما يذكِّر بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة في الدين، والتواصي بالحق والصبر، وكلُّ ما فيه حثٌّ على الجهاد في سبيل الله، ووجوب إعداد ما يُستطاع من قوَّة لإرهاب عدو الله وعدو الأمة، وكلُّ ما يشير ـ ولو من بعيد ـ إلى وجوب الحكم بما أنزل الله، ووصف مَن تركه بالكفر أو الظلم أو الفسوق، أو بها جميعًا، وكلُّ ما يومئ إلى مقاومة الجور والانحراف، ولو بكلمة حقٍّ عند سلطان جائر، وكلُّ ما يدعو إلى احتشام المسلمة والتزامها بالحجاب الذي فرضه الله عليها بمحكمات النصوص من القرآن والسنة، وكلُّ ما يدعو إلى قوامية الرجال على النساء، كما نصَّ على ذلك كتاب الله، وكلُّ ما يحذِّر من غدر اليهود، وكيد الكافرين. كل ذلك وأمثاله خطر يجب أن يُقاوم، ووباء يجب أن يُحاصر.

وبعبارة أخرى يجب أن «تطهَّر!» مناهج التعليم وكتبه، وبرامج الإعلام، وأدوات الثقافة والتوجيه والترفيه، من كلِّ ما يتضمن تلك المعاني التي أشرنا إليها، وما شابهها.

بل يجب «تفريغ» تلك المؤسسات وأجهزتها المتنوعة من كلِّ ما يوحي بأن الإسلام هو الحق، وما عداه باطل، وأنه صراط الله المستقيم، وما عداه سبلٌ فيها هدى وضلال، وصواب وخطأ.

فإن أخطر ما يفرزه التدين ـ المشدود إلى القرآن والسنة وفَهم سلف الأمة ـ أنه ينشئ عقلية تؤمن أنها تملك وحدها «الحقيقة المطلقة»! ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وهذا أصل التعصب وجرثومته.

والمنهج المطلوب اتباعه في المرحلة الجديدة: أن نغرس في نفوس الشعب ـ وبخاصة الناشئة ـ ما سمَّوه «نسبية الحقائق»، فليست هناك حقيقة بإطلاق، إنما هناك حقيقة لدى هذا الشخص، أو في هذه البيئة أو

QaradawiBooks.com

في ذلك العصـــر. وقد تكون هذه الحقيقة نفســـها أســـطورة زائفة لدى شخص آخر، أو في بيئة أخرى، أو عصر آخر.

قد تقول باعتبارك مسلمًا: إن التوحيد حقيقة لا ريب فيها، دلَّت عليها الفطرة، ودلَّ عليها العقل، ودلَّ عليها الوحي.

ولكن النصرانـــي يقول بالتثليث، وأن الله ثالث ثلاثة، والهندوســـي يقول بتعدُّد الآلهة، وأن الإله قد يَحـــلُّ في بعض الحيوانات كالبقرة، أو بعض الجبال، أو بعض الأنهار. فما الذي يجعل قولك أولى من قولهم؟ ودعواك أحق من دعاويهم؟ ودينك أحرى من دينهم؟

وقد ترى باعتبارك مســـلمًا: أن محمدًا رسول الله، وأن القرآن المنزَّل عليه كلام الله، وأن الشريعة التي جاء بها من عند الله.

ولكن هناك آخرون من أصحاب الأديان المخالفة، أو ممَّن لا يدينون بدين، يرفضون هـــذا كلَّه، ويقولون في محمد وكتابه ودعوته وشـــريعته أقاويل أخرى. ولكلٍّ رأيه ووجهته، وأدلته التي يســـتند إليها. فلا داعي للغضب من هؤلاء، ولا للإنكار عليهم، فمَن يدري: لعل ما تحسبه الحق الذي لا ريب فيه، يكون هو الباطل الذي لا ريب فيه!

وقد ترى ـ بحكم ثقافتك الإسلامية ـ أن بعد هذه الحياة الفانية حياة أخرى، تُنصَب فيها الموازين، وتُنشـــر فيها الدواويـــن، وتوفَّى كلُّ نفس ما كسبت، وتكافأ بما عملت، ثوابًا أو عقابًا، جنة أو نارًا.

ولكن هناك آخرون ينظرون إلى الحياة الأخرى نظرة مغايرة، فيقولون بتناسخ الأرواح، أو ببعث روحي لا مكان فيه لنعيم حسيٍّ، ولا لعذاب ماديٍّ. بل يوجد مَن لا يؤمـــن بالآخرة ولا بالخلود قط، بل مَن لا يؤمن بالدين من أصله، ويـــراه أكذوبة اخترعهـــا الأغنياء لإلهـــاء الفقراء، أو

QaradawiBooks.com

الحكام لتخدير المحكومين، ويردِّدون ما قاله الفيلسوف المادي: ليس صوابًا أن الله خلق الإنسان، بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق الله[١]! وليس الذي يقول مثل تلك المقولات من عوام الناس وأغبيائهم، بل من خاصة مثقفيهم وأدبائهم وفلاسفتهم، فكيف تعتبر قول هؤلاء باطلًا كله، وقولك أنت هو ـ وحده ـ الحق المبين؟!

إن الذي يليق بك أيها المثقف العصري ـ أن تتَّسم برحابة الأفق، وتنظر إلى الحقائق ـ مهما كان مصدرها ـ باعتبارها أمورًا نسبية، تختلف باختلاف الزمان والمكان والإنسان.

هذا هو المقصود من المعركة الجديدة مع «الأصولية الإسلامية»: تجفيف المنابع! إنها الفلسفة «السفسطائية» عادت من جديد. تريد أن تفرض نفسها على أمة الإسلام. وهي تملك سيف المعز وذهبه، وتملك ما لم يملكه المعز، ولم يكن ليحلم به، وهو: الأجهزة المقتدرة في التعليم، والإعلام، والثقافة!

والمعركة الكبرى اليوم في أكثر من بلد عربي: معركة التعليم، وتفريغه من كلِّ ما ينشئ الروح الإسلامية، والعقلية الإسلامية، والنفسية الإسلامية، وتهيئة مناخ فكري ونفسي جديد، يقبل «التطبيع» مع اليهود، والخضوع لإسرائيل، والانحناء لهيمنة «النظام العالمي الجديد» كما يسمُّونه. بما يحمله من أحقاد علينا، وأطماع فينا، واستخفاف بنا، وإذلال لكرامتنا، كما لمسنا ذلك في كلِّ قضايانا من قضية فلسطين إلى قضية البوسنة والهرسك.

(١) هي الفكرة التي قام عليها كتاب: أصل الدين لفيورباخ، ترجمة د. أحمد عبد الحليم عطية، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

ولم يقف الأمر عند تفريغ المناهج والكتب من الإسلام الإيجابي المحرِّك، فقد يعوِّض المدرس المؤمن نقص المنهج ومقرَّر الكتاب، بما يبثُّه من روح، وما يشيعه من فكر، وما يدلُّ عليه من سلوك.

ولهذا كانت الخطوة اللازمة هي تفريغ المدارس والمعاهد والمؤسسات التعليمية من العناصر الإسلامية الملتزمة، وإقامة مذبحة كمذبحة القلعة المشهورة، لهؤلاء «الأصوليين» بإبعادهم عن التعليم كلِّه، ليخلو الجوُّ للمنافقين والوصوليين والعلمانيين، ليفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ويحوِّلوا وجهة الجيل من المسجد إلى المسرح والسينما، ومن تلاوة القرآن إلى قراءة القصص، ومن الحماس للإسلام والجهاد إلى الحماس للكرة والنوادي، ومن احترام أهل العلم والتقوى والجهاد إلى تمجيد أهل الغناء، والرقص والتمثيل. وبذلك تختل القيم، وتضطرب الموازين.

والهدف من ذلك كله واضح جلي لكلِّ ذي عيني: غسل مخ الجيل الحاضر، والأجيال القادمة، وصنع إسلام زائف لها، لا صلة له بإسلام القرآن والسنة، ولا بإسلام سلف الأمة، إسلام «تفصله» الحكومات على قدها، ويعمل فيه «مقص الرقيب» ما يشاء عمله، من القطع واللصق، والحذف والإضافة، والتقديم والتأخير.

حتى المسجد لم يعد خادمًا للإسلام:

بقي جهاز مهم لا يتبع الإعلام ولا الثقافة ولا التعليم، وهو المسجد، وقد كان فيما مضى هو الملاذ الوحيد الباقي لأحرار العلماء والدعاة، ليقولوا فيه كلمتهم، ويبلغوا دعوتهم، وخصوصًا المساجد الأهلية التي لا تخضع لهيمنة الحكومة، وإشراف وزارات الأوقاف الرسمية.

QaradawiBooks.com

ولكن الحكومات تنبَّهت إلى خطر هذه المؤسسة وتأثيرها على فكر الشعب ووجدانه، إذا تهيَّأ للمسجد عالم متمكِّن صاحب رسالة، إنه يستطيع أن يقنع العقول، ويوقظ المشاعر، ويبعث العزائم، ويحرِّك الجماهير في الاتجاه الذي يؤمن به، ويكون مدرسة دينية مستنيرة حرَّة الإرادة والفكر، تأخذ عنه وتتلمذ عليه، وفي هذا خطر جسيم.

فكان ما تواصت به وزارات الأوقاف والشؤون الدينية في عدد من البلدان التي اتَّخذت من الإسلام الإيجابي موقف الخصومة الصريحة، وهو: إبعاد العناصر المتحرِّكة المحرِّكة من المساجد، وجعل المساجد كلِّها تحت سلطان الدولة، أو دولة السلطان! وتعيين أئمة وخطباء لها يدورون في فلك الحكم، يمدحون ما يمدح، ويذمُّون ما يذم، وإن أمر بالمنكر ونهى عن المعروف، إن لم يكن اقتناعًا، فخوفًا وطمعًا.

وهنا اكتملت حلقات السلسلة أو الطوق الذي يطوق الفكر الإسلامي الراشد، الملتزم بهدى الله تعالى، وهدي رسوله ﷺ.

ـ هل ينجحون؟!

ومع هذا أستطيع أن أقول بلا تردد: إن الإسلام أعمق جذورًا، وأقوى سلطانًا، وأعزُّ نفرًا، وأكثر جندًا، مما يظنُّ الظانُّون. وأنه ـ رغم هذا التخطيط الماكر، والكيد المبيت ـ ستظل هناك ألسنة صدق، وأقلام حقٍّ، وأيدي عطاء، ومصابيح هداية، ومفاتيح خير، وجند دفاع عن الإسلام، يظهرهم الله من حيث لا يحتسب أحدٌ، يحملون أمانة الكلمة، ويؤدُّون رسالة الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ولقد جرَّب الاستعمار، وجرَّب ورثته من الملكيات والجمهوريات ـ على اختلاف الاتجاهات الليبرالية والثورية ـ الدخول في معركة مع

QaradawiBooks.com

الإسلام ودعاته، واستخدموا ما يحلُّ وما لا يحلُّ من أساليب البطش والإيذاء، فشربت سياطهم الدم، ونهشت كلابهم اللحم، ودقَّت آلات تعذيبهم العظم، وقتل مَن قتل، وشرِّد مَن شرِّد، ونكِّل بمَن نكِّل، ولكن الله تعالى أخرج الحي من الميت، وأبرز من الأجيال التي ربوها في حضانتهم، وظنوا أنهم صنعوها على أعينهم، «جيل الصحوة» الذي شرَّق وغرَّب، وأثبت وجوده في عالم الفكر، وعالم الجهاد، وعالم الاقتصاد، وعالم الدعوة، وعالم السلوك.

لا أمل إذن في انتصار تيار التغريب العلماني على الإسلام، وإن استعان بالخبرات العالمية، والمكايد الصليبية، واليهودية، والوثنية، المتربصة بالإسلام، وأنفق العشرات أو المئات من الملايين في معركته تلك، فهي معركة خاسرة في النهاية، ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

كل ما في الأمر أن المسيرة ستتعثَّر بعض الوقت، وأن الشهداء سيقطون في سبيل الله، وأن المحن ستظلُّ تصقل الناس، وتميز الخبيث من الطيب، ولكن القافلة لن تتوقَّف، والعمل لن ينقطع، والفجر لن يموت، وإن طال الليل، واحلولك الظلام. سنة الله التي لا تتخلَّف، مع الرسل والأنبياء وأصحاب الدعوات، وحملة الرسالات: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

QaradawiBooks.com

يستطيع هؤلاء أن ينجحوا في حالة واحدة: إذا حذفوا القرآن الكريم، فلم يعد تحفظه الصدور، ولا تتلوه الألسنة، ولا تحويه المصاحف! كيف وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وحذفوا كذلك البخاري ومسلمًا وسائر كتب الحديث، ودواوين السنة وكتب السيرة والمغازي من علوم الأمة.

وحذفوا أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا وأبا عبيدة وخالدًا وطارق بن زياد وصلاح الدين وقطز ومحمدًا الفاتح وعبد القادر الجزائري وعمر المختار والخطابي وأمثالهم من ذاكرة الأمة.

وحذفوا أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وابن حنبل وزيد بن علي وجعفرًا الصادق وجابر بن زيد، وابن حزم وابن تيمية والغزالي وغيرهم، وغيرهم من عقل الأمة.

وحذفوا ابن عبد الوهاب والسنوسي والمهدي والأفغاني ومحمد عبده، ورشيد رضا وحسن البنا والمودودي وسيد قطب والسباعي وغيرهم، وغيرهم من حياة الأمة.

وحذفوا وحذفوا وحذفوا، إلى أن يحذفوا الأمة نفسها!

وهيهات! إن هذه الأمة لن تموت[1]، لأنها أمة الرسالة الخالدة، إنها خاتمة الأمم التي تحمل خاتمة الشرائع لخاتم النبيين، فهي باقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

بيد أن مما يجب تأكيده هنا: أن هذا المناخ المشبع بروح العداء الأسود للإسلام، والضغط المكثف على علمائه ودعاته، والمقاومة

(١) انظر كتابنا: من أجل صحوة راشدة صـ ١٣٧ ـ ١٤٣، فصل: هذه الأمة لن تموت.

QaradawiBooks.com

المستميتة لصحوته، المستخفَّة بماضيه وحاضره ومستقبله. هذا المناخ المكفهر هو أعظم مولِّد للتطرف والعنف والإرهاب، والانفجارات المتنوعة الصور، المختلفة الأساليب، فإن العنف لا يثمر إلا عنفًا مثله أو أشد منه، والضغط إذا زاد لا يولِّد إلا الانفجار. هذا قانون من قوانين الله في الخلق لا تمكن مقاومته.

ولا يكفي في إيقاف هذا الذي نسمِّيه: التطرف أو العنف أو الإرهاب، أيًّا كان سببه، وأيًّا كان موقفنا منه، مجرد إصدار الفتاوى الرسمية، والدعايات الإعلامية، ونشر الكتب العلمانية، التي يضعون عليها ختم «التنويرية»، وإعلاء صوت التغريب واللادينية على صوت الإسلام الحق، بل هذا كله يزيد النار اشتعالًا، ويدفع لها بالوقود بعد الوقود.

وإذا استمرَّ هذا الوضع، فإن المعركة ستكبر وتطول، لأنها ستكون مع الأمة قاطبة، وستفقد الأنظمة أساس شرعيتها أمام شعوبها، وستتَّسع المقاومة لهذا الكفر البواح، حتى تمسي الأمة كلها «جماعة إسلامية»!

التدين الذي يروجون له:

هناك نوع من التدين مباح، بل مطلوب ومرغَّب فيه، تُدَق له الطبول، ويحرق له البخور، وهو التدين الذي ترعرع في عهود التراجع والتخلُّف، ثم في عهود الاستعمار من بعده، ثم في عهود الحكم العلماني الذي ورث الاستعمار.

إنه التدين الذي يروِّج الأساطير، ويخدِّر الإرادة، ويشلُّ الفكر، ويجمد الحركة، ويجمع الناس حول أضرحة الأولياء، وموالد الأتقياء، ولا يدخل في «السياسة الملعونة» إلا إذا كانت سياسة الحكومة! لا يهتمُّ فيه المتدين بأمر المسلمين، بل يقول: نفسي نفسي. فشعاره: دع الخلق

QaradawiBooks.com

للخالق، واترك الملك للملك! إذا سُئل عن منكر شاع، أو ظلم استشرى، كان جوابه: أقام العباد فيما أراد!

إنه التدين الذي ترسم الحكومة خطوطه، وتنسج خيوطه، وتصنع دعاته، وتهيئ رعاته، فهو تدين «مستأنس» أليف، سلس ظريف، يسير في ركاب الدولة حيث سارت، ويدور معها كيفما دارت. إذا ادَّعت قال لها: صدقت. وإن دعت قال: آمين. المعروف ما عرفته، والمنكر ما أنكرته، فهي المرجع المأمون، بل المصدر المعصوم!

يقوم هذا اللون من التدين على الجبرية في العقيدة، والشكلية في العبادة، والسلبية في الأخلاق، والمظهرية في السلوك، والجمود في الفكر، والتقليد في الفقه، والنفاق في السياسة.

لا يعتمد في ثقافته على المصادر الأصيلة الموثقة، بل جلُّ اعتماده على الإسرائيليات والحكايات، والرؤى والمنامات، والأحاديث الضعيفة، بل الموضوعة، والروايات الواهية، والتفسيرات المردودة.

وإذا أخذ عن علماء العصر، فلا يولِّي وجهه شطر العلماء العاملين، من أهل العلم والورع والاعتدال، وأهل الدعوة والتجرُّد والثبات، بل معتمد هذا التدين المشبوه: هو علماء السلطة، وعملاء الشرطة.

هذا التدين الفردي الانعزالي السلبي الهامد، هو الذي تتباكى الأقلام العلمانية اليوم على فوات عصره الذهبي، وانقضاء أيامه المشرقة، ويعتبرونه هو «الأصل» الذي طرأ عليه هذا التدين «الأصولي» الشرير!

وهو الذي يتنادون بضرورة إحيائه وبعثه من مرقده، وإطلاق العِنان له ليصول ويجول، في المساجد والزوايا، والصحف والإذاعة والتلفاز، ومطاردة ذلك التدين «الجديد» الخبيث.

QaradawiBooks.com

وأغرب من ذلك تلك المحاولات الماكرة من جماعة العلمانيين، لاعتبار فترة غياب الهوية، وتذبذب الأصالة، وظهور تيار التغريب، وهيمنته بالقوة والحيلة على أزمَّة التعليم والتوجيه والإعلام والتثقيف ـ طوال فترة الاحتلال وما أعقبه ـ اعتبار هذه الفترة بما أفرزته، وما خلفته هي الأصل والأساس، وما خلفها بعد ذلك يكون شذوذًا عن القاعدة.

وهذا مما لا ينقضي منه عجب العاجب: أن تكون فترة الاغتراب عن الهوية، والانقطاع عن الجذور، والارتماء في أحضان الدخيل، والسير في ركاب الغازي ـ بعسكره وقيمه وفكره وثقافته ـ هي الأصل الأصيل والقاعدة المقررة. وإذا قُدِّر للأمة أن تصحو من سكرة، وتستيقظ من غفوة، تحاول أن ترجع إلى الذات، وتعود إلى الأصول، وتحيي ما مات من قيمها وآدابها، وتجدِّد ما بلي من ثقافتها وحضارتها، وتحكم ما حملت على تركه من دينها وشريعتها، أو تقوِّم ما اعوجَّ من تفكيرها وسلوكها، قال لها قائلون: هذا فَهم جديد على مجتمعنا، بل هذا فكر دخيل علينا، وربما كان وراءه أيد أجنبية تحرِّكه من وراء ستار!

مَن الرابح من وراء ذلك؟

وهنا سؤال يفرض نفسه، وهو: مَن الرابح الحقيقي من وراء هذه المعركة الشرسة ضد صحوة الإسلام ودعوته وحركته؟

بالتأكيد ليست هي أمة العرب ولا الإسلام. فإن الأمة لا تكسب باقتلاع جذورها، وتبديد طاقاتها، وتشتيت قواها الضاربة، وتمزيق شملها.

إن أمتنا هي الخاسرة بلا مراء، من وراء هذا الصراع المر الذي يُدار لحساب غيرها بيقين. إنها الخاسرة على كلِّ صعيد: أخلاقي أو اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي.

QaradawiBooks.com

وخسارتها لأسباب معلومة لا تحتاج إلى تفلسف:

١ ـ لأنها إذا انفصمت عن دينها تصبح أمة بلا جذور، وإن أي شجرة تُفصَل عن جذورها لا يمكن أن تعيش، ومن المؤكَّد أن جذور هذه الأمة في دينها.

٢ ـ ولأنها إذا ضعف دينها، ووهن انتماؤها للإسلام، وتمسُّكها به، فقدت المفجِّر الأول لطاقاتها المكنونة، وقدراتها المختزنة.

وقد عرفنا من قراءة التاريخ، واستقراء الواقع: أن الدين هو المحرك الأول لأمتنا، والقادر على بعثها من الهمود، وإخراجها من الجمود والخمود. والأدلة على ذلك أكثر من أن تُحصر.

٣ ـ ومن ناحية أخرى، فإن الطاقات التي كان ينبغي أن توظَّف في سبيل البناء والتنمية والتقدُّم الحضاري، غدت توظَّف في الهدم لا البناء، وفي التفريق لا الجمع، وتغليب فئة على أخرى، أو معسكر على آخر. بل في تغليب الأقلية المغتربة على جمهور الأمة، وبهذا تتبدَّد الطاقات، وتهدر الإمكانات. بل تعمل في الطريق المضاد للأهداف الحقيقية للأمة.

٤ ـ وبعد ذلك كلِّه، فإن هذا الصراع المستمر بين عقيدة الأمة ومواريثها الدينية والثقافية ـ التي تعتبرها جوهر حياتها، ومبرر وجودها وبقائها، وبين القيم والمفاهيم الدخيلة عليها ـ لن يدع سفينتها ترسو على بر الأمان، بل ستظل تتأرجح وتضطرب أمام عصف الريح، وهيجان الموج، ومعاكسة التيار، مما يعرضها لأخطار لا يعلم عواقبها إلا الله.

إن القضية خطيرة والله، بل هي في غاية الخطورة، إذا تمَّت على ما أراد الذين خطَّطوا لها، أو بقيت مصدرًا للاستنزاف الدائم، فهل من

QaradawiBooks.com

فئة من العقلاء تتنادى بتدارك الأمر وتفادى الخطر، وإطفاء الشرر، قبل أن يفلت الزمام، ويعز الخلاص؟

أرى خلَلَ الرمادِ وميضَ نارٍ ... ويوشك أن يكونَ لها ضرام
لئن لم يطفها عقلاءُ قوم ... يكون وقودها جثث وَهام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها كلام[1]

إن الرابح الحقيقي من وراء هذا الجذب والشدِّ، والجزر والمدِّ، هو القوى المعادية لأمتنا، التي تحركها الأحقاد القديمة، والأطماع الجديدة، والمخاوف الدائمة، من ظهور الإسلام مرة أخرى، في صورة أمة تملك القوة البشرية، والقوة المادية، والقوة الروحية، والموقع الجغرافي، والبعد التاريخي، والعمق الحضاري، ولديها من الحوافز ما ليس لدى أمة أخرى، وعندها ما تقدمه للبشرية الحائرة من كلمات الله، وهداية السماء.

وفي مقدمة هذه القوى: إسرائيل، التي ستقر عينًا، وتطيب نفسًا، بما يجري بجوارها، من عزل الإسلام عن زمام القيادة، وتنحيته عن التوجيه والتأثير والتجميع والتجنيد، في حين تحرك هي شعبها باسم الدين، وتجمعهم على التوراة. وبهذا يدخلون المعركة معنا، ومعهم التوراة وليس معنا القرآن، ويتنادون باسم موسى، ولا نتنادى باسم محمد. ويقولون: الهيكل، ولا نقول: الأقصى! ويحترمون السبت، ولا نحترم الجمعة! فالدين عندهم شرف، وعندنا تهمة! ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وإسرائيل اليوم في أسعد أوقاتها، فقد اتفقت مع الكثيرين ممن كانوا خصومها بالأمس القريب، على ضرب الصحوة الإسلامية. وغدت

(١) من شعر نصر بن سيار، انظر التذكرة الحمدونية (٤٣٢/١)، نشر دار صادر، بيروت.

QaradawiBooks.com

تعرض نفسها على كلِّ القوة المعادية للإسلام لتتعاون معها في مواجهة «الأصولية الإسلامية» الناشزة[١].

هكذا وقفت مع الصليبية في الغرب، ومع الوثنية في الشـــرق، فهي عون للصربيين ضد أهل البوســـنة والهرسك، وعون للهندوس ضد أهل جامو وكشمير.

وقد زار وزير خارجية إســـرائيل «شـــمعون بيريز» الهند، وأعلن لهم بكلِّ صراحة استعداد بلاده للتعاون معها ووضع كل خبراتها وإمكاناتها ضد خصومها من الإسلاميين!

* * *

غير مرخصة للطباعة

(١) قد برز هذا بوضوح أكثر وأصرح، بعد الاتفاق المشؤوم المسمى: اتفاق غزة وأريحا.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

خـاتـمـة

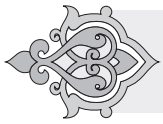

ـ محاور التقاء:

أحسب بعد هذه الفصول أن هناك محاور يمكن أن يلتقي عليها المخلصون ممن يُحسبون من دعاة الصالة، ومَن يحسبون من دعاة المعاصرة. بحيث يتفق عليها الطرفان، ويغلقون ملفات الجدل حولها.

(أ) فقد تبين لنا أن لا تناقض بين العروبة والإسلام في ثقافتنا، إلا أن تحرف العروبة حتى تكون ملحدة أو علمانية معادية للإسلام، أو يحرف الإسلام حتى يكون شعوبيًّا معاديًا للعروبة.

(ب) كما تبين لنا أنه لا صراع في ثقافتنا بين العلم والدين، أو بين العلم والإيمان أو بين العقل والنقل. فالعلم عندنا دين، والدين عندنا علم، والعلم دليل الإيمان، والإيمان ملاك العلم. العقل عند علمائنا أساس النقل، والنقل نفسه يشيد بالعقل، ويحتكم إليه، ولا تعارض عندنا بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

(جـ) لهذا يجب أن نعمل جميعًا على تكوين العقلية العلمية، وتطوير المؤسسات العلمية، وتهيئة المناخ العلمي، حتى تدخل الأمة عصر التكنولوجيا المتطورة بخُطًا ثابتة. كما يجب أن نعمل معًا في الوقت ذاته

QaradawiBooks.com

على إحياء معاني الإيمان، وتجديد أخـــلاق الإيمان، والوقوف في وجه تيار المادية واللادينية والإباحية.

(د) ومما تبيَّن لنا كذلك أنه لا تعارض بين الأصالة الحقة والمعاصرة الحقة، إذا فُهمت كلتاهما على حقيقتها. فنستطيع أن نكون معاصرين إلى أعلى مستويات المعاصرة، وأن نبقى كذلك أصلاء حتى النخاع.

إنما تتعـــارض الأصالة والمعاصـــرة، إذا فُهمت الأصالـــة على أنها الاحتباس الاختياري في ســـجن الماضي، والمعاصرة على أنها الدوران في رحى الغرب.

لهذا يجب أن نتفق على رفض اتجاهين متطرفين:

الاتجاه الأول: الذي ينتهـــي بالأصالة إلى الجمود والتحجُّر، ورفض كل جديد، ومقاومة التجديد في الدين، والاجتهاد في الفقه، والإبداع في الأدب، والابتـــكار فـــي فنون الحضـــارة، وإبقاء كل قديـــم على قدمه، والتسوية بين وحي الله تعالى وأفكار المســـلمين، وإضفاء القداسة على تراث السابقين كله، ومعاداة كل نزعة إلى تطوير الحياة والمجتمع، وإن كانت على أسس إسلامية، وحظر الاقتباس من الآخرين، ولو كان نافعًا للمسلمين، غير مخالف لشريعتهم.

والاتجاه الثاني: اتجاه الذين ينحون بالمعاصرة نحو الفناء في الغرب، واتباع ســـننه «شـــبرًا بشـــبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلوه»، ولا يكتفون بأخذ العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة والتنظيم منه، واقتباس كل ما تنهض به الحياة، ممـــا لا يتعارض مع ديننا وقيمنا وشريعتنا، بل هم يصرون على نقل الأنموذج الغربي إلينا بكل عناصره

QaradawiBooks.com

ومقوماتــه، وبخاصة جــذوره الفلســفية، ومفاهيمه الفكريــة، ومجاليه الأدبية، وتقاليده الاجتماعية، وقوانينه التشْريعية، ومؤثراته الثقافية.

إن كلا الاتجاهيــن مرفوض، فأولهما يمثل الإفــراط، والآخر يمثل التفريط، ولا خير في واحد منهما، إنما الخير في التوسط والتوازن.

(هـ) وقبل ذلك كله، يجب أن نشيع روح التسامح بين المختلفين، سواء أكان اختلافًا في الدين أم في المذهب، أم في الفكر أم في السياسة. وأن نفتح باب الحوار العلمي الراقي، الذي ســماه القرآن «الجدل بالتي هي أحسن»، مع التركيز على نقاط الالتقاء والاشتراك، لا مواضع التمايز والاختلاف، مســتهدين بقــول الله تعالــى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تعقيب الأستاذ الدكتور محمود قمبر[١]

ليسمح لنا شيخنا الكبير فضيلة الأستاذ يوسف القرضاوي أن نقدم ـ على عادة السلف ـ حاشية متواضعة بهامش من دراسته القيمة: «الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة».

والواقع أن هذه الدراسة رسالة جامعة في فلسفة الأصالة والمعاصرة، تضمَّنت عناصر بنائية لهذين الجانبين، وقدَّمت مبادئ أساسية لتأصيل الأصالة وعصرية المعاصرة.

ولا أظنُّ أن عربيًّا مسلمًا عاقلًا يخالفه في مضمون فكرته المحورية، لكن الأستاذ الدكتور القرضاوي يقدِّم لنا صورة مثالية محبوكة، على المستوى النظري. فهو يتصور أصالة مُبرَّأة من كلِّ عيب، تساعده في ذلك عصريته المستنيرة التي زوَّدته بمفاهيم حديثة، تقرِّب الأصالة من المعاصرة، وتجعلها تستوعب في تناغم وانسجام معطيات العصر، وتتكيَّف معه في إطار المبادئ والقيم والتعاليم التي أرساها الإسلام.

(١) رئيس قسم أصول التربية، بكلية التربية، بجامعة قطر. وقد كلفته إدارة الندوة بالتعقيب على دراستي.

QaradawiBooks.com

كما يتصوَّر في المقابل معاصرة نقيَّة تقيَّة، اختيرت كلُّ عناصرها بوعي وحكمة، ما يجعلها ثمرة طبيعية لتطور الأصولية التراثية التي ازدهرت في عصور الحضارة الإسلامية.

إن هذا التصور القرضاوي لا يستطيع أن يجعل كل الناس قرضاويين، أيْ يصبحوا على مثاله متشبِّعين إيمانًا وعلمًا، تراثًا وعصرًا. لهم في أنفسهم مثل ما له في نفسه: عقلًا وشعورًا، وعملًا وتوجهًا.

ومع ذلك، فإن التصوُّر النظري في إطار الكليات والمبادئ والقيم، قَلَّمَا يحدث بشأنه اختلاف، فهو جميل ومقبول ولا غبار عليه، لكن على مستوى العملي، يصعب الأمر حيث يختلف الناس في سياسات وفنيَّات التطبيق، وهذه قضية كلِّ عصر.

ومع ذلك، فالدراسة لأهميتها النظرية، جدير بكلِّ الناس أصوليين وعصريين أن يقرؤوها بعقلية ناقدة تحليلية، فربما هدتهم هذه القراءة الوظيفية إلى بلورة استراتيجية حركية، تجمع بين عناصرها أهداف ووسائل وخطوات التنفيذ لمشروع نهضوي حضاري، يحقق للأمة العربية الوحدة العامة في المسيرة والمصير.

بعد هذه المقدمة نقف مع الأفكار الرئيسية والمفتاحية للدراسة، والتي شدَّت انتباهنا وأثارت ملكة النقد عندنا:

١ـ كتب الباحث عن مكونات الثقافة وحصرها في اثنين: الإسلام واللغة العربية، ونضيف إليهما: الجنس، ووحدة التاريخ، والمصالح المشتركة.

فالثقافة ـ في مفهوم الأنثروبولوجي ـ ثقافة وجنس، ولسنا مع العنصريين الذين ميَّزوا بين الأجناس العرقية، وفضَّلوا بعضها على بعض

QaradawiBooks.com

في المواهب والقدرات الطبيعية والثقافية. ومع ذلك فإن الجنس العربي قد توحَّد، بعد عمليات هجرة ومصاهرة واستيطان، في أقاليم عُرفت بأنها عربية، وتميَّزت بذاتية خاصة، تفارق بينها وبين ذاتيات كيانية، لأجناس فارسية وهندية وتركية وزنجية وغيرها.

لقد كان للعرب الفاتحين الأُوَل وجود فيزيقي، امتدَّ على مساحات شاسعة من الأقاليم المتنوعة التي أظلَّها الإسلام برايته. وجدت له تصفيات فيزيقية أيضًا، أنهت وجوده في كثير من هذه الأقاليم، ولولا ثورة أبي مسلم الخراساني، وحروب الخوارزمشاهية، ونكبة المغول، لظل أكثر بلاد خراسان وفارس وأذربيجان وما وراء النهر بلادًا عربية في كلِّ شيء.

لقد دُمِّرت ومُحيت تمامًا مدن عربية، كهراة وشهرستان وأسفيجاب وأردبيل وكرمان، وأُبيد أهلها العرب، واستعجم مَن بقي منهم في غمار الناس، من الذين لم يكونوا أَصلًا من جنس العرب.

حتى اللغة العربية التي انتشرت وسادت في هذه الأقاليم ـ كلغة وحياة معاشة ـ اندثرت، وإن غيرت (الألفبية) البهلوية عند الفرس، و(الألفبية) الأجورية عند الترك.

ولم يبقَ العرب ـ عاربين ومستعربين ـ وعلى مدى قرون متعاقبة إلا في تلك الأقاليم التي تكوِّن فيما نعرفه اليوم بالعالم العربي.

وهذه الذاتية العربية التي نضجت بفعل الزمن وأحداث التاريخ، أصبحت ذاتية متوحِّدة في دينها ولغتها وعقليتها ونفسيتها، في قيمها وعاداتها وأساليب حياتها، مما جعلها في النهاية أمة لها خصوصية متميزة، ذات مصالح مشتركة، وأهداف قومية. وهذا ما يفسر ترابط هذه الأمة أمام

QaradawiBooks.com

الأحداث التي مرَّت بها قديمًا وحديثًا، عندما أراد محمد علي حاكم مصر أن يقيم إمبراطورية كبرى منافسة للسلطة العثمانية، وجه ابنه إبراهيم على رأس جيش قوي، وأمره أن ينطلق إلى كل بلد يتحدَّث بلغة عربية.

٢ـ عدَّد الباحث خصائص الثقافة العربية الإسلامية، ونعتها بأنها ربَّانيَّة، أخلاقيَّة، إنسانيَّة، عالَميَّة، متسامحة، متنوِّعة «تجمع بين الدينية والعلمية والأدبية والفنية»، ووسطية، وتكاملية «أي تتكامل مع الثقافات الأخرى».

وهذه الخصائص ليست إلا عموميات تشترك فيها كلُّ الثقافات التي رسَّخت حضارات عريقة، كالثقافة المسيحية، إذا استثنينا خاصية «الوسطية».

٣ـ والباحث وهو يشرح مفهوم الأصالة، وما يتطلَّبه من ضرورة المعرفة والفهم لثقافتنا العربية الإسلامية، يشنُّ هجومًا عامًّا على الاستشراق والمستشرقين، مع أن الاستشراق ليس كلُّه شرًّا، وإن من المستشرقين علماء ليسوا مع أهداف الاستعمار والتبشير المسيحي، قدَّموا خدمات علمية لتراثنا، وأفادونا بفنيات منهجية حديثة، وأطلعونا على جوانب فكرية كانت خافية أو مجهولة من ثقافتنا، والإسلام أمرنا ألا نبخس الناس أشياءَهم.

٤ـ والباحث كان منصفًا في رفضه لدعوى الإسلاميين الذين يحقِّرون من شأن العرب وينكرون فضلهم، كما يرفض في الوقت نفسه دعوى العروبيين الذين جعلوا «الإسلام دين العرب»، وربطوا النبي بجنسه العربي.

فالاعتزاز يجب أن يكون في كلِّ أحوالنا بالانتماء الإسلامي العربي، دون شعوبية، أو التصاق بقومية استعلائية.

QaradawiBooks.com

٥ ـ والباحث كان منصفًا كذلك في حثِّه على العودة إلى الأصول، مبينًا أن العودة لا تعني الانكفاء على الماضي والتحجُّر عنده، ولكن لتصحيح المسار وتبيُّن هدف المسيرة في إطار من إحياء السلفية المجددة.

ويؤكد على أهمية الفهم والعمل في العودة إلى الأصول وفي إحياء السلفية. بممارسات تأخذ بالفهم الكلي الثابت، وتترك الجزئي المتغير. وللأسف، فإن «السلفية ظُلِمَت من خصومها وكثير من أنصارها على السواء».

٦ ـ والباحث يدعو إلى ضرورة الانتفاع بتراثنا، مع الوعي بما يستحقُّ الأخذ منه، إذ إن «التراث يحتوي على الحقِّ والباطل، والصواب والخطأ، والسمين والغث».

وهو بذلك يخالف كثيرًا من السلفيين الذين لا يرون في التراث إلا عدلًا لا ظلم معه، ونورًا لا ظلام معه، وخيرًا لا شرَّ معه، وتقدُّمًا لا تخلُّف معه، وعلمًا لا جهل معه، وقوَّة لا ضعف معها.

كما يخالف كثيرًا من العصرويين الذين لا يرون إلا الوجه الآخر السلبي من التراث، وهذه هي موضوعية الباحث المنصف الذي يؤكِّد أهمية القراءة المستبصرة للتراث.

٧ ـ ويركز الباحث على حقيقة يجلِّيها بقوة، وهي أن «الإسلام فوق التراث». فالإسلام كدين موحى به في القرآن والسنة، فوق التراث كإنجازات بشرية تخضع للنقد وللتغيير وللتطوير. «إن الدين ـ كما يقول حسن حنفي ـ ليس كله في التراث، وليس التراث كله في الدين».

QaradawiBooks.com

ونحن معه في أن الدين له ذاتيته التي يستقلُّ بها عن ذاتيات التراث، التي تمايزت وتباينت بين جماعات: «سنة، وشيعة، وصوفية، وأشاعرة، ومعتزلة، وغيرهم»، وبين عصور متعاقبة «تقلبت فيها قوةً وضعفًا»، وبين أنواع وأجناس: علمية، ودينية، وأدبية، وفنية، واجتماعية، واقتصادية، وغيرها.

ومع ذلك فإن الدين لا يقدِّم نفسه بنفسه. إنه لم يصل إلينا إلا من خلال التراث، وبواسطة بشرية. لقد وقف المسلمون أمام نصوص القرآن والسنة، وكانت لهم قراءات متمايزة، وخرجوا بمفاهيم متباينة، وأقاموا عليها أبنية عقلية ونفسية، ونظما ثقافية وحضارية، ولم يكن اختلاف المسلمين إلا حول فَهم وتفسير هذه النصوص الدينية.

ودائمًا وُجدت قراءات متميِّزة مع أو ضد التراث، إما لتسويغ قيم الحاضر، وإما لتسويغ قيم الماضي.

٨ ـ وكما دعا الباحث إلى معرفة التراث وحسن الانتقاء منه، فإنه دعا إلى ضرورة معرفة العصر؛ إذ يوجد «من دعاة التحديث مَن يجهل العصر، ومن دعاة الإسلام مَن هو أكثر جهلًا به». ويؤكد على أن معرفة الواقع هي من تمام معرفة العصر، ولفت الأنظار إلى أهمية تحرير هذه المعرفة من النظرات الجزئية، والمحلية، والآنية، والسطحية، والتلفيقية، والتبريرية.

٩ ـ وفي حديثه عن المعاصرة بين الجبر والاختيار يرفض الباحث «الجبرية الزمانية»، و«الجبرية المكانية»، فالإنسان في نظره ليس ابن عصره، وليس ابن بيئته، ونسي الباحث مأثورات السلف الصائبة في هذا الموضوع، ومنها:

«الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم»، «علموا أولادكم غير ما تعلمتم، فإنهم خُلقوا لزمان غير زمانكم»، «لا تعادوا الأيام فتعاديكم»، «مَن كابر

QaradawiBooks.com

الزمان غُلب»، «فساد الإنسان من فساد الزمان، وفساد الزمان من فساد السلطان»، وشعر ابن دريد:

النـــاسُ مثـــلُ زمـانـهـم   قـدّ الحـذاء على مثاله
ورجـــالُ دهــرك مثـلُ دهــ   ــرك في تقلُّبه وحاله
وكـــذا إذا فسد الزمـا   ن جرى الفسادُ على رجاله[1]

وشعر السلفي القديم:

اعجبي أُمَّنا لصرف الليالي   مُسخت أختُنا سكينةُ فارة[2]

ولقد تكلَّم علماء السلف عن تأثيرات المكان، وأهوية البلاد ومناخها في طباع وأمزجة وأخلاق وعادات الناس، «ومع المكان الجغرافي يوجد المكان الثقافي»، فالضرر يولد في مجتمع قائم بكلِّ ثقافته وخصائصه، ويتشكَّل في إطاره الحيوي، ويصبح مصريًّا أو قطريًّا أو إنجليزيًّا أو فرنسيًّا أو غير ذلك، بحسب تنشئته في بيئته. ولو ولد شيخنا القرضاوي ورُبِّي في فرنسا أو إنجلترا لأصبح قرضاويًّا آخر.

وليست حتمية الزمان والمكان بمانعة، من وجود اختلافات وإرادات فردية بين أبناء العصر أو البيئة، فالأفراد حتى في الأسرة الواحدة متمايزون عقلانيًّا، وليسوا نُسخا من جريدة يومية، أو صنفًا من الملاعق والأكواب يشكلها قالب مادي واحد.

(١) الدر الفريد وبيت القصيد للمستعصمي (١٨٨/٤)، تحقيق د. كامل سلمان الجبوري، نشر دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.
(٢) ذكره عن رجل من النصيرية أبو العلاء المعري في رسالة الغفران صـ١٥٣، تصحيح إبراهيم اليازجي، نشر مطبعة أمين هندية، مصر، ط١، ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م.

QaradawiBooks.com

١٠ ـ ونحن مع الباحث في نفيه أن العصر هو الغرب، ومع ذلك فليس عصرنا هو عصر الأمة العربية الإسلامية في حالتها الراهنة.

إن العصر هو العالم: شرقه وغربه، شماله وجنوبه.

هذه المقولة تقودنا إلى مقولة «عالمية الثقافة»، التي ينكرها الباحث بادِّعاء: أن لكلِّ ثقافة خصوصيتها القومية.

إن عالمية الثقافة حقيقة ناصعة، فرضت علينا في جنبات الأرض المسكونة بمليارات البشر: نظمًا أو مذاهب، أو نظريات عالمية في الحكم والإدارة، والاقتصاد والاجتماع، والعمارة والتسليح، والزراعة والتعليم، والطب والهندسة، والفن والأدب والترفيه. وقامت مؤسسات دولية ترعى هذه النظم العالمية، وفي أحضانها تتشكَّل إنسانيتنا الجديدة، ويسهم في صنعها ممثلو الدول، وإن كان للغرب المتقدِّم نصيب أوفر، بحكم تفوُّقه العلمي والتكنولوجي والعسكري والاقتصادي.

وإن الثقافة العالمية منفتحة وموصولة، بروافد ثقافية قومية ومحلية من كلِّ نوع، ولكن مشكلتنا تتمثَّل في عجزنا، وأننا لم نرتفع إلى مستوى «الندية الحضارية» التي تُسهم بعطائها، وتؤثِّر بقدرتها في مسيرة الثقافة العالمة، وهذه الثقافة العالمية شيء مختلف عن ثقافة كل أمة «في الغرب وفي الشرق»، كما تختلف ثقافة كلِّ أمة داخل حدودها، عن الثقافات الفرعية أو المحلية بها.

والثقافة العالمية لا تنفي ولا تُلغي خصوصيات الثقافات القومية، كما لا تلقي هذه الأخيرة ثقافاتها المحلية. إن التفاعل بين الثقافات، والمبادلات الثقافية حقيقة يومية، خصوصًا ونحن نعيش في عالم تحوَّل إلى قرية كونية، لها مصير واحد.

QaradawiBooks.com

ونحن نؤيد الباحث في دعوته إلى عدم الاستيراد الآلي لكلِّ عناصر الثقافة التي يصنعها الغرب. فالنموذج الغربي للتنمية ـ بكلِّ ما يمثله من عدوانية على البيئة والإنسان ـ ليس هو النموذج الكامل الذي تنتفع به ثقافتنا العربية الإسلامية، التي تقوم على التكامل والتوازن والاعتدال.

ومع ذلك يجب ألا ننسى أن الثقافة العالمية ـ أو حتى الغربية ـ هي ثقافة انتشارية، تصحيحية، دهرية. وإن ما نأخذه عليها من انتقادات، هي من صنع أصحابها الأكثر وعيا بها، والأكثر قدرة على المعالجة والتصحيح.

ولا خوف من استيراد ما ينفع من عناصر الثقافة، أما الرفض المطلق للثقافة فهو مرفوض، ونحن لا نستورد الدين من الغرب، إنما نستورد ما يدخل في ترقية الحياة الدنيوية: حكمًا وإرادة، وتنظيمًا وصناعة، وزراعة وعلما وتعليمًا.

١١ ـ حلَّ الباحث ـ لفظيًّا ـ أهم التناقضات التي يختلف المثقفون بشأنها، وهو حلٌّ نظري، لم يستند إلى وقائع التراث ومنطق التجارب في التاريخ، من خلال منهجية استقصائية، فالباحث لا يرى تناقضًا بين النقل والعقل، بين الدين والعلم، ويستشهد بنصوص مختارة.

ونحبُّ أن نوضح أن العقل هنا والمعني في التراث، والمقابل للنقل، كان «العقل القياسي» في الدين، وُجِد أصحاب النقل الذين أخذوا بالآثار، وَوُجِد أصحاب العقل الذين أخذوا بالرأي مستخدمين القياس: قياس الغائب على الشاهد، الفرع على الأصل، وكانت بين الفريقين خصومة تاريخية معروفة. ووجد سلفيون من أمثال: الثوري وابن زريع، قالوا: «أصحاب الرأي أعداء السنة ـ إنما الدين بالآثار وليس بالرأي».

QaradawiBooks.com

كما وُجِد عقليون مشوا بالعقل إلى مداه، وقدَّموه حتى على النقل ـ إذا اصطدم النص بدليل عقلي ـ وأوَّلوا النصَّ ليتفق مع العقل والمصلحة. وعلى رأس هؤلاء المعتزلة.

أما العقل الفلسفي والعلمي المشتغل بما هو خارج الدين، فقد قوبل بمعارضة تشتدُّ أحيانًا، وتضعف أحيانًا، ولكنها عبَّرت عن رفض كثير من الفقهاء لاجتهادات الفلاسفة والعلميين. كفروا الفلاسفة، وذمُّوا العلميين، الذين يشتغلون بعلوم غير دينية وغير لغوية، لم يشتغل بها الصحابة والتابعون. وكتاب ابن رجب البغدادي الحنبلي «فضل علم السلف على الخلف»، خير دليل على ذلك.

١٢ ـ وكان الباحث صائب النظرة وصادق القول عندما قرَّر بحقٍّ بأن «واقعنا المر لا يمثِّل أصالة ولا معاصرة»، وإنما هو التيه والضياع. إنه مزيج خلطي من عناصر ثقافية متباينة لا تمزج بينها فلسفة محكمة.

وكان تقدُّميًّا حين دعا إلى بناء بنظرة مستقبلية، تخرجنا من هذا التيه ومن ذلك الضياع. لكن النصوص والإشارات التي قدَّمها من الدين ومن التراث للبرهنة على وعينا السلفي بالمستقبلية، تخرج في الواقع عن مفهوم المستقبلية. فعلم الله بالغيب أو التنبؤ ببعض الأحداث، ليس هو المستقبلية التي تعني منظومة علمية وتقنية متكاملة، تقدم مفاهيم واستراتيجيات وخططا، لصنع المستقبل المحسوب والمحكوم، حتى لا يخضع في تطوراته لاحتمالات الصدفة أو العشوائية، أو الانحراف أو المفاجأة.

ونحن بدورنا قادرون على انتقاء نصوص وإشارات تراثية، تعاكس ما أورده الباحث، وتنفي هذه المستقبلية المزعومة في التراث:

QaradawiBooks.com

ـ قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

ـ وقال زهير بن أبي سلمى ما ردَّده المسلمون كثيرًا:

وأعلم علم اليــوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمِ[١]

ـ ومشوا مع قدرية الغزالي المستكينة: «جرى القضاء بما كان، وبما سيكون، فسيان الحركة والسكون».

ـ وردَّدوا قول الشاعر:

مشــيناها خُطًــا كتبــت علينــا ومَن كُتبــت عليه خطًا مشــاها[٢]

إن المســتقبلية مغايرة للواقع في حاضره، والمســتقبل أصبح حياة تصنع وتنفَّذ، بعد أن تتصوَّر ويخطَّط بها.

١٣ـ والباحث يصنف الناس أمام الماضي والمستقبل، رافضًا دعوى الموغلين في الماضوية، ورافضًا كذلك دعوى الموغلين في المستقبلية، ومؤيدًا لدعاة الوســطية، الذين يوفِّقون في تكامل بين التراث والعصر، ويتوجَّهون بحساب واعتدال نحو المستقبل.

وهذه نظرة قيمية ليست وصفية أو موضوعية، تمثِّل الحدود والمعالم والمعايير التي نحكم بها على التوغُّل في الماضوية وفي المستقبلية، أو على الوسطية بينهما.

(١) في معلقته، كما في جمهرة أشــعار العرب لأبي زيد صـ١٧٦، تحقيق علي محمد البجادي، نشر نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) نسبه إلى أحمد بن فارس المستعصمي في الدر الفريد (٩/ ٢٧٩).

QaradawiBooks.com

كما أن الوسطية وسطيات فيها يمين وفيها يسار. وهذه سنة الحياة في كلِّ أمة، وعند كلِّ جيل.

١٤ ـ ولأن الباحث عالم ديني وواحد من كبار الدعاة الإسلاميين، فإنه يتَّخذ أحيانًا لهجة وعظية مدحية: تُعلي من شأن الإسلام، وتحطُّ من شأن الحضارة الغربية. فهو مثلًا يقرِّر بكلِّ تأكيد قائلًا: «الإسلام يمتاز عن الفكر الغربي بما قرَّره من التوازن بين الحقوق والواجبات، فالإنسان في حضارة الغرب يركض أبدًا وراء ما حوله، ولا يهتمُّ كثيرًا بما هو عليه».

وكان عليه أن يستقرئ الدساتير والقوانين الوضعية الغربية، بمنهجية نقدية تحليلية، قبل أن يصدر هذا الحكم الذاتي.

أما أن الغربي يهتم بحقوقه ولا يؤدِّي واجباته، فلا أعتقد في صحة هذا الحكم، وأتمنى أن نتبنَّى نحن المسلمين منظومة القيم الغربية، فأداء الواجب من وطنية وجهاد، وإتقان عمل وصدق قول، وإنجاز إبداعي واحترام الآخر، وتقدير الكفاءة، وعقاب الفاسد مهما كان كبيرًا في وضعه وسلطته. ولا شكَّ في أن هذه القيم إسلامية لأنها في المقام الأول إنسانية، والإسلام جاء بما يتَّفق ومصلحة الإنسانية.

١٥ ـ ويرتبط بما سبق ما قرَّره الباحث من عناية الإسلام بحقوق الإنسان، والتي يدَّعي بعضهم أنها من مستحدثات العصر أو مبتكرات الغرب، بينما سبق الإسلام بإقرارها، والدعوة إليها والمحافظة عليها. ويذكر عددًا من الكتب الحديثة التي تناولت هذه الحقوق في الإسلام.

وصحيح أن الإسلام النصِّي يقدِّم مبادئ تصون حقوق الإنسان، لكن هذه الحقوق لم تكن في موضع التطبيق والاحترام بشكل مؤسَّسي،

QaradawiBooks.com

ترعاه السلطات ويلتزم به الأفراد. وكثيرًا ما أُهملت وحُرِّفت وعُوقَت، حتى جاء يوم فقد المسلمون فيه كلَّ حقوقهم.

ـ أين كان حقُّ الشعوب التي خضعت لحكم السيف، وحرمت من مبدأ الشورى، وشاهدت تحول الخلافة إلى مُلْك عضوض؟!

لقد قام أول خليفة «أبو بكر» بمقاتلة المرتدين، متفرِّدًا برأيه، بينما خالفه في الرأي كلُّ الصحابة[١]، بصرف النظر عن موضوع الإصابة في الرأي.

إن الأصوات التي كانت ترتفع في مسجد الرسول بالمدينة لتقول للخليفة: «لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا»، ولا تخشى أن تقول له: «اتق الله». سرعان ما خمدت عندما صعد معاوية المنبر في جامع دمشق وصاح في الناس: «من قال لي: اتق الله. بعد مقامي هذا، ضربت عنقه». أليس هو القائل: «إنما المال مالنا ـ وليس مال الله ولا مال الرعية ـ والفيء فيئنا؟ فمن شئنا أعطيناه، ومن شئنا منعناه»؟!

لقد ضاق المصري بحياة إسلامية: ضاع فيها الحق والعدل على أيدي الحكام فقال:

مَلَّ المقام فكم أعاشرُ أمّةً ... أَمَرت بغير صلاحها أمراؤُها
ظلموا الرعيّةَ واستجازوا كيدها ... وعَدَوْا مصالحها وهم أجَراؤُها[٢]

ـ أين حقوق العمال في دول انتشر فيها الإقطاع، وظلم جباة الخراج والضرائب، واستعباد الناس، حتى قام الزنج بثورتهم الدموية طوال خمس عشرة سنة لدفع ظلم الإقطاعيين في البصرة؟

(١) تبعًا لرواية ابن عماد الحنبلي في شذرات الذهب (١٥١/١)، نشر دار ابن كثير، بيروت.
(٢) البيتان للمعري، كما في اللزوميات (٤٤/١).

QaradawiBooks.com

ـ أين حقوق الأطفال في مجتمعات ضاعت فيها حقوق الكبار؟

ـ أين حقوق المرأة التي حبست في مجتمع رجال متسيِّد، عاش لغرائزه وشهواته: كثرة زواج، وفوضى التسري، ومنع المرأة في أكثر الأحوال من الخروج للعلم وللعمل؟!

إن الحقوق في عصرنا الحاضر أصبحت في وعي كلِّ الناس، تحدِّدها القوانين، وتقوم على حمايتها المؤسسات، ويتعلَّمها الناس في المدرسة والمجتمع، بل وتدافع عنها هيئات دولية، وتسقط بسببها دول وحكومات.

وليس يعني هذا أن كلَّ إنسان ينال حقوقه كاملة، فالقصور والتقصير في كلِّ مكان، ولكن أحدًا لا يستطيع إنكار هذه الحقيقة التي تدمغ عصرنا بأنه عصر الإنسان وحقوق الإنسان.

١٦ ـ وأخيرًا فإن ما يتعلق بالجدل الدائر حول قضايا: الإسلام والعروبة، الدين والعلم، النقل والعقل، الماضي والحاضر، التراث والغرب... فأظن أن إغلاق ملفاته لن يشهد يومًا قريبًا، لأن تحديدات كل هذه القضايا سوف تجرُّ جدلًا طويلًا، ومن ثَمَّ فإن الدعوة إلى حوار عقلاني هادئ تشيع فيه روح التسامح واحترام الرأي الآخر، تصبح مطلبًا مشروعًا، نؤيد فيه الباحث حتى تهتدي الأمة بعون من الله إلى ما يحقِّق المصلحة العامة في الرأي والعمل والمصير.

* * *

غير مخصصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ردِّي على تعقيب الأستاذ الدكتور محمود قمبر على ورقة «الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة»

فوجئتُ بتعقيب «الأستاذ الدكتور محمود قمبر» على دراستي عن «الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة»، وقد دهشت له لسببين:

١ـ فقد كان الدكتور عَقَّب تعقيبًا شفهيًّا بعد إلقاء بحثي في الندوة، بنَفَس غير هذا النَّفَس، وروح غير هذه الروح، ورددتُ عليه بإيجاز في وقتها؛ ولم يظهر التعقيب ولا الرد في المطبوع.

٢ـ أن هذا التعقيب المكتوب لم يعرض عليَّ قبل طباعته لأردَّ عليه، كما هو متبع عادة، إذ من المتَّفق عليه أن كلمة الباحث هي الأخيرة، ومن حقِّه أن يرد على كلِّ من عقَّب عليه. هذا من الناحية الشكلية كما يقول أهل القانون.

أما من الناحية الموضوعية، فلا أدري أقرأ المعقِّب بحثي، وصبر عليه إلى النهاية، أم اجتزأ بقراءة فقرات منه؟ أم أنه قرأه قراءة المتعجِّل، دون أن يدقِّق في ألفاظه ومعانيه؟ أم أنه قرأه وفي ذهنه أفكار ومفاهيم سابقة، يريد أن يفرضها على البحث، وأن يلصقها به، وإن لم تكن منه؟ أي لم يقرأه قراءة المحايد المتجرد. بل قراءة الخصم المتحيِّز، وإن أثنى على كثير مما اشتمل عليه البحث.

وفي الواقع، إني أحاول دائمًا أن أستفيد من أيِّ تعقيب، فليس هناك أحد أكبر من أن يناقَش، ولا أحد أصغر من أن يناقِش، وفوق كلِّ ذي علم عليم.

بيد أن مما يؤسَف له، أني لم أجد ما يفيدني في تعقيب المعقِّب، ولعل أعظم ما يخالف بيني وبينه: أنه ينطلق من تعظيم كلِّ ما هو غربي، وتهوين كلِّ ما هو إسلامي، وأنا آمنتُ بشعار جامعة قطر: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

(١) ذكر الأستاذ قمبر: أني قدَّمت في دراستي صورة مثالية محبوكة على المستوى النظري للأصالة والمعاصرة، فتصوَّرت أصالة مبرَّأة من كلِّ عيب، وفي المقابل معاصرة «نقية تقية»، اختيرت كلُّ عناصرها بوعي وحكمة. وأن هذا التصور القرضاوي لا يستطيع أن يجعل كلَّ الناس قرضاويين.

وأود أن أوضح هنا، أني في هذه الدراسة أجيب على سؤال محوري: هل يستطيع المثقَّف المسلم في عصرنا أن يكون أصيلًا ومعاصرًا في الوقت ذاته؟ وهو السؤال الذي سأله لنفسه الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود؛ وأجاب عنه قديمًا بالنفي، ثم استدرك على نفسه بعد أن طفق يدرس الثقافة العربية الإسلامية، وينهل منها ما استطاع.

أما عناصر الأصالة فقد حدَّدتها كما أومن بها، ويؤمن بها معي تيار «الوسطية الإسلامية».

وأعتقد أن من حقِّنا أن نبيِّن للناس مقومات الأصالة الحقة، التي يمكن للناس أن يستمسكوا بعُراها، ولا يتَّهمهم أحد من أولي الألباب بأنهم ليسوا أصلاء.

وقد وصف المعقب هذه الأصالة بأنها مبرأة من العيوب. وهذا طبيعي ومنطقي، لأنها تستمد جوهرها من الإسلام الصحيح،

QaradawiBooks.com

إسلام القرآن والسنة. فهل كان يريد المعقب أن أضيف إلى هذه العناصر عناصر أخرى محمَّلة بالعيوب والنقائص، حتى تصطدم بالمعاصرة عند دعاتها؟ هل كان يريد أن أجعل من مقومات الأصالة: الجبرية في الاعتقاد، والخرافة في التفكير، والجمود في الفقه، والانكفاء على الماضي، والتواكل والسلبية في التربية والسلوك؟

إنني لو فعلت ذلك لخنتُ الأصالة التي أومن بها وأدعو إليها، وخنتُ قبل ذلك ديني الذي هو ينبوع هذه الأصالة ومصدرها الأول.

وأما عناصر المعاصرة ومقوماتها التي ذكرتُها، فقد أخذتُها عن دعاة المعاصرة أنفسهم، عن «العصرويين» الأقحاح، مثل الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا في فصل «الأصالة والمعاصرة» من كتابه «الصحوة الإسلامية في ميزان العقل».

وقد ذكر هو هذه العناصر أو المعالم للمعاصرة باعتبارها منافية للأصالة في نظره، وكانت مهمة دراستي بيان أن هذه العناصر أو المعالم لا تنافي الأصالة، بل تتَّسق معها في تناغم وانسجام، كما قال المعقِّب. وقد دللت على ذلك بما يقطع كلَّ شك، ويزيح كلَّ غبش أو غشاوة عن الأبصار، لمَن كان من أهل الإنصاف.

فهذا هو مصدر تصوري وتصويري للمعاصرة المنشودة، والمعقِّب يسميها معاصرة «نقية تقية». فلا أدري هل كان يريدني أن أعرضها داعرة فاجرة كافرة، فأجعل من مقومات المعاصرة: الإلحاد في العقيدة، والمادية في الفكر، والحيوانية في السلوك، وأن يكون من مكونات المعاصرة: المعاقرة والمقامرة والمخاصرة؟!

إنني لو فعلتُ ذلك لخنتُ دعاة المعاصرة أنفسهم، لأنهم لا يعرضون

QaradawiBooks.com

المعاصرة بهذه الصورة الزريَّة الرديئة. إنما عرضنا أصول المعاصرة كما صوَّرتها أقلامهم، ثم بيَّنَّا أنها لا تناقـض الأصالة التي نعيش في ظلِّها، وندعو الناس إليها.

ثم إن الدكتور المعقِّب يرى أن هذه التصور النظري جميل ومقبول، ولا غبار عليـه؛ وقلَّما يحدث بشـأنه اختلاف، ولكن على المسـتوى العملي يصعب الأمر، حيث يختلف الناس في سياسات وفنيَّات التطبيق.

فإن كان الأمر كما قال، فهذه ثمرة إيجابية من ثمرات هذه الدراسة، حيث اسـتطاعت أن تعرض هذه القضيَّة الكبيرة، عرضًا يجمع أصحاب التيارات المختلفة على أصولهـا، فلا يختلفون إلا في الفروع والتطبيق، وهذا مكسب كبير.

فمما لا يخفى أن الخلاف بين دعاة الأصالة ـ وهم عادة إسلاميون ـ ودعاة العصرية ـ وهم عادة متغربون ـ خلاف في الأصول لا في الفروع، في المبدأ لا في التطبيـق، فإذا انتهى الأمر إلـى أن يكون الخلاف في التفصيل والسياسات والتطبيق، فهو خلاف محتمل، ويمكن التفاهم فيه، إذا كان الأصل والمبدأ مسلَّمًا من الجميع.

(٢) ذكر المعقِّب أني تحدَّثت عن مكونـات الثقافة، وحصرتها في اثنين: الإسلام واللغة العربية. وتبرَّع هو فأضاف إليهما: الجنس، ووحدة التاريخ، والمصالح المشتركة.

وأنـا لم أتحـدث عن «مطلـق ثقافـة». بل عـن «الثقافـة العربية الإسلامية»، وهو ما حدَّدته لي إدارة الندوة. وأنا لم أنف وجود مكونات أخرى للثقافـة، ولكن قلتُ: إن أهمها: الدين واللغة. وهما بالنسـبة لنا: الإسلام، والعربية.

QaradawiBooks.com

ويبدو أن الدكتور قمبر اختلط عليه مكونات «القومية» بمكونات «الثقافة»، فلم يقُل أحد: إن المصالح المشتركة من مكونات الثقافة! هب أن المصالح جمعت بين اليهود والذين أشركوا ـ بين إسرائيل والهند ـ هل يعني ذلك أن الثقافة اليهودية كالثقافة الهندية؟!

إن ما ذكره الدكتور وارد في الحديث عن مكونات «الأمة» أو «القومية»، ولكن الباحثين الكبار من دعاة القومية الأقحاح ـ وعلى رأسهم أبو القومية ساطع الحصري ـ لم يجعلوا لوحدة العرق ولا لغيره اعتبارًا مؤثرًا. لأن الواقع أن العروق قد اختلطت بالهجرة والمصاهرة وغيرها، ولم يكد يوجد عنصر نقي في العالم، إنما الذي ركَّز عليه القوميون هو: وحدة اللغة، والتاريخ.

(٣) علق «الدكتور قمبر» على ما ذكرتُه من خصائص الثقافة العربية الإسلامية: من الربانية، والأخلاقية، والإنسانية، والعالَمية، والتسامح، والتنوع، والوسطية، والتكامل مع الثقافات الأخرى. بقوله: «إن هذه عموميات تشترك فيها كلُّ الثقافات، التي رسخت حضارات عريقة، كالثقافة المسيحية، إذا استثنينا خاصية الوسطية».

وهذا غير صحيح، فبعض الثقافات والحضارات لا تظهر فيها خصيصة الربانية. كما نجد في الثقافة الغربية المعاصرة، وخصيصة الإنسانية لم تكن واضحة في الثقافة المسيحية الكلاسيكية في الغرب، ولذا قامت النزعة الإنسانية معارضة لاتجاهها.

ولا نجد هذه الإنسانية في الثقافات التي قامت على التقسيم الطبقي الصارم لبني الإنسان، كما في الثقافة الهندية، والرومانية.

وخصيصة العالمية لا نجدها في الثقافة اليهودية، التي تقوم على العنصرية، وتمجيد شعب واحد، على أنه وحده شعب الله المختار.

QaradawiBooks.com

حتى المسيحية في أصلها لم تكن رسالة عالمية، وقد بيَّن المسيح عليه السلام، في الإنجيل، أنه لم يبعث إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة[1]، وهو ما أكَّده القرآن: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ولا نجد خصيصة التسامح واضحة عند الهندوس، ولا عند اليهود، ولا عند النصارى، وضوحها عند المسلمين، كما أشرنا في صلب الدراسة إلى أصولها في القرآن والسنة. بل لا نجد هذا ـ للأسف ـ في الحضارة الغربية المعاصرة، التي رفضت التزام بعض الطالبات المسلمات بالحجاب الذي يفرضه عليه دينهن، مع أن المفروض أن المجتمع العلماني لا يتدخَّل في شأن الدين، ويَدَع لكلِّ مواطن الحرية في ممارسة فرائض دينه.

وقد وسعت الحضارة الإسلامية الطوائف الدينية المختلفة، ومنهم مَن شارك في إقامتها، ومنهم مَن عاش في ظلِّها آمنًا، ومَن وصل إلى مراتب عالية في الثروة والنفوذ.

وقد اعترف المعقِّب بأن الوسطية لا توجد في المسيحية، ولكن الأمر أوسع مدى من ذلك.

(٤) زعم المعقِّب أني عندما شرحتُ مفهوم «الأصالة» وما يتطلَّبه من ضرورة المعرفة والفَهم لثقافتنا العربية الإسلامية: شننتُ هجومًا عامًّا على الاستشراق والمستشرقين، مع أن الاستشراق ليس كلُّه شرًّا، وأن من المستشرقين علماء ليسوا مع أهداف الاستعمار والتبشير المسيحي.

(١) إنجيل متَّى (٢٤/١٥)، (٦/١٠ ـ ٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وما قاله الدكتور ليس دقيقًا ولا أمينًا في وصف ما قلتُه، وأنا لم أتعود أن ألقي الكلام على عواهنه، فقد علمتنا دراستنا الأزهرية والأصولية وجوب التدقيق في العبارات، وتحديد المفاهيم، وتحرير مواضع النزاع، والتفريق بين المطلق والمقيد والخاص والعام، إلخ.

لقد كان حديثي منصبًّا على وجوب فَهم ثقافتنا من مصادرها الأصيلة، لا الهامشية، ولا المدخولة أو المنحولة. وفهمها من أهلها الثقات لا المجروحين، ناهيك بغير أهلها من الدخلاء عليها، والغرباء عنها، وفَهمها بأدواتها ومناهجها الخاصة، إلخ.

وذكرتُ هنا أصنافًا من الناس يرفضون المصادر القوية، ويأخذون بالمصادر الواهية. وفي هذا السياق ذكرتُ: «مَن يعتبر المستشرقين حجَّة في كلِّ ما يكتبون، ولا يحاول أن يمتحن آراءهم، أو يناقش استدلالهم، ويقارن دعاويهم بعضها ببعض».

فالهجوم هنا ليس على المستشرقين، بل على تلاميذهم وعبيد فكرهم، الذين يأخذون كلَّ ما يكتبون قضايا مُسَلَّمة غير قابلة للنقاش، فهل يعني تعقيب «الدكتور قمبر» أنه منهم؟!

ولقد بيَّنت نقاط الضعف الأساسية فيما يكتبه المستشرقون عن ثقافتنا، وهي نقاط أربع، كان على المعقِّب أن يردَّ عليها جميعًا، فمن المقرَّر في علم أدب البحث والمناظرة: أن الدعوى لا تُنقض إلا بنقض جميع أدلَّتها. وقد أيَّدت كلامي بما نقلته عن العلامة محمود شاكر حفظه الله، من رسالته القيمة «في الطريق إلى ثقافتنا».

وأنا لم أقل إن جميع دراسات المستشرقين في خدمة الاستعمار والتبشير، بل قلتُ بالحرف الواحد: «إن دراسات المستشرقين كثيرًا

QaradawiBooks.com

ما تكون موجَّهة لخدمة أهداف عملية مطلوبة منهم لهذه الدولة أو تلك، وكثيرًا ما تُرصد الملايين لتحقيق هذه البحوث، وهذا ما يجعل هذه الدراسات غير مبرَّأة من الغرض».

فقولي: «كثيرًا ما تكون الوجهة»، لا يعني الكلَّ، ولا يعني الأكثر، فماذا يريدني الدكتور المعقِّب أن أقول؟

(٥) سلَّم المعقب بما ركَّزت على تجليته بقوَّة، وهو: أن الإسلام فوق التراث، فالإسلام دين الله، والتراث صنع الإنسان، ومع هذا قال: إن الدين لم يصل إلينا إلا من خلال التراث، وبواسطة بشرية، وضمن قراءات متمايزة. ولكن الذي ركَّزت عليه هو الإسلام المتمثِّل في «محكمات القرآن والسنة». وهذه عبارة مختارة، لم يدرك المعلِّق المقصود منها؛ فمن المعلوم أن من النصوص «محكمات» بيِّنات الدلالة، تمثِّل الأمهات والأصول التي يُحتكم إليها، ويُرجع إليها، إلى جوار «المتشابهات» التي يختلف الناس في قراءتها وفَهمها والاستنباط منها.

(٦) ذكر المعقِّب حديثي عن «المعاصرة بين الجبر والاختيار» ورفض «الجبرية الزمانية» و«الجبرية المكانية»، وقوَّلني ما لم أقله: إن الإنسان ليس ابن عصره، ولا ابن بيئته. واستشهد ببعض ما أُثر عن السلف في ذلك، مما أعرفه ولا أجهله، وأذكره ولا أنساه، مثل «الناس بزمانهم أشبه منه بآبائهم»، «علموا أولادكم غير ما تعلَّمتم، فإنهم خُلقوا لزمان غير زمانكم»!

وهذا يصحُّ لو أني أنكرتُ تأثير الزمان والمكان على الإنسان بإطلاق، وهو ما لم أقله قط.

لقد قلتُ نصا: «إن الإنسان يتأثَّر ـ ولا ريب ـ ببيئته الخاصة والعامة، المادية والثقافية، كما يتأثَّر بعصره وزمانه، ولكنه لا يفقد إرادته واختياره

QaradawiBooks.com

أمام هذه المؤثرات، فقد منحه الله مـــن القوى والملكات ما يجعله قادرًا على حمل أمانة المسؤولية».

إن الذي رفضتُه وأرفضه هو «الجبرية» بكلِّ أنواعها: دينية أو زمانية، أو مكانيـــة أو سياســـية. والغريب أن المعقِّـــب يقبل الجبريـــة المكانية والزمانية في حين يرفض الجبرية الدينية.

ولكنـــي أرفض جميع الجبريـــات، وأومن بحرية الإنســـان، وكرامة الإنسان، انطلاقًا من ديني.

(٧) اضطرب قول المعقِّب اضطرابًا شـــديدًا، حين علَّق على كلامي عن خصوصية الثقافة، وأن لـــكلِّ قوم ثقافتهم التـــي تعبِّر عن عقائدهم وقيمهم ومفاهيمهم وشرائعهم.

وهذا أمر من الوضوح بمكان، ولكن «الدكتور قمبر» لا يسلِّم به رغم بداهته، ويحـــاول أن يدافع عـــن عالمية الثقافة، مع أن هـــذا يعود على موضوع الندوة كلِّه بالإبطـــال، لأن موضوعها «الثقافـــة العربية: الواقع والطموح»، فإذا لم يكن للعرب ثقافة، ولم يكن إلا ثقافة واحدة للعالم اليوم، وهي ثقافة الغرب، فلمـــاذا عُقدت هذه النـــدوة؟! ولماذا كُلِّفت الكتابة عن «الثقافة العربية الإســـلامية»؟ بيد أنه عاد وناقض نفسه قائلًا: الثقافة العالمية لا تنفي ولا تُلغي خصوصيات الثقافات القومية!

ثم قال: لا خوف من استيراد ما ينفع من عناصر الثقافة؛ أما الرفض المطلق للثقافة فهو رفض مرفوض.

وكلامي ـ لمَن أحسن قراءته ـ ليس فيه رفض مطلق، بل ذكرتُ «أن الغرب ليس كلُّه شـــرًّا وضلالًا، فكم فيه من علم نافـــع وعمل صالح، وإنجازات هائلة يمكن توظيفها لصالح الإنسان».

QaradawiBooks.com

وقلت: لا حرج علينا إذنْ أن نقتبس مـــن الغرب ما ينفعنا، وما يليق بنا، ويتلاءم مع قيمنا وثقافتنا، وما يؤكِّد المبـــادئ التي دعا إليها ديننا. لا جناح علينا أن نأخذ من الديمقراطيـــة وضماناتها وعناصرها ما يؤكِّد مبدأ الشورى، ومبدأ النصيحة والمحاســـبة للحاكم، وحق عزله إن جار عما بويع عليه، إلخ.

فلا معنى للقول بأني أرفض ـ بإطلاق ـ الاقتباس من ثقافة الآخرين، وقد دلَّلت ـ في البحث ـ على شـــرعية هذا الاقتباس، بأدلَّة شـــتَّى من نصوص الشريعة وقواعدها.

(٨) ونظرًا لأن المعقِّب لا يعجبه العجب، ولا الصيام في رجب، ولا في رمضان أيضًا! رأيناه لا يعجبه محاولتي حل التناقضات التي يختلف المثقفون بشأنها، مثل التناقض بين الدين والعلم، بين العروبة والإسلام، إلخ. زاعمًا أن هذا حلٌّ نظري لا يســـتند إلى وقائع التـــراث، وذكر في التناقض بين العقل والنقل: أن العقل المعني في التراث والمقابل للنقل هو «العقل القياسي». مشيرًا إلى ما عرف في تاريخ الفقه من خلاف بين مدرسة الأثر ومدرسة الرأي.

والأمر أوســـع وأعمق مـــن أن يُتنـــاول بمثل هذا الاجتـــزاء، وهذه السطحية، من كاتب غير مختص، فلا بدَّ أن يعرف معنى الرأي المذموم والرأي المحمود، مما ذكره ابن عبد البر فـــي «جامعه»[١] وأصَّله وفصَّله ابن القيم في «إعلامه»[٢].

(١) جامع بيان العلم (١٠٣٧/٢ ـ ١٠٨٦).

(٢) إعلام الموقعين (٥٤/١ ـ ٦٣).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومَن يقول عن الإمام مالك: إنه أثري لا مجال للرأي عنده؟ بل هو فقيه رأي كما قال شيخنا أبو زهرة في كتابه عنه[١].

ومَن يقول عن سفيان الثوري الذي ذكره المعقِّب: إنه أثريٌّ محض. وقد ذكر من فقهاء العراق لا الحجاز، وهو صاحب الكلمة القوية التي نقلها عنه النووي في مقدِّمات «المجموع»: إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد[٢]!

على أن كلمة «العقل» في هذا المجال أوسع من «العقل القياسي» أو «الفقهي» فهي تدخل في الفقه وفي الأصول، وفي علم الكلام.

وليس المعتزلة وحدهم هم الذين احترموا العقل، فقد نقلنا عن أساطين أهل السنة احترامهم للعقل أيضًا. وإن كان للعقل مجاله، وللوحي مجاله. ولا يوجد مسلم: آمن بالله وبكتابه ورسوله لا يذعن للوحي، إذا ثبت نسبه الإلهي، سواء كان معتزليًّا أم سنيًّا. وقد ناقشنا ذلك في بعض كتبنا، فليرجع إليه[٣].

وأما ما ادَّعاه المعقِّب من رفض كثير من الفقهاء لاجتهادات الفلاسفة والعلميين، فهذا هو شأن البشر، ولا حرج عليهم أن يختلفوا، وقد أثبت الإمام محمد عبده فضل الإسلام وأمته وتراثه في هذا الجانب، على غيره من الأديان، وغير أمته من الأمم، وذلك في كتابه القيم «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية»[٤].

---

(١) مالك حياته وعصره وآراؤه وفقهه للإمام محمد أبي زهرة صـ٢٧٢ ـ ٢٨١، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢.

(٢) انظر: المجموع للنووي (٤٢/١)، نشر دار الفكر.

(٣) انظر: المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة صـ٣٣١ ـ ٣٣٢.

(٤) انظر: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٣٠٣/٣ ـ ٣٠٤).

QaradawiBooks.com

وما رفضه الفقهاء والمتكلمون من الفلسفة إنما هو «الجانب الإلهي» منها، مما قال فيه القرآن كلمته العليا، فلم يدع مقالًا لقائل، وقد أغنى الصباح عن المصباح!

أما ذمُّ الفقهاء للعلميين الذين يشتغلون بعلوم غير دينية وغير لغوية، فليس هذا مسلَّمًا على إطلاقه، وكم من فقهاء كانوا هم من العلميين، وقد ذكرتُ بعضهم، كابن رشد والفخر الرازي، وابن النفيس، وغيرهم.

وأما استشهاد المعقِّب بكتاب ابن رجب «فضل علم السلف على الخلف»، فهو استشهاد في غير موضعه. إنما يقصد العلم الشرعي، فعلم الشافعي في «الرسالة» و«الأم» أفضل من علم النووي، وابن حجر الهيثمي، والرملي، وغيرهم، من حيث البيان والسهولة والبعد عن التكلف، إلخ.

(٩) قال المعقب: كان «الباحث» تقدُّميًّا حين دعا إلى بناء نظرة مستقبلية تخرجنا من التيه والضياع «الذي لا يمثل أصالة ولا معاصرة». ثم عزَّ عليه أن يعترف بذلك خالصًا، فأضاف: لكن النصوص والإشارات التي قدَّمها من الدين ومن التراث تخرج في الواقع عن مفهوم المستقبلية.

غاب عن الدكتور أن الذي أريده بما ذكرتُ: أن الدين لا يمنع من التفكير في المستقبل، والاهتمام به، والتخطيط له، وأن هذه النصوص القرآنية، والمواقف النبوية والراشدية واضحة الدلالة على تأسيس هذه الفكرة وتأصيلها، ثم علينا أن نعمِّقها ونوسِّعها، ونأخذ من عصرنا ما يرقى بها إلى المستوى المنشود.

QaradawiBooks.com

والمعقِّب حريص على تقويض كلِّ فكرة إيجابية تقدُّمية، تنسب إلى الإسلام، لذا أجهد نفسه أن يأتي بنصوص وإشارات تراثية تعاكس ما أوردتُه، وتنفي ما سمَّاه المستقبلية «المزعومة» في التراث.

وهذه مقولة غريبة، فمنهاجي الدائم ألا أذكر شيئًا إلا بدليل وبرهان. هكذا علَّمني ديني، وعلمني دراستي. فكيف تكون مزعومة، وقد ذكرتُ مستندها من القرآن والهدْي النبوي، وسيرة الراشدين؟

وما الذي جاء به من التراث لينقض ما أسسته؟

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

وإني لأعجب من هذا الاستدلال «القمبري»: فمَن ذا الذي زعم أن النظرة المستقبلية تعني معرفة ما يكنُّه ضمير الغيب لكلِّ إنسان، بحيث يدري ماذا يحدث له في المستقبل، ويعرف بأي أرض سيموت، وفي أي وقت سيموت. إن هذه الغيوب الفردية مجهولة بلا ريب، وادعاء معرفتها هو ضرب من الكهانة يرفضه الإسلام، ويرفضه العلم، ويرفضه منطق العصر.

ومثل ذلك استشهاده ببيت زهير في معقلته:

وأعلمُ علمَ اليومِ والأمسِ قَبلَه ولكنَّني عن علمِ ما في غَدٍ عَمِ!

وهذا من شعر الجاهلية لا الإسلام.

على أن معناه صحيح بالنسبة للأفراد، وصاحب النظرة المستقبلية لا يعلم ماذا يفاجئه به الغد.

وقد أغفل المعقب ما ذكرتُه من إيجاب الإسلام اتخاذ الأسباب، ورعاية السنن، مؤيدًا بالحجج والأدلة، واتَّكأ على أبيات من الشعر،

QaradawiBooks.com

يذكرها أهل الوعظ والتصوف، وإن رواها مكسورة الأوزان، مندِّدًا بقدرية الغزالي المستكينة! يقصد «جبريته» فالمفهوم في «علم الكلام» أن القدرية عكس الجبرية، ولهذا سمَّوا المعتزلة «القدرية» ومن ذلك قولهم:

جرى قلمُ القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزقُ في غشاوته الجنين[1]

وقد رددتُ على هذا الكلام في دراسات أخرى لي. ولو أراد المعقِّب أن نسرد عليه من هذا الهذيان، لملأنا جَعبته بالكثير. ولكن هذا كلَّه لا حجَّة فيه، فليس هو قرآنا ولا سنة، ولا إجماع أمة.

(١٠) وفي تعقيبه على تصنيفي للناس أمام الماضي والمستقبل، بين موغلين في الماضوية، وموغلين في المستقبلية، ووسط بين الطرفين. قال: وهذه نظرة قيمية، ليست وصفية أو موضوعية، تمثِّل الحدود والمعالم والمعايير التي نحكم بها على التوغل في الماضوية، وفي المستقبلية، أو على الوسطية بينهما.

وهذا يدلُّ على أنه لم يقرأ الدراسة جيدًا، فهذا التقسيم ـ وإن كان منطقيًّا قيميًّا ـ يصف واقعًا ملموسًا، لتيارات ثلاثة، لكلٍّ منها مواصفاته، وقد ذكرتُ من معالم كلٍّ منها ما يوضِّح اتجاهه، ويعبِّر عن فلسفته.

وقول المعقِّب: «إن الوسطية وسطيات فيها يمين وفيها يسار». لا يضر هذا التقسيم الكلي، فكلُّ تقسيم قابل لأن ينقسم، مثل التقسيم الأيديولوجي والسياسي المعروف إلى يمين ويسار، ولا يضيره أن داخل كلٍّ من اليمين واليسار مراتب ودرجات عدة.

---

(١) البيتان لأبي الفرج بن هندو، كما في يتيمة الدهر للثعالبي (١٦٣/٥)، تحقيق د. مفيد محمد قمحية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

(١١) ومن أعجب التعليقات القمبرية: قوله «ولأن الباحث عالم ديني وواحد من كبار الدعاة الإسلاميين، فإنه يتخذ أحيانًا لهجة وعظية مدحية، تُعلي من شأن الإسلام، وتحطُّ من شأن الحضارة الغربية»؛ ودلل على ذلك بقولي: «الإسلام يمتاز عن الفكر الغربي بما قرَّره من التوازن بين الحقوق والواجبات. فالإنسان في حضارة الغرب يركض أبدًا وراء ما هو له، ولا يهتم كثيرًا بما هو عليه». فهل هذه لهجة وعظية؟

وليت الدكتور أكمل الفقرة، لتتضح الفكرة، وتتمتها: «والإنسان في الإسلام مشدود إلى ما يجب عليه أولًا، الإنسان في نظر الغرب مطالِب سائل، وفي نظر الإسلام مطالَب مسؤول؛ وفرق كبير بين الموقفين، فرق بين من يقول: ماذا لي؟ ومَن يقول: ماذا عليَّ؟ فالأول يدور حول حاجته، والآخر يدور حول قيمة أخلاقية. ومن خلال أداء الواجبات تُرعى الحقوق؛ إذ ما من حقٍّ لفرد أو جماعة إلا كان هو واجبًا على غيره؛ فحقوق المحكومين إنما هي واجبات على الحكام، وحقوق المستأجرين إنما هي واجبات على المالكين، وحقوق الأولاد إنما هي واجبات على الوالدين، وهكذا».

أهذه لهجة وعظية مدحية كما يقول المعقِّب؟ أم هي بيان فلسفة الإسلام في التركيز على الواجبات لترعى من خلالها الحقوق؟ وتميُّز النظرة الإسلامية في ذلك، عن النظرة الغربية التي ركَّزت على الحقوق، لأسباب فكرية وتاريخية لا مجال لتفصيلها.

لقد عرفت ماذا يريد المعقِّب ونظراؤه منا: لكي نكون من أهل «العلم» لا من أهل «الوعظ». يجب أن نحقِّر من شأن الإسلام، ونُعلي من شأن الغرب، وبذلك نكون علميين موضوعيين حقًّا!

QaradawiBooks.com

والمعقِّب يطالبني أن أستقرئ الدساتير والقوانين الوضعية الغربية، بمنهجية نقدية قبل إصدار هذا الحكم.

وكنتُ أود أن يفعل هو ذلك. وسيجد أن هذه الدساتير والقوانين تقوم على فكرة «الحق» لا فكرة «الواجب»، وأن الكليات التي تدرِّس هذه الموضوعات والسائرة على النمط الغربي تسمَّى كليات «الحقوق»، على حين تقوم الشريعة الإسلامية على «التكاليف».

والعجيب أن الدكتور يتمنَّى لنا أن نتبنَّى نحن المسلمين «القيم الغربية» في أداء الواجب، من وطنية وجهاد، وإتقان عمل وصدق قول، وتقدير الكفاءة، وعقاب الفاسد مهما كان كبيرًا. ونسي سامحه الله أننا أئمة العالَم في هذه القيم والواجبات، فكيف نستوردها ونحن صانعوها؟ كان الأولى أن يقول: علينا أن نحييها ونضعها موضع التنفيذ!

(١٢) عقب «الدكتور» على ما ذكرته من سبق الإسلام بإقرار حقوق الإنسان، والدعوة إليها، والمحافظة عليها، مهونًا من ذلك بأن هذا ما جاء به «الإسلام النصِّي»، أما الإسلام التاريخي فلم توضع هذه الحقوق فيه موضع التطبيق والاحترام. وكثيرًا ما أُهمِلت وحُرِّفت، حتى جاء يوم فقد المسلمون فيه كلَّ حقوقهم.

وأقول للدكتور: إن الذي يلزمني ويلزم كلَّ مسلم، هو الإسلامي النصِّي هذا، أما انحرافات المسلمين التاريخية فهم مسؤولون عنها، وليست حجَّة على الإسلام، ولا علينا.

على أن تاريخ المسلمين في جملته، أفضل مرات ومرات من تاريخ الغربيين في تلك القرون.

QaradawiBooks.com

وليس كل ما ذكــره المعقب صحيحًا، فقد زعــم أن أبا بكر حارب المرتدين متفردًا برأيه، مع مخالفة جميــع الصحابة! وبمَن حاربهم إذنْ إذا كان كل الصحابة على خلافه؟

لقد اشــتبه بعضهم مثل عمر في قتال مانعي الزكاة، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله. فبيَّن لــه أبو بكر أنهم لم يقوموا بحقِّهــا، فإن الزكاة حقُّ المال. وبذلك انشــرح صدر عمر، ومَن كان على مثل رأيه لموقف أبي بكر، وعرَفوا أنه الحقُّ.

ولم يشــتبه عمر ولا أحد من الصحابة في قتال المتنِّبئين الكذابين، أمثال: مسيلمة، وسجاح، والأسود العنســي، وغيرهم. فقد كانت ردَّتهم صريحة، وكفرهم بواحًا.

وما ذكره ابن العماد خاص بمانعي الــزكاة، وما وقع أول الأمر من محاورة في شــأنهم، انتهــت بإجماعهم على رأي أبــي بكر، وهذا من مناقب أبي بكر فكيف اعتبر مأخذًا عليه؟! وهــذا أمر مذكور في أعلى المصادر صحة وتوثيقًا، ولكن المعقِّب يكتفي بكتاب في التراجم مُؤلَّف في القرن الحادي عشر الهجري.

ونسب المعقب إلى معاوية أنه قال في جامع دمشق: مَن قال لي اتق الله ضربت عنقه! ولم يعز ذلك إلى مصدر يوثق به، وليته قرأ ترجمة معاوية في «سير أعلام النبلاء» للذهبي، فهو الذي يروي الحوادث بأسانيدها وينقدها.

على أني لا أدعو إلى إسلام أموي ولا عباسي ولا عثماني، إنما أدعو إلى الإسلام الأول، إســلام القرآن والســنة، فهو الذي لا خيار لي ولا لمؤمن فيــه، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

QaradawiBooks.com

ليت المناقش المحترم نوَّه بحقوق الإنسان كما جاء بها الإسلام العظيم، ودعا المسلمين إلى أن يطبِّقوها في حياتهم، وأن ينشئوا من المؤسَّسات ما يرعاها ويكفل جديَّتها واستمرارها، بدل التهوين منها، والدعوة إلى الاستيراد من غيرنا.

وفي التعقيب هنات أخرى لا ضرورة للردِّ عليها، فحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق. وفي الأدب القرآني: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣].

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفهارس العامة

- فهـــرس الآيات القرآنيـــة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

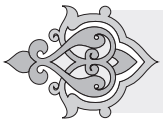

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

غير مرخصة للطباعة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	٢	٣٦
سورة البقرة		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾	٢١	٣٦
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾	٣٠ ـ ٣٣	١١٨
﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾	٤٤	٦٦
﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾	١٣٨	٥٩
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ...﴾	١٤٣	٣٩، ٦٠، ١١٨
﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾	١٥٦	٢٤
﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾	١٧٠	٩٣
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ...﴾	٢١٤	١٩٨
سورة آل عمران		
﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾	١٩	٦٠
﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾	٤٩	٢٣٠

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	١٠١	٨٤
﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ...﴾	١٠٣ ـ ١٠٥	٦، ١٩
﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ...﴾	١١٠	١٨، ٦١
﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ...﴾	١٤٠، ١٤١	١٩٨
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾	١٥٦	٩٣
﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ...﴾	١٦٤	١٨، ٦٠
﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ...﴾	١٦٥	٩٨
سورة النساء		
﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ ...﴾	٣٥	١٧٦
﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾	٥٩	١٧٥
﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ ...﴾	٧٥	١٧٦
سورة المائدة		
﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ...﴾	٣	٦٠، ٧٧
﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾	٤٨	١٦٨
﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾	١٠٤	٩٣
سورة الأنعام		
﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾	١٠٤	١٠٣
﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ...﴾	١٦١ ـ ١٦٣	٦٣
﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	١٦٢	٢٢٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأعراف		
﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾	٥٨	١١
﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ...﴾	١٥٧	٦٠
﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾	١٧٠	١٧٠
﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾	١٨١	١٦٩
سورة الأنفال		
﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾	٣٦	١٩٨
﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ...﴾	٤١	١٤٢
سورة التوبة		
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ...﴾	٣٣	١٣٩
﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾	٤٠	١٣٠
﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ...﴾	٧١	١٧٣
سورة يونس		
﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾	٣٢	١٩٣
﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾	٣٩	٥٥
سورة هود		
﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾	٨٨	١٤
﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ...﴾	١١٨، ١١٩	٣٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة يوسف		
﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾	٢	٢٩
﴿ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ... ﴾	٤٧ ـ ٤٩	١٢٦
﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ... ﴾	٥٣	١٠٧
سورة الرعد		
﴿ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾	١٧	٥٥
سورة إبراهيم		
﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾	٤	٩٤
سورة الحجر		
﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾	٩	٣٠، ١٤٢، ١٩٩
سورة النحل		
﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ... ﴾	١٢٥	٢٠٩
سورة الإسراء		
﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا ﴾	٧	١٠٣
﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾	٩	٦٠
﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾	٧٠	٣٥
سورة الكهف		
﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾	٣٠	١٧٠
﴿ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي ﴾	٩٨	١٨٦
﴿ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴾	٩٨	١٤

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأنبياء		
﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾	١٠	٦١
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾	١٠٧	٣٦
سورة الحج		
﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ... ﴾	٤٠، ٤١	١٧٠
سورة النور		
﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾	٣٥	١٢٢
﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... ﴾	٥٥	١٣٩، ١٧٠
سورة الشعراء		
﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ... ﴾	١٩٣ ـ ١٩٥	٢٩
سورة النمل		
﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ... ﴾	٣٤	١٠٧
﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾	٤٠	١٨٦
﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾	٩٣	١٣٩
سورة العنكبوت		
﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ... ﴾	٤٦	١٨١
﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾	٦٩	١٧٠
سورة الروم		
﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ... ﴾	١ ـ ٥	١٢٨، ١٣٨
﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾	٧	١٩٠

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة لقمان		
﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ...﴾	٣٤	٢٢١، ٢٣٧
سورة الأحزاب		
﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ...﴾	٢١	١٦٠
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ...﴾	٣٦	٧٨، ٢٤١
سورة فاطر		
﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾	٨	٤٩
سورة فصلت		
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ...﴾	٣٣	٦٣
﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ...﴾	٤٢	٦٠
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ...﴾	٥٣	٦، ١٣٩
سورة الشورى		
﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ...﴾	١٥	٣٧
﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾	١٧	٧٩، ٨٥
سورة الزخرف		
﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾	٢٤	٩٣
﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ...﴾	٤٣، ٤٤	٦، ٦١
سورة الفتح		
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ...﴾	٢٨	١٣٩

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحجرات		
﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ ...﴾	٩	١٧٤
﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾	١٠	١٧٤
سورة القمر		
﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۞ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ ...﴾	٤٥، ٤٦	١٣٧
سورة الحديد		
﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ...﴾	٢٥	٧٩
﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾	٢٥	١٣١
سورة الحشر		
﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ...﴾	١٠	١٤٣
سورة الممتحنة		
﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ...﴾	٨	١٧٣
سورة الصف		
﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ...﴾	٩	١٣٩
سورة الجمعة		
﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾	٢	١٨
﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ ...﴾	٥	٦٦
سورة التحريم		
﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾	٣	٢٤٢

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة القلم		
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾	٤	١٦١
سورة المزمل		
﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ... ﴾	٢٠	١٣٨
سورة المدثر		
﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾	٣١	١٩٧
سورة العلق		
﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾	٥	١١٩

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

غير مرخص للطباعة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجِز	٩٣
أحصوا لي كم يلفظ الإسلام	١٢٤
ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس	٢٤
أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل	١٠٥
اعقلها وتوكل	١٢٦
أليست نفسًا؟	٣٥
إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا	٣٤
إن الله كتب الإحسان على كل شيء	١٥٢
إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده	١٢٨
إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله	٤٠
إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق	٣٤، ٤٠
ب	
بل منكم	١٦٧
خ	
خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم	١٥٩، ١٦٤

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ر	
رأيتُ رسول الله ﷺ يثب في الدرع	١٣٧
ش	
شقائق الرجال	١٧٢
شهدتُ حلْف اَلمُطَيَّبين مع عمومتي وأنا غلام	٧
ق	
قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها	٧، ١٤٠
ك	
كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته	٩٨
الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها	٤٠
كيف بك إذا ألبسك الله سواري كسرى؟	١٤١
ل	
لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض	١٧٤
لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على الحقِّ حتى يأتي أمر الله	١٦٩
لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه	١٤٥
لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه	١٧٣
لو دعيت لمثله في الإسلام لأجبت	١٠٥
م	
ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟	١٣٠
مثل أمتي كالمطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره	١٦٨
مَن سنَّ في الإسلام سنَّة حسنة فله أجرها، وأجر مَن عمل بها بعده	٧، ١٦٣
من قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد	١٧٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

فهرس الموضوعات

❖ من الدستور الإلهي للبشرية ٦

❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٧

• **مقدمـــة** ٩

• **الفصل الأول: ثقافتنا العربية الإسلامية مكوناتها وخصائصها** ١٥

❖ عربية أم إسلامية؟ ١٧

❖ مكونات الثقافة العربية ٢٣

١ ـ الإسلام ٢٣

٢ ـ اللغة العربية ٢٩

❖ خصائص ثقافتنا ٣٣

الربانية ٣٣

الأخلاقية ٣٣

الإنسانية ٣٥

العالمية ٣٥

التسامح ٣٦

التنوع ٣٧

الوسطية ٣٩

التكامل ٣٩

نسخة تجارية

QaradawiBooks.com

• **الفصل الثاني: لكي نكون أصلاء حقًّا** **٤٣**

❖ **بين الأصالة والمعاصرة** **٤٥**

❖ **ماذا تعني الأصالة هنا؟** **٥١**

١ ـ ضرورة المعرفة والفهم لثقافتنا ٥١

٢ ـ الاعتزاز بالانتماء الإسلامي العربي ٥٩

٣ ـ العودة إلى الأصول ٦٣

٤ ـ إحياء السلفية المجددة ٦٨

٥ ـ الانتفاع الواعي بتراثنا ٧٢

❖ **الإسلام فوق التراث** **٧٧**

❖ **قراءة مستبصرة للتراث** **٨١**

قراءة مستبصرة للتراث ٨١

❖ **قراءات متحيزة أو موجهة للتراث** **٨٥**

• **الفصل الثالث: لكي نكون معاصرين حقًّا** **٨٩**

❖ **ماذا تعني المعاصرة؟** **٩١**

١ ـ ضرورة معرفة العصر ٩١

معرفة الواقع من تمام معرفة العصر ٩٦

عصرنا بين الإيجابيات والسلبيات ١٠٠

المعاصرة بين الجبر والاختيار ١٠١

ليس العصر هو الغرب ١٠٣

استيراد الثقافة الغربية بكلِّ عناصرها ١٠٨

دعوى عالمية الثقافة ١٠٨

هل الحضارة كلٌّ لا يتجزأ؟ ١٠٩

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

دفاع العلمانيين عن استيراد المذاهب والأفكار ١١٢
النموذج الغربي للتنمية ١١٤
٢ ـ العلم والتكنولوجيا ١١٧
شراء التكنولوجيا ١٢٠
لا تناقض بين النقل والعقل ١٢١
استخدام أسلوب الإحصاء ١٢٤
التخطيط ١٢٥
واقعنا المُر لا يمثل أصالة ولا معاصرة ١٣٠
٣ ـ النظرة المستقبلية ١٣٣
القرآن الكريم والمستقبل ١٣٧
الرسول والمستقبل ١٣٩
الخلفاء الراشدون والمستقبل ١٤١
أصناف الناس أمام الماضي والمستقبل ١٤٤
الصنف الأول: الموغلون في الماضوية ١٤٤
الصنف الثاني: المغرقون في المستقبلية ١٤٧
والصنف الثالث: دعاة الوسطية ١٤٩
دعوى التصادم بين التفكير المستقبلي والتفكير الديني ١٥٥
التعلق بالنموذج النبوي والصحابي ١٥٩
حاجة البشر إلى نموذج ١٥٩
استنباطات مردودة ١٦٤
استمرار الخير في سائر أجيال الأمة ١٦٨
سنن وقواعد مطردة ١٧٠
٤ ـ العناية بحقوق الإنسان ١٧١
الضمانات لمنع الاعتداء على حقوق الإنسان ١٧٥

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

• **الفصل الرابع: ملاحظات ونتائج** ١٧٩

❖ **ملاحظات ونتائج** ١٨٠

تواصل الحوار ١٨١

ملفات يجب أن تُغلق ١٨١

لا مبرر للعلمانية في أرضنا ١٨٧

تأكيد كرامة الإنسان ١٨٨

المحرقة التي تُعَدُّ لِدُعاة الإسلام! ١٩٠

فلسفة تجفيف المنابع ١٩٢

حتى المسجد لم يعد خادمًا للإسلام ١٩٦

ـ هل ينجحون؟! ١٩٧

التدين الذي يروجون له ٢٠٠

مَن الرابح من وراء ذلك؟ ٢٠٢

وخسارتها لأسباب معلومة لا تحتاج إلى تفلسف ٢٠٣

❖ **خاتـمـة** ٢٠٧

ـ محاور التقاء ٢٠٧

ـ لهذا يجب أن نتفق على رفض اتجاهين متطرفين ٢٠٨

❖ **تعقيب الأستاذ الدكتور محمود قمبر** ٢١١

❖ **ردِّي على تعقيب الأستاذ الدكتور محمود قمبر على ورقة «الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة»** ٢٢٥

• **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** ٢٤٥

• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** ٢٥٣

• **فهرس الموضوعات** ٢٥٥

❊ ❊ ❊

QaradawiBooks.com
نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة